

القضايا السياسية والاجتماعية في روايات بهاء طاهر:

## دراسة تحليلية

بحث جامعي لنيل شهادة

الدكتوراه

الباحث

محمد جيلاني

تحت إشراف

البروفيسور مجيب الرحمن



مركز الدراسات العربية والأفريقية

مدرسة دراسات اللغة والأدب والثقافة

جامعة جواهر لعل نهرو بنيو دلهي – 110067

2017





مركز الدراسات العربية و الإفريقية  
**Centre of Arabic and African Studies**  
School of Language, Literature and Culture Studies  
**Jawaharlal Nehru University, New Delhi – 110067**  
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067  
Gram: JAYENU Tel : 26704253 Fax: 91-11-2671 7525

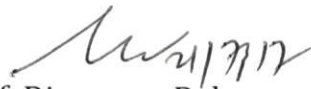
July 21 / 2017

### Declaration

I hereby declare that the research work in this Ph.D. thesis entitled “**Political and Social Criticism in the Novels of Baha Taher**” (*Al-Naqd al-Siyasi wa al-Ijtimai’ fi Riwayat Baha Taher: Dirasah Tahliliyyah*) submitted by me is my original work and has not been previously submitted for any other degree to this University or elsewhere.

  
Mohammad Jilani  
(Research Scholar)

  
Prof. Mujeeb Rahman  
(Supervisor)  
Centre of Arabic and African Studies  
SLL & CS  
Jawaharlal Nehru University  
New Delhi - 110067

  
Prof. Rizwanur Rahman  
(Chairperson)  
Chairperson  
Centre of Arabic and African Studies  
SLL & CS  
Jawaharlal Nehru University  
New Delhi - 110067

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

الحمد لله الخالق الأكرم، الذي خلق الإنسان من علق، وفضله على كثير ممن خلق، وأكرمه بأن علمه بالقلم، علمه من البيان ما لم يعلم، والصلوة والسلام على رسوله الأعظم وحبيبه الأكرم، معدن الجود والكرم، منبع العلم والحلم والحكم، وعلى آله وأصحابه ذوي الجاه والحشم، ذوي الهدى والنعم، وعلى جميع المهتمين من أفضل الأمم.

وبعد،

بفضل الله وتوفيقه أقوم بتقديم هذه الرسالة البحثية المتواضعة للدكتوراه التي تحمل عنوان "النقد السياسي والاجتماعي في روايات بهاء طاهر: دراسة تحليلية". حاولت فيها تحليل الأعمال الروائية للأديب المصري بهاء طاهر، وهو روائي شهير لأعماله القصصية ونشاطاته الثقافية والعلمية وحركاته المدنية في المجالات السياسية والاجتماعية.

ولد هذا الروائي في جيزة، مصر سنة 1935م في عشيرة دينية متواضعة، فقد كان أبوه خريجا من الأزهر الشريف وكان يعمل كمعلم حكومي. كانت الحقبة التي تربي خلالها حقبة التقلبات السياسية وتراكم الصعوبات الاقتصادية وتدهور الأوضاع الاجتماعية. واكبت ثورته العمرية من الصبوة إلى الشباب، ثورة الدولة على الملكية والاستعمار منها إلى الجمهورية والاستقلال. فترعرت نفسيته على استنكار كل ما تمثله الملكية والاستعمار وتبجيل كل ما تمثله الثورة والاستقلال من المبادئ والأفكار. فتنغم قلبه على أوتار الوطنية والعروبة، وتنشق عقله من الحرية حياة، ومن المساواة عدلا، ومن التسامح مسلكا دينيا، ومن الاقتصاد الاشتراكي عيشة. وصادق القلب عقله مما اتخذ من الالتزام موقفا - موقف مثقف للدفاع عن الوطن والعروبة وما تقومون له من الحرية والمساواة والديمقراطية

والحكم التمثيلي وما إلى ذلك. وهبه الله حياة طويلة فهو لا يزال على قيد الحياة. تذوق من عذوبة ومرارة إثنين وثمانين عاما ولا يزال نشيطا بعقله وعمله وقوله وثقافته وكتابته. كذلك يمتد عهد كتابته الروائية من السبعينات من القرن الماضي إلى العقد الأول من القرن الراهن، تحتوي على رسم الأوضاع من الأيام البريطانية إلى عهد الرئيس حسني مبارك.

تخلل بصري في أعماله الروائية وتردد فيها كثيرا بحثا مما في أعماله من تصوير المجتمع المصري ونقده من الوجهة السياسية والاجتماعية.

فالمنهج الذي اخترته لهذا البحث هو منهج التحليل الاجتماعي. والمنهج الاجتماعي في الأدب منهج يعتبر أن الأدب عمل فني اجتماعي يعبر عن الواقعية الاجتماعية- الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للشعب مع كل تناقضاتها. وأن الأدب مرآة تنعكس فيها تصاوير المجتمع على أرضية الواقع. فيحاول الأديب في أعماله، علاوة على تصوير الواقع، تثقيف الناس وتوعيتهم وحضهم وتنشيطهم إلى المبادئ والمطالب ولصالح كل ما يعتبره ذات أهمية بالغة من الوجهة الاجتماعية.

استهدفت في هذه الرسالة تصوير أماكن النقد السياسي والاجتماعي كما قام برسمه الروائي في أعماله يتخلله الرجوع إلى الأحداث التاريخية وتحقيق مدى توافقها من الرسم في الروايات وخاصة فيما يتعلق بتصوير أماكن الواقع السياسي. وأماكن تصوير المجتمع فمنها أماكن ذاتية ومنها أماكن مجتمعية شاملة فحاولت بإتيان الشواهد المعنية قدر المستطاع كما في قضايا الاقتصاد والتسامح الديني.

ينحصر نطاق التحليل في أعماله الروائية فحسب لا غيرها من قصصه القصيره وكتبه العلمية والمقالات. وأعماله الروائية الست هي "شرق النخيل"، "قالت ضحى"، "الحب في المنفى"، "نقطة النور"، و"واحة الغروب".

تحتوي الرسالة على أربعة أبواب وكل باب يحتوي على عدة فصول.

الباب الأول: حياة بهاء طاهر وأعماله، والإطار السياسي والاجتماعي والثقافي

حاولت في هذا الباب تقديم نبذة عن حياة الروائي وأعماله ثم انطلقت منها إلى تقديم الإطار السياسي الاجتماعي للحقبة التي عاشها الروائي. فبداية مع تمهيد وجيز للمصر الحديث يمضي الكلام من حقبة الاحتلال والاستقلال ثم يلج الحديث إلى تصوير مقتصد للإطار السياسي الاجتماعي في عهد الرئيس جمال عبد الناصر، الرئيس أنور السادات والرئيس حسني مبارك واختتمت الباب بذكر بسيط للربيع العربي وما تلاه.

الباب الثاني: النقد السياسي في روايات بهاء طاهر

كرست هذا الباب لتحليل القضايا السياسية كما صورها في أعماله الروائية. أطلت الكلام وبذلت مجهوداتي حول القضايا المتعلقة بالليبرالية من قمع الحريات والاضطهاد، والالتزام، وقضايا الهوية من فلسطين والعروبة وقضايا العنصرية والنفى والإمبرالية.

الباب الثالث: النقد الاجتماعي في روايات بهاء طاهر

يحتوي هذا الباب على تحليل القضايا الاجتماعية وسار الحديث فيه حول قضايا الحب والجنسية، وقضية التربية والطفولة، وقضية الاقتصاد وقضية التسامح الديني.

الباب الرابع: إسهامات بهاء طاهر في الأدب والمجتمع العربي

يجري الحديث في هذا الباب عن إسهام الروائي في المجتمع والأدب العربيين. استهللت بذكر وجيز عما يحمله الكاتب من آراء وأفكار فيما يتعلق بالسياسة والمجتمع والأدب والثقافة. ومن خلال تقديم آراء المثقفين والأدباء

والصحفيين قمت بتقديم تقييمهم للكاتب وإسهاماته في المجتمع العربي ودوره وأدائه في مسار الأدب العربي وتطويرة مع تبيين لإسهاماته المتميزة التي تحمل لونا خاصا بشخصية الروائي، ومع بيان ما قام معاصروه بإشادة وتقدير لأعماله من الوجهتين الفنية والمادة الأدبية، وأنهيت الكلام بذكر وجيز عن ميزات بارزة في رواياته.

أنهيت دراستي بخاتمة قمت فيها بذكر حصيلة الرسالة وما انتهت إليه من النتائج خلال مساري البحثي، وأبدت فيه آرائي ومواقفي عما تتعلق بصدق تصوير الواقع أو بتوافق أو تناقض الآراء أيا كان، كما صاب لي رأيي. لم أقصد برسالتي هذا تعزيز شأن لأحد ولا تهجين. ويمكن أن يكون الكلام في بعض الأحيان ازداد حدة أو انحط عن جدة فيكون ذلك ناتجا من دون وعي أو من ضعف لدي. وقد بذلت ما تيسر لدي من جهد وجودة وأعطيت لعملي ما لدي من سعة، ولا أدعي بعدم قصور في محاولاتني ولا براءة من زلاتي، فإني إنسان وخلق الإنسان ضعيفا، فطبيعي زلاتة. فالمرجو المعافاة، بالله العون ومنه التوفيق ومنه وإليه الرشاد، وعليه التكلان، فهو نعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير.

وأشكر الله شكرا يجعله الله من فضله مستجابا يربط به لساني لشكر أكثر مؤيدٍ على ما سخر لنا من نعمائه وآلائه في الأنفس والآفاق، وعلى ما مهد لنا من سبل السلام، وما جعل لنا من مخارج حسنة ومداخل كريمة في وجوه المهايوي والعوائق، وعلى ما رفع عنا الهم والحزن، وأصبرنا في أماكن الصبر وربط على قلبي كلما كان على وشك الانقراض في وجوه ما نظنه من عراقيل وصعاب.

ولن أكون شاكرا لله لولا أن شكرنا عباده الذين قاموا بأداء ما كلفهم الله من الشفقة والعطف والود والعون. فنقدم من الشكر ما حُق لهم إلى والدي والأساتذة والإخوة والأخوات والأقرباء والأصدقاء وإلى كل من قدموا لنا من خير وعون صغير أو كبير مباشر وغير مباشر، وجزاهم الله عنا خير الجزاء.

وأقدم جزيل الشكر إلى مشرفي وأستاذي الدكتور مجيب الرحمن الذي أمسيت في ظله من البكالوريوس إلى الدكتوراة، وأقدر له بأعماق قلبي لدوره في إثراء عقلي وإزهاء فكري خلال كل هذه الأعوام الطويلة وهو الذي قام بتصويب الطرق وتسهيل الأمور، وتسنية الأطر وتسديد الفتور خلال مساري البحثي، ولولاه وشفقته لما فزت بعملتي هذا فجزاه الله عنا خير الجزاء. ولا ننسى تقديم الشكر والتقدير لجميع أساتذتي في جميع المراحل التعليمية في المدارس والجامعة هذه. ونخص بالذكر والشكر ههنا الوالدين الذين رباني صغيرا ولا يزال ظلهم من الشفقة والعطف والحنين مديدا علي ولا أزال أحس بذلك الدفء كصبي في أحضانهما. رب ارحمهما كما رباني صغيرا واجعلهما في رافة ورحمة أوسع من لدنك في الدارين. وآخر قولنا أن الحمد لله رب العالمين.



الباب الأول: بهاء طاهر حياته وأعماله والإطار السياسي الاجتماعي الثقافي

## الفصل الأول: حياة بهاء طاهر

هو بهاء طاهر در ثمين من الدرر التي أنجبها نهر النيل، ورى ذلك الدر بين أحضانها - ريعانه وشبابه، تربية الأم حينها مفرغة فيه حنينها وأنيبها، عطفها ودفعتها، تربية الرجل أحيانا أخرى - فأركبه المخاطر مجريها وموجها، طغيانها ودوارها، شواطئها فسوءها، علاءها فثراءها، فجعل منه إسما ساميا ورجلا محنكا يحمل بين خصرانه قلبا مبصرا منعظا واعيا مستنيرا، إلى خلايا الحوادث ببصره ينفذ، بجوانبها يحوى، في ظروفها يعمق وعلى مراميها يطلع، متعاطفا مع الإنسانية - بكلمها يكلم وبجرحها يجرح وبدمها ينزف، فيقتشع لها ألما وينفطر لها وجعا، يقظا يطالع بعقله من نوب وحدث ما يجري في داره وجاره، مقامه ومساره، أقصاه مكانا أو أدناه، قرية كان أوحضرا، بادية منه أو عامرة. لبلاده يبكي ولعالمه يذرف، لدينه يألم ولإخوانه يكره، لبناته يصرخ ولحقوقهن يضطرب، عن حريتهن يدافع ولممارستها يطالب، لحصولها يظهر. يحارب لها قلما ويمشي لها قدما، فيقوم لها نصبا فيثير لها ضجا، فيصوت لها صحبا لا يخاف نزفا ولا هدمها، فيأخذ لها خشبا فيصيقل منه قلما بدمه يرويه، بتجاربه يثريه، بقلبه يمليه وبعقله يزيهيه، فاذا هي خطوط مستوية ملتوية مترابطة في سلسلة أنيقة ومتشابكة شبكة رشيقة تنبأ عن مهام الأمور، ففيها أمعنت الأنظار وإليها أصغت الأذان، تسابقت لها العقول وتقاومت عليها القلوب، فصرخن جمعا يا لها من قصص قصت علينا وروايات أبرزت لنا، تكلم عن أنفسنا وتعبر عن كروبنا، تبكي أحوالنا وتنبض من آمالنا، لعواطفنا تنعطف، لحريتنا تنفعل ولحقوقنا تصطخب، ومن أجلها تكشف عن مساوينا وتدل على أماكن ضعفنا، تحرض نفوسنا وتغلغل عواطفنا وتحرك عقولنا فتنتطلق أقدامنا فيعدو مسيرنا، فنقوم لحقوقنا، لحريتنا، لإنسانيتنا، لسياستنا النقية واقتصادنا الراقي واجتماعنا العالي المستوى.

عله لا يتصفي بالاعتداء والغلو المعاصرون من الحقول الأدبية مما قدمنا من التوصيف، ولا يجيدون عن رأيي أن الرجل الذي ولد في 13 يناير عام 1935 في جيزة، غلا فيه قلبي أو قصر. الجيزة قرية من قرى الكرنك،

بالتحديد هي إحدى قرى مدينة الأقصر الواقعة جنوب القاهرة بحوالي سبعمائة كيلومتر الشهيرة للأثار وخاصة معبد الكرنك الشهيرة. اسمه الميلادي "محمد بهاء الدين عبدالله طاهر". كان أبوه شيخاً أزهرياً. كانت أمه أمية لم تعرف القراءة ولا الكتابة ولكن كان لديها نهم شديد لحكاية القصص والأحداث. ورث عنهما أوصافاً عديدة- من أبيه النهم الشديد للقراءة في الأدب والقناعة والتكلمان، ومن أمه مذاق الحكاية والقصة وحبها.<sup>1</sup>

كانت أسرته تشتمل على تسعة أفراد وكان الروائي ختاماً . أبوه يشتغل بالدراسة كموظف حكومي وسيط الدرجة كآخرين من خريجي الجامع الأزهر الشريف. كان له تجوال في عديد من أنحاء مصر والذي انتهى به إلى الجيزة. بدخله المتوسط بالكاد كان يشرف على مسؤولياته. هذا قبل إحالته إلى التقاعد، وكان بهاء طاهر عندئذ في الخامسة من عمره. ازدادت الأمور صعوبة بعد التقاعد وتأثرت بها حياة أسرته. واجه الكاتب أيام الصعب والحرمان منذ طفولته وكان له أثر كبير على نفسية الكاتب، يمكن لأحد أن يرى هذا الطفل المكبوت في رواياته وقصصه. حينما بلغ السابعة عشر من عمره توفي والده سنة 1952م العام الذي دخل فيه الجامعة وحدثت ثورة يوليو.<sup>2</sup> وسقطت المسؤولية على عاتق أمها التي تكلفت بالأمر وربت أولادها.

والعام 1942م العام الكابوسي ولم تمر على عمره سبعة أعوام أتى بوباء الملاريا الذي قضى على أكثر من نصف عائلته ما ألقاه في دوامة الخوف من الموت وغطاء الحزن. لا تبدو تفارقه هذه الذكرى المفزعة حتى اليوم ولا يخفى ذلك على من يقرأ في أعماله أو من يلقاه في حوارهِ. فالحزن الشامل يبرز بملامح متعددة في كل ما يكتب والموت يتخلله أو يجتمه.

<sup>1</sup> قد استمدنا معظم عن التفاصيل التي تتعلق بحياته الذاتية من كتابه "الثقافة والحرية" ومن السيرة الذاتية التي نشرت في مقدمة روايته "خالتي صفية والدير".

<sup>2</sup> طاهر، بهاء، الثقافة والحرية، ص 105

تعلم مبادئ القراءة والكتابة في إحدى المدارس الإلزامية وحفظ جزءاً من القرآن الكريم في أحد كتاتيب الجيزة، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية بالجيزة ، وما أن تعلم القراءة حتى مال إلى قراءة القصص. فقبل أن يصل في السنة الثالثة الابتدائية نجده قد قرأ كليلة ودمنة، وقصص ألف ليلة وليلة بلغة مبسطة للصغار وبعض القصص للمنفلوطي. من بداية السنة الثالثة نجده يتذوق بقراءة روايات الجيب(ما كان يتنقلها هو وزملاءه عن طريق الجيب ) أرسين لوبين وشرلوك هولمز وروكامبول وغيرها. في سنة رابعة أول فاز بالدرجة النهائية في قصة كتبها في اختبار والتي أبكت ناظر المدرسة حين قرأها. أمر الناظر أن تكون القصة موضوع درس إملاء على جميع فصول المدرسة. يقول بهاء طاهر " هو أول مجد حصلت عليه من كتابة القصة". ونرى هنا انفتاح ذوقه القصصي والذي سوف ينتهي إلى قاص بارع.

ويدخل مدرسة السعيدية الثانوية. كانت الحقبة هذه حقبة تكوينه السياسي الأساسي -حقبة الحرب العالمية الثانية . كان الجو يميلاً بالنشاطات السياسية الجارفة التي جرفت معها كل طبقات المجتمع في السياسة من بينهم الطلبة والأساتذة. والحلم السائد في المناطق المحتلة في ذلك الوقت كان الوطنية والقومية والقومية العربية. كان الطلبة يشاركون في المظاهرات ضد الإنجليز وضد الملك فاروق. الأساتذة كانوا يجرسونهم للمشاركة وكان الروائي هذا من بين الذين شاركوا في هذه المظاهرات من السعيدية الثانوية. وهنا بدأ تكوين بهاء طاهر الوطني العربي الليبرالي، فشارك أيضا في مظاهرات ضد فرنسا على ما ارتكبت من الجرائم في الجزائر، وضد إنجلترا من أجل العراق وضد الصهيونية من أجل فلسطين. احتك من خلالها مع الوفديين والإخوانيين والشيوخيين ولولم ينحاز لأحد من الأحزاب. لكنه بكل حماس شارك في كل هذه المظاهرات ولا يزال هذا موقفه من السياسة حتى اليوم.

ويلتحق بالجامعة في نفس السنة التي حدثت فيها ثورة يوليو. ذلك أنه في خامسة ثانوي دخل في مسابقة التاريخ التي كانت تجري سنويا وكان للعشر الأوائل منها يسمح بدخول الجامعة مجانا فضلا عن 20 جنيها جائزة. فاز بالمقام الرابع ودخل الجامعة في قسم التاريخ.<sup>3</sup> وكان ذلك ضد رأي والده الذي كان يرى مهنة المعلم مهنة الجحود.

يقول إنه استقبل ثورة تموز بفرحة عارمة واعتبر يوم خروج الملك فاروق من مصر واقعا حقيقيا.<sup>4</sup> من البداية هو كان من حماة الناصرية ولا يزال حتى الآن كذلك. قام بكل ما أتت به الثورة من المشروعات من أمثال الإصلاح الزراعي وتطهير الحكم من الفاسدين والمرتشين وتقسيم الأراضي. وفي نفس الوقت ينتقد ضيقا من الإجراءات القمعية من قمع الديمقراطية ومحاکمات الثورة وإلغاء حرية الصحافة، حق التظاهر وحق تكوين الأحزاب وغيرها، فيخرج إلى التظاهرات الصاخبة ويهتف بسقوط حكم البكباشنة<sup>5</sup> يقول بهاء طاهر: إن صراعا قد نشأ - لا بيننا وبين الحكم فحسب بل إن الصراع نشب في وجداننا أيضا بين تأييدنا بما تفعله الثورة في حربها ضد الإنجليز ومن أجل استقلال الوطن والنهوض به وبين كراهيتنا لحكمها الباطش وقبضتها الخانقة.<sup>6</sup>

وفي السنة الأخيرة من الجامعة اشتغل مترجما في مصلحة الاستعلامات. منذئذ كان يكتب القصص ولكن كان يخفيها إلا على الأصدقاء الذين كانوا يشاركونه في آرائه وميوله من أنه كان يكتب أدبا معاديا للكثير من توجهات الثورة.

<sup>3</sup> طاهر، بهاء، الثقافة والحرية، ص 107

<sup>4</sup> نفس المصدر، ص 3

<sup>5</sup> طاهر، بهاء، خالتي صفية والدير، ص 18-19

<sup>6</sup> نفس المصدر، ص 19

تخرج في الجامعة عام 1956م ونجح في اختبار للعمل في الإذاعة عام 1957م. انضم إلى البرنامج الثاني (الثقافي) والتحق بالإذاعة حيث عمل مديعا ومخرجا ومقدم برامج. عمل في إذاعة صوت العرب من 1959م الى 1961م ، ومنذ 1968 عمل نائبا لمدير البرنامج الثاني<sup>1</sup>. هذا لعب دورا كبيرا في تطوير الإبداع والنقد الأدبي والمسرح. يقول بهاء طاهر إنه لعب دورا كبيرا في تكوينه الثقافي والشخصي فإنه أتاحه الانفتاح على ثقافات متنوعة من الشرق والغرب وأعطاه صداقات ثرية ورائعة مع العاملين والمتعاملين معه وكانوا من صفوة المثقفين من أمثال فاروق خورشيد وفاروق شوسة وإدوار الخراط وصبري حافظ.<sup>7</sup>

ثم يأتي عهد السادات والذي أتى بسياسة تسديد الثورة فألغى كثيرا من الإجراءات المتعلقة بالعدالة الاجتماعية وبالطبقات المتخلفة. قام بتنفيذ مشروع الانفتاح الاقتصادي والحياز إلى سياسات الولايات المتحدة الأمريكية فقام الناس بالمظاهرات ورفعوا الأصوات ضده وكان الروائي من بينهم وكان يعمل في الإذاعة وقتذاك. فبدأ حكم السادات المهجوم على المثقفين والكتاب وطميشهم ومنعهم من الكتابة وتنحيهم من الوظيفة.

عندما أنشئ أول مجلس لاتحاد الكتاب عام 1976م، رشح يوسف السباعي الذي كان وزيرا للثقافة آنذاك ثلاثين عضوا لعضوية المجلس لينتخب من هؤلاء تسعة وعشرون عضوا وبهاء طاهر منهم مما أثار غضب الوزير الذي كان يرى فيه يساريا خطيرا. فمنعه من حرية الكلمة لينقله من القسم الأوربي في الإذاعة. وكان معنى ذلك أن يقبض بهاء طاهر راتبه الشهري بدون عمل.<sup>8</sup> ثم يمنع من الكتابة في الصحف وبالتالي بالوقوع في ضائقة مادية خانقة. لم يبق بعده إلا أن يغادر وطنه بحثا عن الوظيفة فعمل في عديد من المدن الأفريقية والآسيوية

<sup>7</sup> طاهر، بهاء، خالتي صفية والدير، ص 23

<sup>8</sup> مامكغ، لانا، بهاء طاهر قصصيا وروائيا، ص 1، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2002

من روما، فينا، نيروبي، باريس، فريتاون، حتى استقر من عام 1981م مع وظيفة الترجمة في هيئة الأمم المتحدة في جنيف وبقي هنا حتى عام 1995م إلى سن المعاش.<sup>9</sup> منذ ذلك يسكن الروائي في إسكندرية مع زوجته الحالية البلغارية وقد أنجب بنتين من الزوجة الأولى. إنه مر بتجربة زواج فاشل والذي خلف في وجدانه أثرا غائرا في حياته رغم حساسيته البالغة على صيانة العلاقات الفردية. هذا الجانب من التجربة المريرة كثيرا ما يتعود خلال عديد من رواياته وإن لم يصح القول بأنه أفرغ من تجاربه الذاتية في أعماله.

كان بهاء طاهر من الأعضاء الناشطين لحركة "كفاية" للتظاهر في سنة 2004-2005م ضد توريث حسني مبارك الحكم إلى ابنه جمال. هو من الناشطين الذين يشاركون في التظاهرات والاعتصامات على الرغم من شيخوخته وصحته المتدهورة، وواحد من المتحدثين البارزين في الحوارات الإعلامية.<sup>10</sup>

حاز على جائزة الدولة التقديرية في الآداب سنة 1998م، والجائزة الإيطالية جوزيبي أكيربي لروايته "خالتي صفية والدير"، و"جائزة الزياتور الإيطالية" لروايته "الحب في المنفى" وفي سنة 2008م سعت إليه بوكر العربية لروايته "واحة الغروب".<sup>11</sup> وقام برد "جائزة مبارك للآداب" قائلا إنه لا يستطيع أن يحملها وقد أراق نظام مبارك دماء

<sup>9</sup> مامكغ، لانا، بهاء طاهر قصصيا وروائيا، ص 1، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2002

<sup>10</sup> Kassab, Elizabeth Suzanne, Critics and Rebels: Older Arab Intellectuals Reflect on the Uprisings, British Journal of Middle Eastern Studies, p 18, Routledge, Published online on 19 March 2014,

<http://www.tandfonline.com/loi/cbjm20>

<sup>11</sup> قاسم، سامح، بهاء طاهر... الطفل الذي يطاردنا"بوابة نيوز، 2016/01/13 لمزيد المتابعة : <http://www.albawabnews.com/1715816> حسب الزيارة في 4 يوليو 2017م، البوابة نيوز - المركز العربي للدراسات السياسية، 57ش.مصنق، الدقي، الجيزة، الجيزة، مصر .

المصريين.<sup>12</sup> واستقال من عضوية "المجلس الأعلى للثقافة" في سنة 2013م بعد التعديل الوزاري الذي قام به الوزير الجديد تحت حكم الإخوان والذي لم يرض به.<sup>13</sup>

#### أعماله:

كما سبق أنه كان ولوعا بالقراءة والكتابة القصصية من مبكر عمره وكتب كثيرا من القصص التي كثرتها غير منشورة لبالغ اهتمامه في الكتابة الجادة وبما يليق بالنشر منها. على الرغم من ذلك نجد عديداً من قصصه القصيرة والروايات نشرت على مر السنين، والتي نالت قبولا واسعا بين القراء في بلاده وبين الأجانب وفازت بالاهتمام البالغ والتقدير الأدبي بين المثقفين والفنانين. فكتب كثير من الأدباء والناقدين مقالات عن قصصه ورواياته. أخرجت عديد من قصصه وإحدى رواياته كمسلسلات تلفزيونية واكتسبت تقديرا مشجعا بين الناظرين. ترجمت جميع رواياته في عديد من اللغات الأوروبية وكذلك بعض قصصه القصيرة.

نشر له: الخطوبة عام 1972م، بالأمس حلمت بك 1984م، أنا الملك جئت 1985م (قصص قصيرة)، قالت ضحى 1985م (رواية)، شرق النخيل 1985م (رواية)، خالتي صفية والدير 1991م (رواية)، الحب في المنفى 1995م (رواية)، ذهب إلى شلال 1998م (قصة قصيرة)، ونقطة النور 2001م (رواية)، وواحة الغروب سنة 2006م (رواية). نال الجائزة العالمية للرواية العربية عام 2008م لروايته "واحة الغروب" وتم ترجمتها إلى عدة لغات من البوسنية، والكرواتية، والفرنسية، والإنجليزية، والألمانية، واليونانية، والإندونيسية، والإيطالية،

<sup>12</sup> Kassab, Elizabeth Suzanne, Critics and Rebels: Older Arab Intellectuals Reflect on the Uprisings, British Journal of Middle Eastern Studies, p 18, Routledge, Published online on 19 March 2014,

<http://www.tandfonline.com/loi/cbjm20>

<sup>13</sup> Ibid



والنرويجية والرومانية<sup>14</sup>. اختار مهرجان الأقصر للسينما المصرية والأوروبية الروائي المصري بهاء طاهر رئيساً شرفياً لدورته الأولى التي أقيمت في سبتمبر سنة 2012م في مدينة الأقصر الجنوبية<sup>15</sup>.

وصدرت له الأعمال: فاصل غريب- ترجمة لمسرحية يوجين أونيل 1970م، البرامج الثقافية في الإذاعة- دراسة نظرية 1975م، مسرحيات مصرية: عرض ونقد 1985م، أبناء رفاعه: الثقافة والحريه دراسة 1993م، ساحر الصحراء وهو ترجمة لباولوكويلهو 1996م، و "أيام الأمل والحيرة" 2013م الذي يصور ما حدث بعد ثورة الربيع العربي.<sup>16</sup>

تم تخريج رواية 'واحة الغروب، كمسلسل سينمائي سنة 2017<sup>17</sup>، كما تم إخراج عمله 'خالتي صافية والدير' كمسلسل سنة 1996م.<sup>18</sup>

<sup>14</sup> Clee, Nicholas, Arab Literature Goes International, Book Brunch, Publishing: 14 Oct 2010, <http://www.bookbrunch.co.uk/page/free-article/arab-literature-goes-international/> as accessed last on June 29, 2017

<sup>15</sup>سكاي نيوز عربية، اختار مهرجان الأقصر للسينما المصرية والأوروبية الروائي المصري بهاء طاهر رئيساً شرفياً لدورته الأولى التي تقام في سبتمبر في مدينة الأقصر الجنوبية، 5 يونيو 2012، العنوان الإلكتروني حسب الزيارة من يونيو 29، 2017، <http://www.skynewsarabia.com/web/article/25459>

<sup>16</sup> قاسم، سامح، بهاء طاهر.. الطفل الذي يطاردنا"بوابة نيوز"، 2016/01/13 لمزيد المتابعة : <http://www.albawabhnews.com/1715816> حسب الزيارة في 4 يوليو 2017م، البوابة نيوز - المركز العربي للدراسات السياسية، 57ش.مصدق، الدقي، الجيزة، الجيزة، مصر .

<sup>17</sup>تاريخ العرض: 27 مايو، 2017م، <http://www.elcinema.com/work/2036832/>

<sup>18</sup>تاريخ العرض: 24 مارس 1996م، <http://www.elcinema.com/work/2036832/>

## الفصل الثاني: الإطار السياسي والاجتماعي والثقافي

علاوة على طفولته المليئة بالحرمان والمصاعب وذكرى الأموات الكابوسية ما يمكن أن تسمى بالتجارب الشخصية فقد تأثر كثيرا من المناخ السياسي حوله خلال سنواتها في السعيدية الثانوية وخاصة خلال تعليمه في الجامعة. كذلك تأثر كثيرا مما تلى الثورة في الحقبة الناصرية من وقائع وأحداث وإجراءات وسياسات ومما مر به من تجارب خلال حقبتين بعدها من حقبة السادات ثم عهد حسني مبارك. تأثر من السينما كثيرا، يقول عن المؤثرات الذاتية في حياته: "السينما لعبت دورا كبيرا في تكويني... فهمي للناس والحياة والتجارب، أنا مدين للسينما بالكثير، عندما كبرت كنت عضوا مؤسسا في جمعية الفيلم، وكنت دائم التردد على نادي السينما " أوبرا" وبدأت أقرأ وأعرف "دنيا الفن" والأستوديو وغيرها من المجالات".<sup>19</sup>

نقل ما ذكره الكاتب عن تأثيراته في حياته . يقول بهاء طاهر: كان العصر مزحوما حوله بالتناقضات وبالقلق.... سياسيا واجتماعيا ولما كبر كانت فكرة النهوض التي تجسدت مشروعات القومية والوطنية.... تلك الأحلام الكبيرة في طريقها للانكسار... ولم تلبث أن انكسرت وبدأ بهاء رحلة اغتراب لم تنته بعد. "<sup>20</sup>

" في أواخر الأربعينات كان هناك فوران شامل وأبناء هذا الجيل كانوا يلمنون... يريدون امتلاك الحياة بالأحلام أو بتعبير صلاح عبد الصبور - حاولوا امتلاك المستقبل بالمعرفة! وحينما قامت ثورة يوليو أرادت أن تعيد صياغة العلاقة بين الناس وأن تنظم أحلامهم، لكنها لم تر طريقة لذلك سوى الطريقة التي اختارتها... حبست عقول الناس في قفس وأطلقت - من جهة أخرى - ملكاتهم. وبدأ الجيل كتابته بالكتابة بالثورة أي ضد أحلامه! ثم جاءت النكسة فانهار يقين أبنائه بكل شيء ولم يكن ثمة مهرب من الانهيار إلا بالكتابة.... كما قال شكري

<sup>19</sup> طاهر، بهاء، الثقافة والحريّة، ص 176

<sup>20</sup> نفس المصدر، ص 30

عياد: جيل ثورة 1952، وهذا قدره التاريخي: لقد بدأ اللعب بالقلم حين كان الجو مليئا بالصياح والتهليل، وعندما ثبت القلم بين أصابعه كان الجو مليئا بالصياح والعويل، وكان عليه أن يحمل أوزار السابقين ويسير دون دليل".<sup>21</sup>

كان الروائي قد عرض للوزارة في مرات إلا أنه رفض بذلك فيقول " بالفعل تلقيت عرض تولى الوزارة أكثر من مرة وبالتحديد عقب ثورة الخامس والعشرين من يناير، إلا أنني رفضت بشكل قاطع تولي ذلك المنصب، أو أي منصب في الدولة، فرغبتني دائماً الابتعاد عن السياسة، علاوة على حالي الصحية، كما أنني أرى أن الشباب الأحق والأجدر بتولي المناصب في الوقت الحالي، لا سيما بعد ثورتي الخامس والعشرين من يناير والثلاثين من يونيو، واللتين قامتا على أكتاف الشباب".<sup>22</sup>

" قال الكاتب والأديب الكبير بهاء طاهر، إن جيل الستينيات الذي هو ينتمي إليه كان سعيد الحظ، ولم يواجه صراعا من الجيل السابق بل نضج على أيدي قامات كبيرة. وأضاف أيضا... أنه حظي بدعم كبير في بداياته من الكاتب الكبير يوسف إدريس الذي قدم أولى قصصه بمجلة الكاتب، مشيرا إلى أنه محظوظ لأنه عاصر نجيب محفوظ، ويحيى حقي، ولويس عوض... كما يقول: استفدت كثيرا من هؤلاء العمالقة في مشروعني الأدبي وكنت حريصًا طوال الوقت ألا أقلد أيا منهم ، فحاولت أن أشق طريقا مستقلا في الكتابة، وكان ذلك أهم ما يميز جيل الستينيات حيث طوع السياق الثقافي الذي نشأ فيه لإحداث ثورة على أساليب الكتابة وتبني مسالك

<sup>21</sup> طاهر، بهاء، الثقافة والحريّة، ص 31

<sup>22</sup> نصر، محمد، بهاء طاهر في حوار له "البوابة": مصر غير مؤهلة لتطبيق الديمقراطية، البوابة نيوز، لبوابة نيوز - المركز العربي للدراسات السياسية، 57ش.مصدق، الدقي، الجيزة، الجيزة، مصر 12626 ، 27من شهر سبتمبر 2015 ،

<http://www.albawabhnews.com/1519024>

جديدة تناسب الحالة الثورية التي سادت بعد ثورة 1952، وفي هذه الفترة كان عبد الناصر يمسك بزمام الثقافة بيد قوية، وبدأ يعيد صياغة الواقع، ولكني كنت مغامرا في كتاباتي لا أمتثل لأي قيود.

وردًا على السؤال الذي وجهه الناقد الدكتور حسين حموده، حول مدى تأثير الضابط الديني أو القيد الإجتماعي على تجربته الإبداعية ، قال الكاتب الكبير إن الضغوط التي يمارسها من يدعون التدين على حرية الإبداع اليوم، لم يكن لها وجود حينها بل لم يكن لأنصار التيار الإسلامي وقتها أي تأثير، وأضاف أنه كان يقدر حريته في الكتابة ويغامر في اختراق التابوهات وفي نفس الوقت يحرص على ألا يكون مبتذلا ومثيرا. ويقول عن كتابات الثورة: كل الأعمال التي كتبت عن ثورة 25 يناير هي أقرب إلى الريبورتاج منها إلى عمل أدبي مكتمل، فأنا أقبلها كنوع من الذكريات يوثق لأحداث الثورة وماتبعتها، ولكنها ليست أعمالاً خلقت لتبقى. الكتابة عن الثورة تطلب منا الانتظار، لايمكن أن تكتب عن ثورة وأنت تقف في وسطها، فهي كالدوامة تبتلعنا وحتى نكتبها يجب أن نقف على ثابتين أولاً وتأملها من بعيد."23

المقصود بإتيان هذا الفصل هو تصوير الإطار الذي ترك الزمن فيه بصماته السياسية والاجتماعية والثقافية والذي تركب به المناخ الذي أثر في حياة الكاتب أثرا مباشرا وبعض الآثار الغير المباشرة التي يبدو هذا المناخ استمرارا لها.

<sup>23</sup> زيزي، شوشة، بهاء طاهر: جيل الستينيات محظوظ بمساعدة الكبار، جريدة"البديل" يناير 29 الأربعاء 2014م ، العنوان الالكتروني حسب آخر اتصالي في يونيو 29، 2017 <http://elbadil.com/author/zizi-shousha/>

نأتي بالذكر الوجيز للنهضة الحديثة ثم نخوض بذكر أربع حقبات سياسية التي مر بها الروائي ونحاول اقتصار المجال إلى نوعية الحكم السياسي والمشروعات الاقتصادية والخطوات المتعلقة بتحسين أحوال الجوانب الاجتماعية ودور المثقفين وكيفية معاملة الحكم معهم وهي:

التمهيد أولاً ثم

1- التجربة الليبرالية

2- أيام العز والحن، أيام جمال عبد الناصر

3- إصلاح الإصلاحات: الرئيس أنور السادات

4- عهد الجمود: الرئيس حسني مبارك، وذكر السياسة المصرية منذ ثورة يناير 2011

**التمهيد:**

تعتبر الحملة الفرنسية سنة 1798م على مصر بداية العصر الحديث والنهضة العربية الحديثة كونها منعطفًا تاريخيًا ما غير واقعية مصر تغييرًا جذريًا في جميع نواحيها المهمة سياسيًا وفكريًا وثقافيًا وحضاريًا مع آثاره المترامية الأبعاد في شتى مجالات الواقع الاجتماعي.

بونابرت أثار فكرة الانتماء المصري لدى المصريين وفكرة المساواة والحرية، فقد قال في منشوره الأول إلى أهل مصر: 'طرف فرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية...إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلصكم من يد الظالمين،<sup>24</sup> وأفضى احتكاك المصريين مع الفرنسيين إلى اكتشافات جديدة قد غفلوا عنها من قبل من الحرية الفردية والحكم الجمهوري وحرية المرأة ومساواتها. فقد رأواها وغيرها من الأفكار السياسية والاجتماعية ورأوا أنهم

<sup>24</sup> صبري، محمد، تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم، ص 28

يمارسون الحياة المادية على غرار لم يكونوا يألّفونها من أمثال حفلات التمثيل والغناء والموسيقى والرقص وشاهدوا النساء الفرنسيات يتمطين حاسرات الوجوه حذوا بحذو مع الرجال لابسات الفستانات.<sup>25</sup> وانبهروا بما رأوا من تقدمهم في العلوم التاريخية والطبيعية والرياضية فبهتوا بما شاهدوا من تجارب كيميائية والمطبعة التي تطبع بالحروف العربية والصحف والكتب ولم يكن للمصريين عهد بها من قبل.<sup>26</sup> عندما ألقى ممثل الفرنسيين خطابا في الديوان العام الأول ومجدوا مصر ماضيها وتاريخها وما كانت لها مكانة مرموقة في السياسة والتجارة والصناعة والعلوم وأن العلوم الغربية ليست إلا أخذت من النبع المصري كان من شأن هذا الخطاب أن أوقظ الشعور القومي عند المصريين. إن كان زمن الاحتلال الفرنسي زمن معارف من جهة كان زمن حرب وثورة من جهة أخرى فحدثت من جراء ذلك هزة عنيفة في البلاد تمخضت عنها الفكرة الاستقلالية التي ظهرت ملامحها في عصر محمد علي وتجلت في عصر إسماعيل.<sup>27</sup>

تنسحب فرنسا من مصر عام 1801م تحت ضغوط إنجلترا والسلطنة العثمانية، يتلوها الفوضى في سياسة مصر حتى يتم تعيين محمد علي باشا واليا على مصر عام 1805م . وقام الشعب المصري بتأييد توليته على مصر وطالب ذلك من الآستانة . هم فعلوا ذلك راجين أنه يقوم بخدمة مصالح الشعب المصري ولكنه "لم يجر إلى آخر الشوط الذي كانوا يملكون به.. ففضى على آمال المصريين ومطامحهم في اشتراكهم مع الحكم في حكم أنفسهم وتدبير شؤونهم.<sup>28</sup> ولكنه كان لديه مطامح عالية وإن لم تنبع ذلك من النزعة القومية المصرية من بناء إمبراطورية

<sup>25</sup> ضيف، شوقي، الأدب العربي المعاصر في مصر ص 13

<sup>26</sup> نفس الصدر السابق ص13،12

<sup>27</sup> صبري، محمد، تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم، ص 29

<sup>28</sup> ضيف، شوقي، الأدب العربي المعاصر في مصر ص 13

قوية، فلجأ إلى استخدام الآليات اللازمة من ترتيب الجيش على غرار أوروبا وتزويدهم بالموانئ الحديثة فأنشأ المدارس الابتدائية والعليا والعسكرية، والمصنعات العسكرية وغير العسكرية. وهو الذي قام بإرسال بعثات الطلبة إلى الدورة الأوروبية- إيطاليا، إنجلترا وفرنسا، فكان حاكما يقظا أدرك أنه يجب عليه تأسيس منظومة تعليمية تكون عمادا لتوفير الكفاءات البشرية. ومن الذين أرسلهم في البعثات إلى الخارج كان الطلاب الأزهريون الذين غرسوا نواة النهضة العلمية، وأسس أيضا المدارس الابتدائية والعليا، لإعداد أجيال متعاقبة من المتعلمين الذين تعتمد عليهم دولته الحديثة. وقام بإنشاء الترسانة البحرية والذي لعب دورا كبيرا في صناعة السفن التجارية. وإليه يرجع الفضل في وضع أساس الصناعة الحديثة.<sup>29</sup>

وهكذا ازداد المصريون انفتاحا على ثقافات متنوعة وأفكار واسعة والذي سوف تلعب دورا شاملا في الأنشطة الفعالة في تنقيف المصريين وتوعيتهم على أفكار الوطنية والقومية والحرية وبداية الصراع الفكري بين الغرب والشرق والإسلام. وفي العهد هذا بذرت نواة كل من التيارات الفكرية الحديثة من الوطنية والقومية والإسلامية والليبرالية والاشتراكية والشيوعية وغيرها. وأيضا قام بالإصلاح في مجالات التجارة والزراعة حيث كان يحتاج إلى دخل كبير يقوم به إلى مطامحه الطاولة 'فنزح ملكية الأراضي من الممالك واستولى على معظم أراضي الوقف التي كانت تحت رعاية العلماء ووضع تحت رقابته وحل محل الملتزمين واتصل رأسا بالفلاحين فتمكن بهذه الطريقة من امتلاك جميع الأراضي المصرية واستغلالها لحساب الدولة ولكنه لم يفكر بإدخال النظام الإشتراكي.<sup>30</sup> أنشأ الإدارة المنظمة وضبط الري وأقام القناطر والسدود على النيل.<sup>31</sup> ووسع نطاق الزراعة فقام بتخصيص نحو ثلاثة آلاف

<sup>29</sup> طاهر، بهاء، أبناء رفاعة، ص 33

<sup>30</sup> صبري، محمد، تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم، ص 42

<sup>31</sup> طاهر، بهاء، أبناء رفاعة، ص 33

فدانا من الأراضي لزراعة التوت، كما قام بغرس الأشجار التي تستخدم في بناء السفن والعمران. في سنة 1821م أتى بصنف جديد من القطن في الزراعة في مصر والذي كان يصلح لصناعة الملابس خلاف الصنف الشائع الذي لم يكن يصلح إلا للتنجيد. لعبت هذه الخطوات في توسيع نطاق تجارة مصر الخارجية فتنشطت حركة التجارة حتى أن بلغت قيمة الواردات حوالي 2679000 جنيه والصادرات إلى 2196000 جنيه.

وولي الحكم بعده عباس الأول سنة 1848م وكان حاكما مستبدا رجعيا عدوا لكل حركة وإصلاح.<sup>32</sup> ولكن ما لبث أن نجت منه مصر وخلفه سعيد باشا سنة 1854م فنشر العدل فيها. كان عصره عصر التقدم والرفي. كان يجب شعب مصر، واعتز بالقومية المصرية وأزال أسباب الشكاوى التي كانت في عصر أبيه وأحدث إصلاحا أبعدها أثرا في حياة العامة وأكثرها تلاؤما مع فكرة التطور.<sup>33</sup> وبدأ المصريون يشعرون بأن لهم حكومة تسهر على مصالحهم.<sup>34</sup> وعنى بجيشه فحافظ على صبغته الوطنية بعد أن كاد يقضي عليه عباس... واهتم بالجيش اهتماما بالغا في توفيرهم أحسن الأحوال مسكنا وطعاما ولباسا. هو أول من قرر ترقية العسكري المصري من تحت السلاح إلى ضابط وبهذه الطريقة ارتقى عرابي والأبناء من جنسه إلى مراتب القيادة في الجيش التي كان يحتلها الأتراك والسراكشة.<sup>35</sup> قام بالإصلاحات في الزراعة والتجارة والملاحة فقضى في سنة 1858م على نظام الملكية القديم ووزع الأراضي على الفلاحين وقد تنازل للأهالي عن الديون والضرائب المتأخرة على الأرض.<sup>36</sup> ولكن آل ذلك مع سلبات حيث كثر تدخل الأجانب في الشؤون المصرية بعد أن تراكمت عليها الديون

<sup>32</sup> صبري، محمد، تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم، ص 78

<sup>33</sup> نفس المصدر، ص 82

<sup>34</sup> نفس المصدر، ص 85

<sup>35</sup> نفس المصدر

<sup>36</sup> نفس المصدر، ص 86



الأجنبية. انزلت الدولة في الأزمة المالية وأفضى فتح قناة السويس في عهده إلى المسابقة بين الدول الإمبرالية حتى سقطت خاصة من سببين هذين تحت استيلاء الإنجليز تلو ثورة عرابي. على أي حال هو كان أول حاكم اعترز بالقومية المصرية ونفخ في المصريين الاعتزاز بالقومية المصرية.<sup>37</sup> وهو أيضا كان من الأوائل الذين شجعوا العروبة ضد الحكم العثماني وادعى أنه يناضل من أجل العرب ضد الأتراك. لم يبرر نضاله على اسم الدين بل على بناء القومية العربية. استقبله المسيحيون السوريون بكل حماسة بما أنه ادعى بحكم يجعل جميع المواطنين السوريين مساويا.<sup>38</sup>

تولى اسماعيل باشا الحكم بعده سنة 1863م وكان يحلم باستقلال مصر من الأستانة. فنجح في عديد من محاولاته حيث حصل سنة 1876م من السلطان عبد العزيز فرمانا منح له لقب خديو مقابل زيادة في الجزية، وجعل الحكم وراثيا لأكبر الأبناء. وفي سنة 1972م فاز بفرمان آخر أتاح له أن يقوم بالاستدانة من الخارج على الاستقلال من أنه لا يحتاج إلى الرجوع إلى الدولة العثمانية. وفي سنة 1973م حصل على فرمان شامل منحه الاستقلال في حكم مصر إلا أنه يحتاج إلى تقديم الجزية، وأنه لا استقلال له في عقد المعاهدات السياسية والتمثيل الدبلوماسي وصناعة المدرعات الحربية.

ولكن عصره كان مزحوما بمشاكل عديدة بعد منح امتياز قناة السويس وازدياد العمران الرفاهية إذ بدأت القوات الأجنبية تتغلغل في البلاد بقوة. وقد أخذت شكلا ماليا كان تدخلا سلميا منظما أدى إلى تدخل سياسي رسمي 1876م وأعقبه تدخل مسلح عام 1882م.<sup>39</sup> كانت أوروبا نفسها تشجع إسماعيل في سياسة الاقتراض...

<sup>37</sup> صبري، محمد، تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم، ص 92

<sup>38</sup> Tibi, Bassam, Arab nationalism A critical enquiry p 72

<sup>39</sup> صبري، محمد، تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم، ص 96

فتكاثرت رؤوس الأموال وقامت المضاربات وتكونت المالية الدولية والبيوتات الكبيرة التي صارت لها الكلمة الأولى في سياسة الحكم... ورجال السياسة كانوا على اتصال برجال المال وكانوا يدفعونهم إلى إرسال أصول الأموال في مصر.. وكانت قناة السويس باعثا على إيقاظ المطامح الاستعمارية نحو مصر... وأخذت إنجلترا وفرنسا تتنافسان في استغلال مصر ووضع اليد عليها.<sup>40</sup> ثم اشترى إنجلترا الأسهم الحكومية في قناة السويس.. كانت هذه الضربة القاضية على الخديوي وأكبر غلطة سياسية ومالية ارتكبها في حياته.<sup>41</sup> ويتلوه تأليف لجنة إنجليزية لدراسة الحالة في مصر وفي هذا العام (1876م) بدأ التدخل الفعلي في مصر. وما أن تنبأ الخديو على ذلك حتى كان الوقت قد انتهى. وتحت الضغط من إنجلترا وفرنسا تم عزله من قبل الآستانة سنة م1879.<sup>42</sup> وكان من الممكن حل المشكلة حلا ماليا عادلا في سنة 1876... ولكن تحويل المسألة المالية إلى مسألة سياسية حال دون انفراج الأزمة في أوانها فصارت القضية مزدوجة: حل الجانب المالي منها بقانون التصفية 1880م والجانب السياسي بالاحتلال 1882م.

" وشكل توفيق بنفسه الوزارة ورأسها وأعاد المراقبة الثنائية التي تعدت الشؤون المالية بل تدخلت سياسيا أيضا فحكمت وزارة توفيق البلاد حكما مستبدا حتى استندت الوزارة إلى رياض باشا الذي كان يعمل على إشارة القنصلين من فرنسا وبريطانيا،<sup>43</sup> ثم بدأ ينكل بالحركة الوطنية بمصادرة الصحف والاعتقال والنفي والتشريد كما ألغى السخرة وألغى دين المقابلة فاتسعت دائرة التذمر والسخط العام . وبتضييق النشاط السلمي للحركة كان

<sup>40</sup> صبري، محمد، تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم، ص 6،7،105

<sup>41</sup> نفس المصدر، ص 105

<sup>42</sup> نفس المصدر، ص 177

<sup>43</sup> نفس المصدر، ص 182

طبيعياً أن يزداد النشاط العسكري ، فجمعت الثورة كافة فئات المجتمع من كبار ملاك و مثقفين وموظفين وضباط  
44 .

فأدت العوامل المشتركة بين صفوف الجيش وعناصر الحركة الوطنية إلى توالي الاجتماعات السرية لاتخاذ الترتيبات اللازمة لمقاومة الخديو ووزيره الأول ومنح الأمة حقوقها ففوضوا أمر رئاستهم لأحمد عرابي فتقدم وزميلاه عبد العال حلمي وعلي فهمي لمقابلة رئيس الوزراء وقدموا إليه عريضة بمطالب الجيش فاعتقلهم الخديو ، غير أن محمد عبيد أطلق سراحهم بالقوة وتوجهوا إلى قصر عابدين لعرض المطالب على الخديو الذي أظهر استجابة حيث عين محمود سامي البارودي ناظراً للحربية غير أن علو صيت عرابي وتدخل الجيش في السياسة أدى إلى عزل البارودي . حينئذ اتصل عرابي بالزعماء المدنيين واتفق معهم على قيام مظاهرة 9 سبتمبر 1881م على أن تكون مظاهرة سلمية فتقدم عرابي على رأس الجيش إلى ساحة عابدين وقدم مطالب الجيش والأمة المتمثلة في إسقاط حكومة رياض وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش ، فكلف الخديو شريف باشا بتشكيل الوزارة وعاد فيها البارودي ناظراً للحربية<sup>45</sup> . وأقيمت الدعوة لمجلس النواب بينما عكف شريف على إعداد لائحة الدستور التي أعدها من قبل في عهد إسماعيل إلا أن هذا الدستور حرم مجلس النواب من حق مناقشة الميزانية أو إقرارها فحدثت أزمة في المجلس بين المعتدلين والمتطرفين فاستغلت إنجلترا الأزمة وأرسلت مع فرنسا المذكرة المشتركة في 6 يناير 1882م لعرض المساعدة العسكرية للخديو وتأمين الحماية له فظهر العسكريون من جديد وتطلع الشعب إلى الجيش مرة أخرى .

44 نفس المصدر، ص 182

45 صبري، محمد، تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم، ص 195-198

وفي 10 يناير 1882م نوقش مشروع الميزانية وطالب النواب بسطات أكبر إعطاء المجلس حق إقرار نصف الميزانية غير أن شريف باشا رفض ذلك فضغط التيار الوطني على الخديو لإسقاط الوزارة فتألفت وزارة سامي البارودي وبها أحمد عرابي وزيراً للحربية<sup>46</sup>، وفي 7 فبراير صدر دستور الثورة الذي قدم مقترحات لتحسين أحوال الزراعة والتعليم وإعداد قانون انتخاب أكثر ديموقراطية وبذلك كسبت الثورة الفلاحين وجموع الجند والشرطة والعمال إلى جانبها، وعمل عرابي على تطهير الجيش من أعداء الثورة فأحال إلى الاستبعاد ثلاثمائة من الأتراك والشراكسة الذين دبروا مؤامرة ضد الحركة التي تم اكتشافها وحكموا على أربعين منهم بالتجريد من الرتب والنفي،<sup>47</sup> غير أن الخديو أعلن أن تلك المؤامرة من تدبير حكومة البارودي فدعى الوزراء مجلس الشورى للاجتماع واتخاذ الإجراءات اللازمة للمحافظة على سلامة البلاد، لكن حقد محمد سلطان رئيس المجلس على عرابي ورفاقه أدى إلى سهولة استمالة الخديوله فحدث انشقاقا في صفوف الحركة الثورية فما كان من إنجلترا وفرنسا أن أرسلت السفن الحربية للضغط على عرابي وإرغامه على ترك البلاد فرفض ثم قدموا المذكرة المشتركة في 20 مايو 1882م يطالبون فيها بإقالة وزارة البارودي وإبعاد عرابي عن مصر فرفضها البارودي وقدم استقالته.<sup>48</sup>

فما هي إلا أيام وحدثت مذبحة الإسكندرية التي قتل فيها عدد كبير من الأجانب والمصريين، فتقدم الأسطول الإنجليزي لضرب الإسكندرية وبالفعل أحرق المدينة ونزلت القوات الإنجليزية لاحتلالها فانسحب الجيش المصري إلى كفر الدوار. وفي تلك الأثناء قرر الخديو الانضمام للإنجليز فاتهم عرابي بالخيانة وأنه سبب كل ما يحدث غير

<sup>46</sup> نفس المصدر، ص 206

<sup>47</sup> صبري، محمد، تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم، ص 211

<sup>48</sup> نفس المصدر، ص 212

أن عرابي رد عليه بمنشور وزع في أقاليم البلاد تضمن انضمام الخديو للإنجليز وطلبه للمتطوعين في الأقاليم وبالفعل وقف الشعب خلف عرابي في معركة مصيرية لم تكن متكافئة .

وأمام الضغط الإنجليزي أصدر السلطان العثماني منشورا بإعلان عصيان عرابي<sup>49</sup> ليظهر بمظهر الخائن للدولة العلية الأمر الذي أثر فيه كثيرا وأدى إلى ابتعاد ضعاف الإيمان عنه.<sup>50</sup>

فاتجه إلى الجبهة الشرقية لتأمينها وتحصينها إلا أن خيانة ديليسبس الذي وعده بعدم السماح للإنجليز بالمرور عبر قناة السويس وهوما لم يحدث ، بالإضافة إلى استمالة بدو الصحراء إلى جانب الخديو.<sup>51</sup>

وفي 13 سبتمبر 1882 وقعت معركة التل الكبير الفاصلة الغير متكافئة هي الأخرى وبعد مقاومة عنيفة من قادة الجيش استسلم عرابي وهزمت الثورة ودخل الجيش البريطاني القاهرة.<sup>52</sup>

وأثناء ذلك تم ارسال اللورد دوفرين إلى بريطانيا، وكان عليه التحقيق حول كيفية الحكم على القطعة المحتلة الجديدة، وكان ذلك من خلال الشعار " الإنقاذ والانسحاب " ويعني ذلك أن بريطانيا لا تريد باحتلال مصر بل بالحضور المؤقت لتسوية الأمور في مصر. أتى بوثيقة تكلم فيها عن البرلمان الممثل وعن تسوية الديون التي تدين بها مصر<sup>53</sup>، وأراد بها هدفين: الأول إطمئنان القوى الأخرى الخارجية أن بريطانيا لا تريد احتلال مصر بحيث تثير المشاكل للقوى الأخرى في حرية استخدام قناة السويس، وأن الاحتلال المؤقت لا تهدف إلا إلى أداء

<sup>49</sup> طاهر، بهاء، أبناء رفاعة، ص 46

<sup>50</sup> صبري، محمد، تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم، ص 215

<sup>51</sup> صبري، محمد، تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم، ص 215

<sup>52</sup> نفس المصدر ص 214

<sup>53</sup> Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 89

المقرضين رؤوس أموالهم والمضاربات. من خلال ذلك نجحت بريطانيا في وقوف صراع جديد في محتل جديد ولكن فرنسا قد أدركت أنها فشلت في الدبلوماسية ما أدتها إلى اختراع المشاكل لبريطانيا في مصر في الأيام القادمة<sup>54</sup>.

الثاني أن الشعب المصري أخذ الكلمة على وجهها من أن حضورهم مؤقت وسوف تنسحب بريطانيا بعد قليل، والتفوه بالبرلمان كان شئى أضاف إلى واقعية ماأعلنته بريطانيا، ولعله من أجل ذلك لم تبرز أي حركة شعبية مصرية خلال العقد الأول من الاحتلال.<sup>55</sup>

ولكن الخطوات التي اتخذتها بريطانيا من بعد جعل الشعب يستيقن أن النية لا تطابق الإعلان، أنها سوف تستقر لمدة مديدة. فلما جاء بارينج كالقنصل العام في مصر أقام الحكم الثنائي حيث أن الوزير المصري كانت له مسؤوليات ولم يكن له الخيار كفاءاً. كانت السلطة الحقيقية في أيدي القنصل ورجاله، وأن الوزراء الذين يخالفون القنصل أحكامه لا سبيل لهم إلا الاستقالة. ثم أن الخديو كان تحت قوة القنصل، والجيش المصري تم تحليله وقد أخذ الجيش البريطاني مقامه، وتجمع المترفون من ملاك الأراضي والإقطاعيين والرؤوساء حول القنصل كي يحتفظوا على مآربهم. لكن الشعب المصري كان أكثر من عنى بالتغيرات حيث سقط عليه عبأ الضريبة الضخمة، وعلى ذلك أرغموا على انتاج القطن على أراضيهم حتى تصبح مصر أرضاً للقطن الخام.

الصناعة المصرية لم تكن لتزدهر من أجل السياسات الاحتلالية بحيث لم تقدر أن تنافس مصنوعات مع المصنوعات المستوردة. فجميع الطبقات من الشعب المصري من الفلاح والعمال إلى الخديو عانت من الإطار المخرج الشامل

---

ibid, p 90<sup>54</sup>

ibid, p 90<sup>55</sup>

من الفقر والبطالة والمعانات من أصناف عديدة.<sup>56</sup> بدأ الغضب يتفاقم بين الشعب وبرز ذلك من خلال مصطفى كامل الذي كان خطيبا بارعا والذي دعمه الخديو لما ضاق عليه الأمر من أجل كرومر الباطش، بدأ الناس يحتشدون حوله، والذي استدل بعدم شرعية الإنجليز للبقاء على البقعة المصرية بعد موت الخديو توفيق الذي جاءت بريطانيا على دعوته إلى مصر<sup>57</sup>.

لم يفز مصطفى على حشد التأييد من القوات الخارجية فبدأ المحاولات في الداخل. واحتلت المباحثات حول القومية المصرية منعطفًا أساسيا في التحركات القادمة، فقد أنكر كرومر وجود أي شعب مصري أوقومية مصرية والذي رد عليه المصريون وخاصة مصطفى كامل بدلائل تاريخية على وجود القومية المصرية.<sup>58</sup> والمهم هنا أن هذا البحث عن وجود القومية المصرية أخذت طرقا عديدة من القومية المصرية الفرعونية<sup>59</sup> والمصرية العربية إلى المصرية الاسلامية. لكن القومية التي لم يكن يختلف فيها كل واحد منها هي القومية ازاء الإنجليز في مصر. وهذه القومية ازدادت تبلورا حتى نصل إلى 1906 حينما وقعت حادثة دنشواي والتي هزت وجدان الشعب المصري عامة ودخل الأدباء من الشعراء والكتاب في خضم معركة القومية وأخذوا بالحادثة إلى كل أركان البلاد شعرا ونثرا والذي جعل الشعب المصري يهتم بوجوده إزاء الوجود البريطاني.

ثم دخل العالم في الحرب العالمية الأولى والتي بدأت تزداد حمة. لما شاهد الإنجليز استمالة الخديو أكثر إلى العثمانية التركية عزلوه وهو على زيارة الأستانة وجعلوا عمه مقامه خديو لما دخلت تركيا العثمانية من قبل ألمانيا في الحرب

<sup>56</sup> Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, P90

<sup>57</sup> ibid, p 92

<sup>58</sup> ibid, p 92

<sup>59</sup> Said Aly, Abdel Monem, and Feldman, Shai, and Shikaki, Khalil, Arabs Israel- Conflict and Peacemaking in the Middle East, p 32, Palgrave Macmillan, UK, 2013

وأعلن الإنجليز كون مصر حماية للبريطانيا.<sup>60</sup> لكن الأعوام الحربية حلت بمصر كوارث عديدة من البطالة وارتفاع الأسعار وكثرة عدد الجيش البريطاني والسخرة وإحالة بجممة الأحمال إلى الساحة الحربية، فتركب منها إطار خانق على الشعب المصري ما أدت إلى المضاربات والمظاهرات. وردت عليهم الشرطة الأجنبية قسوة وعاملتهم خناقاً. خلال الحرب رأى المصريون في إعلان الرئيس الأمريكي ويلسن أملاً في الاستقلال من النفوذ البريطاني. أصبح الكلام "حرية حق المصير" من الشائعات في تلك الأيام وعلق الشعب آمالاً بعد نهاية الحرب.<sup>61</sup> تجمع عدد من الساسة المصريين وسموا أنفسهم الوفد لتمثيل الشعب المصري في المؤتمر الأممي في باريس. طالبوا هناك الاستقلال المطلق لمصر، ولكن بريطانيا رفضت المطالبة قاطعة. هذا أدى إلى اندلاع المظاهرات العنيفة الشاملة وكانت مدعومة بالوفد والملك والقوميين<sup>62</sup> وأثناء ذلك تم اختيار سعد زغلول رئيس اللجنة القومية ولكن التظاهرات خلال 1919م لم تكن لتهدأ فلجأت بريطانيا إلى اعتقال سعد زغلول وكثرة غيره ثم إجلاءه إلى شيشيل والذي أدى إلى تشديد العنف أكثر فأكثر والتي أرغمت بريطانيا إلى إطلاق سراحهم وحق تمثيلهم في المؤتمر. ولكن مرة أخرى لم تكن بريطانيا لتسلم مطالبات الوفد والذي أدى إلى غليان التظاهرات والعنف الشامل حتى اتفقت بريطانيا إلى منح الاستقلال لمصر وأعلنوا بإبطال الحماية البريطانية على مصر مع الاحتفاظ على أمور أربعة. لكن الاحتفاظات جعلت الاستقلال زائفة المصير رديئة التعميل كما يبدو من التوجهات القادمة للتجربة الليبرالية فيما بعد.

---

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, P 95 <sup>60</sup>

ibid, p 96 <sup>61</sup>

ibid <sup>62</sup>



## أولاً: التجربة الليبرالية : عهد الصراع وفشل التجربة الليبرالية

بدا من إعلان الاستقلال سنة 1922م أن مصر قد أحرزت على استقلالها<sup>63</sup> واعتبره الشعب نجاحا سياسيا لمكافحةهم وأملوا بتحسين الأحوال في الدولة والحكم. لكن الاستقلال تحقق على مصر لا في سلطة مصرية واحدة بل منقسمة على سلطات ثلاث على الأقل. لم يكن الأمر أن السلطة تدور بين الشعب والحكم الممثل لهم بل أن تدور بين هذه الثلاث، كل منها تنافس في استغلال النفوذ وإحراز أكثر القوة في أيديها. لم تبق للشعب إلا أن تصبح كالناظرة السينمائية للحوادث المتصارعة ويبقى مستغلا ومنهكا كما كان. كان للملك أن يبق مع سلطة، وبريطانيا مع سلطة أكثر وأن يكون البرلمان لعبة بين أيديهما يتلقفه واحد مرة والآخر مرة أخرى. كانت بريطانيا قد احتفظت على أمور أربعة. أولها حق الدفاع عن مصر ضد القوات الخارجية، وهذا كان دليلا واضحا أن تكون لها اليد العليا في النهاية. ثانيها صيانة وسائل المواصلات، والهدف كان السلطان المطلق لها على قناة السويس فكان ذلك ضمانا على صيانة المصالح البريطانية إزاء المصالح المصرية. وثالثها صيانة المصالح الخارجية المصرية ومصالح الأقليات في مصر، وكان ذلك هادفا إلى خلق الفجوة فيما بين الشعب المصري كما كانوا جربوه في الهند. ورابعها كانت قضية السودان،<sup>64</sup> والسودان جعلها محمد علي تحتها منذ قرن من قبل واستهوت القومية المصرية أن لا تنسحب من هذه البقعة الكبيرة. لكن بريطانيا استغلت القضية لتمديد قبضتها على البقعتين كليهما بأن جعلت وضع السودان أولا أمر الاتفاقية بين مصر والسودان، وثانيا بين السودان وبريطانيا. حقا دارت الشعب المصري في هذه الرحى دوارا مضنيا وأخيرا لم يبق لديهم الخيار إلا الانسحاب فيما بعد. كانت القضية شائكة من جهة الفكرة القومية، القومية التي لا تقدر على نفسها بل تقدر على الحكم على

<sup>63</sup> Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, P 98

<sup>64</sup> Ibid

البقاع الأخرى. نرى هناك فكرة القومية مشبوبة من الفكرة الإمبرالية، والتاريخ الأوربي لا تفقر الأمثال عما تحتاج القومية الوطنية إلى الإمبرالية للاعتزاز فإن الاعتزاز لا تكتمل إلا بإهانة آخرها.

والأمر الشائك الآخر كان تحديد العلاقة بين الملك والبرلمان وكان على الحكم المصري إعداد الدستور وانتخاب البرلمان. وأخيراً، بعد محاولات منهكة تمت الاتفاق على أن للملك تكون السلطة التشريعية، وسلطة تعيين رئيس البرلمان واللجنة التنفيذية وعزلعهما، وسلطة عزل البرلمان وإنهاء جلساتها أو توجيلها، ولم تكن الدستور لتنفيذ بشرعية بدون توقيع الملك. كان الملك مدعوماً ببريطانيا أن لا يقوم بالتوقيع بدون هذه السلطات.<sup>65</sup> وحقق الأمران هذان أن البرلمان لا يكون إلا لعبة في أيديهما. يصير البرلمان إلى مكان تتصارع فيه القوى الشعبية إحدى مع الأخرى، وحقاً هكذا برزت الأحداث فيما بعد.

تم إعلان الانتخابات سنة 1924م. كما كان المرجو، فاز حزب الوفد بأغلبية ساحقة وتم تعيين سعد زغلول رئيساً للوزراء. أحرز الأحرار الدستوريون على سبعة مقاعد.<sup>66</sup> كل واحد من الحزبين كان مليئاً من أصحاب المال والمترفين إلا أن زغلول كان له خلفية الفلاح والذي جعله منجذباً في أعين الناس. كان الناس مستعدون للتظاهر والاهتياج كلما تفوه به سعد. وحزب الأحرار الدستوريين كان لا يمثل إلا الأثرياء وملاك الأراضي، فما اعتبروا توجيه المحاولات التحسينية إلى العامة أمراً مهماً.<sup>67</sup> فبعد أن تم عقد البرلمان كان الممثلون يتخاصمون فيما بينهم للمصالح الشخصية أو لمصالح أصحاب النفوذ<sup>68</sup> حيث أن البرلمان كان مهيمناً بالطبقة الإقطاعية التي كانت

---

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, P 98 <sup>65</sup>

Ibid,p 99 <sup>66</sup>

Ibid <sup>67</sup>

Ibid, p 102-103 <sup>68</sup>

مصالحها أكثر تعلقا بمصالح بريطانيا. كان انتاج القطن تضاعف أضعافا بين 1923م و1926م وأيضا تضاعف إيرادها إلى بريطانيا، ولكن لهذا التضاعف في الانتاج صارت مساليل عديدة وخاصة من حيث أن مصر أصبحت أرضا منتجة للقطن محضا. لم يشجع الإقطاعيون على انتاج المأكولات الأخرى والذي جعل مصر منحصرا على المستوردات في الحبوب الذي سوف يؤدي إلى الكساد الاقتصادي بين 1929م و1933م.<sup>69</sup>

لم يحاول البرلمان أي محاولات إصلاحية تجاه الملكية الأرضية على الرغم من أن نصف الأراضي كان يملكها إثنان في المائة فحسب.<sup>70</sup> لم تتأتى أي محاولات تجاه تحسين أحوال العمال والذي سوف تؤدي إلى تنشئة الأحزاب اليسارية من الشيوعية والاشتراكية فيما بعد. على يد أخرى، كان الملك فؤاد ينظر إلى المندوبين في البرلمان نظرة دنيئة ويعبرهم بجماعة الكبش التي لا ترحل إلا بقيادة الآخرين وكان الصراع بينهما على الدوام.

حاول الوفد أن يفعل شيئا يغني بأذان الشعب. اعتبر الاتفاقية المصرية مع الإنجليز أكبر عائقا في تقدم مصر وتطورها وجعل حلها وتبديلها باتفاقية أخرى من أهم أهدافها. لكن سعد يتوفى سنة 1927 بدون تحديد الاتفاقية ويحتل مصطفى النحاس محله.<sup>71</sup>

لم تكن شخصيته نفاذة، وكان قصير الكفاءة على خلاف سعد زغلول. في 1929م نجح الملك في عزله من منصب رئيس الوزراء، وعين من أعضاء الأحرار الدستوريين لجنة تنفيذية، والتي أشارت على الملك بتحليل البرلمان لثلاثة أعوام.

<sup>69</sup> Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 103

<sup>70</sup> Ibid

<sup>71</sup> Ibid, p 102-103

صادفت هذه الأعوام بأعوام الكارثة الاقتصادية. حكم الحزب بأيد باطشة ولم يتوجه حتى إلى حل المشاكل المضافة التي حلت من أجل الركود الاقتصادي الذي أدى إلى تضاعف الآلام على الفلاح الذي تركب منه إثنين وثمانين في المائة من السكان.<sup>72</sup> كانت الطبقة كلها قد يئست من الحكم الجديد<sup>73</sup>: كانت الطبقة العليا تستغل الأوضاع الجديدة لصالحها المالية. تعاني طبقة الموظفين الحكومية من الأسعار المرتفعة، وطبقة العمال من سقوط الأجور إلى أقل من النصف. الفلاح لم يجد ما يشتري به الحبوب ومن يبيعه قطنه. فشل النظام إلى تقديم أي حل لتقليص المعاناة فاندلعت التظاهرات. رد عليها النظام بالقوة القاسية حتى بدأ الاصطخاب يعلوضد الأحرار الدستوريين. تفرس الملك الفرصة واغتتم بها فحل اللجنة التنفيذية.

وتقهقر الأوضاع إلى الأسوأ أدى إلى بروز القوات الجديدة على الساحة السياسية والاجتماعية من الحركة الدينية تحت لواء الإخوان المسلمين، والحركة اليمينية التي تجسدت في مصر الفتاة، والحركات اليسارية في عديد من الاتحادات العمالية.

كانت حركة الإخوان أكثر القوى قبولاً ونشراً والتي دعت إلى البحث عن حل المشاكل في الأصول الدينية. كان لقبول هذه الدعوة بين الطبقة المتخلفة المتوسطة أسباباً: منها أن الشعب لم يكن ليرى إلى كون الإطار الاقتصادي العالمي قيد الكساد واعتبروا النظام الجديد مسؤولاً لإساءة لأوضاع، وبالنتيجة إلى أن النظام الليبرالي ليست بناجح وأن الرجوع إلى الاسلام من جديد هو سوف يأتي بالحل.<sup>74</sup>

---

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p104 <sup>72</sup>

Ibid, p 107 <sup>73</sup>

Ibid, p 106 <sup>74</sup>

ومنها أن الصناعية الحديثة فككت الأسر، وقلبت العلاقات الاجتماعية. في أوقات المعاناة الشديدة لم يجدوا ملاذاً للسلوى مثلاً. فقد كانت المراكز الصوفية قد اندثرت، وعقلية الشعب المتوسط تغيرت، والمنظمات القديمة الرائجة من أمثال التجمعات المهنية قد انحلت بدون أن تبرز منظمات تملأ الفسحة.<sup>75</sup> فخرجت الطبقة المتوسطة إلى البحث في شئ ينخرطهم في العلاقات الاجتماعية ويهيئ لهم الطمانينة النفسية. في هذه الأحوال هيئت الحركة الإخوانية بديلاً وجدوا فيها السلوى النفسية من خلال الرجوع إلى الدين والرجاء من الله، ووجدوا فيهم ضالة السلوى الاجتماعية من خلال تنظيم الناس في الفئات المتعاونة وهذا أيضاً قدم المعاونة إلى المهاجرين الجدد في الأمصار.<sup>76</sup>

وعلى الساحة الفكرية جعلت الحركة الإخوانية الأفكار الأوروبية الدخيلة مسؤولاً أساسياً للمضنيات المحيطة بهم من أنها بعدت الشعب المصري من الحياة الدينية الرائجة وأن الحضور البريطاني علامة دخيلة ووسيلة مستغلة. فعلى جانب حاولت الحركة إلى تهدئة النفسية الداخلية من خلال الرجوع إلى الدين وعلى يد أخرى، إلى توجيه الطاقة النفسية إلى الخارج تجاه الحضور البريطاني. أصبح تحرر الشعب من البرائن المستغلة هدفاً نبيلاً، وهنا بدأت تتشكل كقوة سياسية معني بها على الساحة المصرية. فشلت الحركة لا فقط بين الطبقة الفقيرة بل بين الطبقة المتوسطة أيضاً.<sup>77</sup> لعبت من بعد أدواراً مهمة خلال الهياجات والتظاهرات في أيام الحرب العالمية الثانية وخلال الحرب ضد إسرائيل.<sup>78</sup>

---

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p106<sup>75</sup>

Ibid106<sup>76</sup>

Ibid, p 107<sup>77</sup>

Ibid, p 122<sup>78</sup>

وفي هذا العقد تشكلت قوة أخرى متطرفة وهي مصر الفتاة على نحو الفاشية الإيطالية تحت مسوليني<sup>79</sup> والتي استهدفت إلى تحرير البلاد من خلال العنف ضد القوى السياسية. في هذه الأيام كانت القومية المتطرفة على الغلو في أوروبا عامة وفي ألمانيا وإيطاليا خاصة. اعتقدت الفاشية في أنه يمكن بناء الوطن القوي عن طريق القوة والعنف وتوحيد الأيدولوجية ونفاء الأعداء. وانجذبت الحركة الشبان إليها عامة والطلاب خاصة من أن الطبقة هذه كانت أكثر معاناة ومخاطرة من تدهور الأوضاع. لم يكن من فطرة الشبان أن يولوا أذبارهم بدون أن يلقوا أياديهم تجاه حلول المشاكل والأمور التي تحولهم. وما زالت الحركة هذه تتصعد حتى الحرب العالمية الثانية التي شهدوا فيها مساليب التطرف خلالها في أقبح أوجهه. لم توازي حركة مصر الفتاة المكانة التي أحرزتها حركة الإخوان. وامتازت مصر الفتاة بالقميص الأخضر وفي مقابلتها تم إنشاء حركة القمصان الزرقاء من قبل الوفد.<sup>80</sup>

وأثناء هذا العقد كانت هناك محاولات لإنشاء التحركات الشيوعية بين العمال والتحركات الاشتراكية بين الفلاحين، وكانت هناك أيضا محاولات لتأسيس اتحاد العمال<sup>81</sup> ولم تأت المحاولة هذه من قبل العمال بل من قبل عباس حلمي أحد أعيان الملوكية واستهدف بها إلى تشديد المشاكل وتوجيهها إلى أخيه الملك. والوفد أيضا أقامت اتحادا للعمال إلا أن الغرض منه كان الاحتفاظ على مصالح الطبقة المتوسطة فحسب.

والحركات الشيوعية والاشتراكية بدأت أولا بين الأجانب، فإن العمال كثرتهم كانوا من الأجانب وخاصة في الأسكندرية، ولكن المحاولات اليسارية وجدت صدى بين المهمشين المتخلفين أيضا. لم تظفر هذه الحركات كالقوى السياسية حيث لم يكن لدى المهمشين الفقراء وسائل إظهار غضبتهم إلا التظاهرات والهيجان العنيف

---

Ibid, p 107<sup>79</sup>

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 107<sup>80</sup>

Ibid, p 110<sup>81</sup>

والذي رد عليها النظام بالقوة العنيفة وإعلان بعض الإصلاحات القانونية التي قلما حاول النظام تنفيذها.<sup>82</sup> كان البرلمان محتشد بملاك الأراضي والإقطاعيين والأعيان وكانت الشركات أيضا في أيديهم وأيدي الأجانب. كل واحد منهم استغل العمال وقلما حاول البرلمان لتشريع القوانين لإصلاح أوضاع العمال،<sup>83</sup> وأوضاع الفلاح المصري في البادية والقرية كانت أسوأ وكان يجي على منة الإقطاعي وملاك الأراضي ولم يكن هناك من يرتفع الأصوات عنهم أو يتوجه إلى أحوالهم<sup>84</sup> ولو كانت توجد بعض المحاولات من قبل المثقفين الذين قلما أصغى إليهم سياسة عهدهم.

كل هذه الأوضاع جعلت الإطار قنوطيا مستضافة عليها التصارع الداخلي فيما بين الطبقة السياسية علاوة على إساءة الحكم خلال عهد إسماعيل باشا.<sup>85</sup>

مرة أخرى كانت الغلغلة ترتفع عن الاتفاقية المصرية مع الإنجليز، واللاغطين اعتبروا الاتفاقية شوكا لابد طرحها طرفا لوينبغي للوطن أن يتقدم رقيا، وركب السياسة القضية لإظهار أن قضايا الإصلاح للعمال والفلاح قضية ثانوية والاتفاقية قضية أكثر أهمية. مادامت هذه كقضية دارت السياسة حولها حتى 1951م حينما ألغاهما النحاس منفردا.<sup>86</sup>

---

Ibid, p 111 <sup>82</sup>

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p110 <sup>83</sup>

Ibid, p 109 <sup>84</sup>

Ibid, p 109 <sup>85</sup>

Ibid, p 123 <sup>86</sup>

وأثناء ذلك نجح الوفد مرة أخرى في الانتخابات وكانت هي القوة الوحيدة التي تجتد الاتفاقية معها قبولاً واسعاً في الشعب المصري فجعل النحاس الرئيس لجبهة متحدة ندوباً عن مصر لتفاوض الاتفاقية في بريطانيا. خرجت منه اتفاقية 1936 بين مصر والإنجليز ولم تكن فيها تغييرات إلا يسيرة بالمقارنة مع الاتفاقية التي كانت تتفق لها قبل عقد إلا أن الإطار الحربي قبل الحرب العالمية الثانية والمخاطر المخافة أرغمت المندوب المصري إلى قبول هذه الاتفاقية.<sup>87</sup> ومن أهم النقاط كان الاستقلال التام من الجيش البريطاني بأن اتفقت بريطانيا على انسحاب جيشها من الأمصار إلى حدود قناة السويس والذي كان في بادئ الأمر نجاحاً للمصريين إلا أن الأحداث في سنة 1942م و1951م تدل على أن الانسحاب لم يكن إلا لفظياً. والمندوب المصري اتفق عليها من أجل أن الجيش المصري يقصر الكفاءة في دفاع الحدود المصرية لواندلعت الحرب وكان هذا مشهوداً عليه دليلاً من قبل كل من الوفد والأحرار الدستوريين والسعديين.<sup>88</sup> واتفقوا أيضاً أن الحكومة المصرية سوف تقوم بمساعدة بريطانيا لو اندلعت الحرب أو حلت حالة الطوارئ العالمية<sup>89</sup> وهذا البند أصبح أكثر ما استغته بريطانيا ضد المصريين عامة خلال الحرب، حيث أن القوات البريطانية تضاعفت على الشوارع العامة المصرية. بحسب الاتفاقية كانت مصر مسؤولة عن توفيرهم اللوازم والتسهيلات والذي أضحى الإنفاق على الحكم المصري<sup>90</sup> وعان الشعب المصري من ارتفاع الأسعار وقلة الأغذية من أجل الادخار. وعلاوة على ذلك لم يحتل الشعب المصري ما شاهدوا من تكاثر أماكن التفريح والتنزه التي ما بات يتوارد عليها القوات الإنجليزية في البحث عن

---

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 115 <sup>87</sup>

Ibid <sup>88</sup>

Ibid, p 115 <sup>89</sup>

Ibid, p 118 <sup>90</sup>



اللذة الجنسية وما اغتنمتها الطبقة العليا كفرصة لكسب المال<sup>91</sup> وتيقن الشعب المصري أن المسؤول لكل هذه المساوي والبذيات والمعاناة هي الاتفاقية الزائفة. تحطمت ثقتهم في الأحزاب السياسية الليبرالية، وكان الشعب المصري مستعد لأي بديل يأتي من حيث آت، حتى أن الشعب كان مستعدا لاحتل مصر القوات الألمانية والإيطالية. وكانت هناك شائعات خلال الحرب أن الملك المصري كان على مواصلة سرية مع روميل بينما الكرملين عزيز المصري قد أعلن بتأييد قوات دول المحور،<sup>92</sup> ولما حدث ما حدث في يوليو 1952م اتخذ الشعب تبشيرا ولا تنديرا. قد وفرت بعض النقاط في الاتفاقية (1936) إلى تعزيز هذه الإمكانية بأن الأكاديميات الجيشية فتحت أبوابها للطبقات المتوسطة والمتخلفة وعشرة منهم في المائة كان إدخالهم مجانا وكان جمال عبدالناصر أحد المنتفعين بهذه الخطوة.<sup>93</sup>

وخلال الحرب العالمية الثانية ثبت ظن بريطانيا أن الملك على اتصال مع قوات المحور فاتخذت خطوة مزعجة ضد الملك وأرغمت الملك فاروق إما أن يعين النحاس رئيسا أو يواجه خطر العزل وقد كانت القوات البريطانية أحاطت بالقصر مع الجيوش والمديبات ولم يكن لدى الملك إلا أن يفعل ما يشاء الإنجليز.<sup>94</sup> جعلت الحادثة هذه الشعب المصري على جانب أن الإتفاقية حقا كانت زائفة ولم تكن تخطى خطوة ما في سبيل الاستقلال وتيقنوا أن الإتفاقية بأجمعها ليست إلا خدعة ولا يمكن الحل بهذه الطريقة التي تطرقتها السياسة القومية، وعلى جانب آخر زعزعت ثقة الشعب المصري في الحزب الوحيد الذي كان نصباً للأمل من أن الوفد أحرزت القوة

---

Ibid, 119<sup>91</sup>

Ibid<sup>92</sup>

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 117<sup>93</sup>

Ibid, p 119<sup>94</sup>

بتأييد الجيش الإنجليزي . كان أكثر شئى نفورا لدى الشعب المصري أن يحاذي الحزب القومي حذو القوة الاحتلالية،<sup>95</sup> ومنذ ذلك الحين كانت القنوطية تغشى الإطار فتتضاعف، لا يدري الشعب في أي اتجاه يبذل قوته ويحذو بأي قوة، فكان العقد مليئا بالتظاهرات والهياج والمعاناة الشديدة طباقا.<sup>96</sup>

وبعد أن تبردت نيران الحرب بدأت تتشكل أوضاع جديدة على الساحة العربية. فعلى يد حاولت مصر تفاوض الاتفاقية من جديد هادفة إلى الاستقلال التام وأن يجعل مصير السودان اتحادا مصرية سودانيا. لم تكن المفاوضات لتتخذ نتيجة حاسمة إلا أنها أصبحت وسيلة استغلالية لإيقاف النظام المصري من التورط في الأوضاع المتغيرة على أرض فلسطين مع تكثير عدد سكان الصهاينة هناك.<sup>97</sup> كان الشعب العربي وخاصة الشعب المصري مهتما بالتوجهات المتغيرة في أرض القدس إلا أن النظام المصري لم يقدر على أن يفعل شيئا حتى فازت الأمم المتحدة في إنجاز قرار يعلن بإقامة دولة إسرائيلية على أرض فلسطين وبنهاية الحماية البريطانية على أرض إسرائيل في مايو 1948م. أعلنت الدول العربية كلها والدولة المصرية أيضا بالحرب ضد الاحتلال الإسرائيلي وتغيرت الأوضاع بسرعة وتورطت الجيش المصري في الحرب بدون الاستعداد حيث أن الملك المصري أعلن بذلك وكان يعلم أن الجيش المصري لا يستعد لها حينذا. والنتيجة كانت الدمار والهزيمة وإتلاف المال والنفوس، وزعزع الكيان العربي بالذلة التي اسودت بها جباههم أمام القوة الإسرائيلية.<sup>98</sup> ولاذت الدول العربية إحدى بعد الأخرى إلى توقيع الاتفاقية لإيقاف الصراع.<sup>99</sup> تبينت لديهم أن القوة الإسرائيلية ليست قوة يمكن تطميسها بسهولة. وازدادت

---

Ibid, p 120 <sup>95</sup>

Ibid, p 108 <sup>96</sup>

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 121 <sup>97</sup>

Ibid <sup>98</sup>

Ibid, p 122 <sup>99</sup>

به آلام الشعب المصري من أنهم فشلوا في إعانة إخوانهم الفلسطينيين ورأوا إلى النظام بكل وقاحة. قد أصبح الملك مستنكراً أشد النكران في أعين الناس لهذا السبب. السبب الآخر كان طلاقه لزوجته فريدة من بين الشائعات المدوية عن صحوبه مع الفتيات في الملاهي الليلية علاوة على شائعات الفساد المالي في البيوع السلاحية، وكذلك ساء ظن الناس عن القيادة السياسية وفقدوا الأمل فخرجوا على الشوارع متظاهرين ومتضاربين.<sup>100</sup>

مرة أخرى في سنة 1950م أتت الانتخابات بالوفد على الحكم وحاول النحاس الرئيس إلى تحويل الالتفات من القضايا الداخلية إلى الخارجية وحاول أن يصل إلى حل بالمفاوضات مع الإنجليز بشأن الإخلاء التام من قناة السويس<sup>101</sup> وبشأن توحيد السودان في مصر أثناء محاولات الشعب السوداني إلى الاستقلال كلا من إلا إنجليز ومصر. لما لم يظفر بمراميه قام بفسخ الاتفاقية أي الاتفاقية الإنجليزية العربية 1936، واتفاقية السودان 1899، وبدأ الفتيان المصريون يهجمون هجمة مدغرة ضد الإنجليز في منطقة قناة السويس، فرد الإنجليز بإقامة الحيطرة حول محطة شرطية في الإسماعيلية مطالبين باستسلامهم، ولكن الشرطة رفضت بذلك طبقاً للأوامر من الوزارة وتلفت نفوسهم وكانوا حوالي أربعين نسمة. والنتيجة كانت ضخمة مرعبة. خرج الشعب على الشوارع وبدأوا يحرقون ممتلكات الأجانب في القاهرة التي بدأت ملفوفة في الدخان مكحولة بالرماد ومضروبة بالدمار. جاءت القوات الأمنية متأخرة وباءت الأوضاع إلى الأمن.<sup>102</sup> شاعت شائعات عن أسباب الاندلاع العنيف واختلفت الآراء في أنه كان طواعياً أو منظمًا أو مقاداً، إلا أن النظام كان قد فشل أن يقدم إجابة مقنعة عما كان يحدث منذ الحرب العالمية الثانية ثم خلال الحرب ضد إسرائيل وعما تبرزت من حوادث مستنكرة من البلاط الملكي.

---

Ibid, p 123 <sup>100</sup>

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 123 <sup>101</sup>

Ibid, 125 <sup>102</sup>

لم تكن التبرم مقصورة في الشعب فحسب بل كان قد تسلل في العسكر الوطني أيضا. رأوا أن السياسة الثلاثية هي المسؤول الأصلي لتشوه الأوضاع الوطنية وتدهورها بأن باتت الدولة لعبة بين أيدي هذه القوى الثلاث- القوى التي ربما ردت الأنظار بعيدا عن أوضاع الشعب المصري العام. إلى هذه الطبقة من الشعب المصري كان عدد ضخم من الضباط ينتمون، والتي كانت أكثر معاناة كلما ساءت الأوضاع، والذين لم تهتم بهم هذه القوى الثلاث قط. تعهد هؤلاء الضباط فيما بينهم لتحرير الوطن من هذا المأزق المتدور المستديم. استيقظ الشعب صباح 23 يوليو من 1952م على إعلان أن العسكر قد أخذ الحكم في أيديه، وبعد يومين أن الملك قد عزل وطفله الصغير جعل مكانه، وبعد عام أن الملكية ألغيت تماما.<sup>103</sup>

## ثانيا: أيام العز والمحن، أيام جمال عبد الناصر

كان بداية لعهد جديد، تم القضاء على الملكية قضاء باتراء، الملكية التي امتدت وراء إلى ماض بعيد، الملكية التي كانت شعارا للظلم والجور، مسؤولا عن تخلف الوطن المصري وأمارة البؤس والشقاء لشعبها. جديدا في تاريخ مصر قام واحد من أبناء مصر، من أبناء الطبقة المتوسطة على رأس الملك المتحجر وأبرد عزه في أنفه. قد عز اليوم رجل مصري على ملك شركسي، ومتواضع على متجاسر، من يتكلم لغة العرب ولهجة الشعب، رجل عريق الأصل في القومية المصرية، مائل فيه جموع المتهمشين في التاريخ. فخرج الناس له ولها، وتفاحروا له اعتزازا، تفتحوا له فرحا هللا بشرا، عشقوه قلبا، واستبشروا له دمعا، فأيدوه صمما، فقاموا له ضمما، فتظاهروا له جما، فتفشوا له طرقا، فدووا له صوتا، هتفوا له شعارا، وسموا له إسما، ورأوا منه حلما، وأمدوا منه أملا، واستعظموا منه غدا. أملا أن التاريخ سوف يتغير، والأوضاع سوف تيسر، والظلام سوف يفتت، والاعتزاز سوف يرتج، والحرية سوف تنشر، وحكم الشعب سوف يتحقق ويحتكم، كانت هذه آمالا طائلة ورب أحلام تفوز بالانتماء.

كان الملك قد غادر وانتهى معه سبيل، قد أصبحت مصر تحت المصريين بالإطلاق وبدون منازع، وسوف تحترق سبيلا جديدا للنظام، للإصلاح الوطني، ولعلاقاته الدولية.

في الصفحات التالية أركز الكلام حول قضايا ثلاث، الأولى عن نوعية النظام، والثاني عن الخطوات الاقتصادية، والثالث عن السياسة الخارجية.

لم يكن لدى الضباط سبيل واضح عن كيفية التنظيم الحكومي واختلف فيها الضباط الأحرار فيما بينهم. على الرغم من الفشل في السنوات الماضية كان الشعب يأمل الرجوع إلى الحكم الليبرالي. جماعة من الضباط الأحرار أرادوا الرجوع إلى الحكم البرلماني والحكم الشعبي وكان الجنرال نجيب يقودهم. والفرقة التي يقودها جمال عبد الناصر

لم تكن ترضى بذلك بل لنظام جديد. كان يتيقن من أعماق قلبه أن الأحزاب السياسية لا تقوم بالمصالح الوطنية وسوف يمسون يتنازعون فيما بينهم عن المصالح الطبقية والذاتية. لم يكن ينوي الرجوع الى النظام البرلماني إلا أن تحت ضغط الفرقة الأولى وإعتبارا لمهمة الشعب العام جعل الجنرال نجيب رئيسا للجمهورية المصرية. ولكن نهائيا ومخافة من اندلاع العنف فيما بين الضباط قام عبد الناصر باعتقال الرئيس نجيب وعزله. قدم المنصب للطفي السيد الذي رفضه فجعل عبد الناصر نفسه رئيسا.<sup>104</sup>

قام النظام الجديد بإعلان فترة انتقالية لثلاث سنوات والتي لا تكاد تنتهي فيما بعد. فلم ترجع مصر إلى الحكم البرلماني بمعناه لا خلال رئاسته ولا بعده بسنوات. بطريقة أو أخرى استمر عبد الناصر في الحكم حتى الموت. قام بتأسيس مجلس قيادة الثورة مع السلطات التنفيذية الكاملة، وبتشكيل جمعية التحرير لتعمل مكان الأحزاب السياسية.<sup>105</sup>

تم انتخاب المجلس القومي في العام المقبل 1956م إلا أن الضوابط الانتخابية حاولت أن لا ينتخب واحد من الساسة القدماء وأن لا يرشح واحد من يخالف جمال عبد الناصر فكرا. كثير من الساسة القدماء وغيرهم من الذين صودرت عنهم أراضيهم وممتلكاتهم، وكثير من الذين كانوا يخالفون النظام قد نهبوا عن المشاركة في الانتخابات. وبعد الانتخابات كان أعضاء المجلس القومي كلهم من الذين دعمهم نظام عبد الناصر.<sup>106</sup> كثير من الساسة القدماء والمجربين منهم كانوا قد اعتقلوا ونهبوا عن المشاركة في الانتخابات.

---

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, P 128 <sup>104</sup>

Ibid <sup>105</sup>

Ibid, p 144 <sup>106</sup>

وفي سنة 1964م تم انعقاد المؤتمر القومي الذي كان نصف أعضائه من بين الفلاحين والعمال، والذي لم يكن يعمل إلا كعضو تابع للرئيس وقفا وفصلا. فلم يتحقق نظام يشارك فيه الشعب في الحكم أو نظام يمثل الشعب المصري بمعناه كما كانوا يظنون به. أراد النظام أن لا تتعزز جذور الوسائل التي يشارك من خلاله الشعب في الحكم مخافة أن يرجعوا عليه في وقت ما.

وكذلك كان الحال عندما تأسس الاتحاد الاشتراكي العربي. لم يكن المقصود منه تفعيل الشعب وتشريكهم في النظام. كان نخبة من الناس يتحكمون النظام ويستغلونه.<sup>107</sup> فقد أسس قسم المخبرات لمراقبة المخالفين داخل النظام وخارجه. كان القسم يقوم باعتقال كثير من أعضاء القوى المضادة ومن خطرت رية عنهم من أعضاء الإخوان والشيوعيين مهلا بعد مهل. وحتى الناصر راقب على خلافه العضدين. هذه الخطوات خلقت إطار الرية والشك فيما بين أعضاء النظام والرغبة فيما بين الناس وخاصة بين القوى المضادة.<sup>108</sup>

وكذلك انعدمت حرية الصحافة وأصبحت الصحافة آلة للنظام. حرية التعبير والتنفيذ كانت مبتورة إلى حد لجأ عدد كبير من الناقدین إلى التنحي من الصحافة.<sup>109</sup> ظل النظام بدون تمثيل ديمقراطي، وباتت القوى المضادة مسحوقة، والصحافة معاقبة، وأعضاء النظام خضعان. لم يكن النظام ليجري حسب بنية حكومية ديمقراطية بل كبنية زمرية شخصية كان في محورها جمال عبد الناصر والزمرة تحوله. هذا النظام الشخصي أدى إلى فساد شائع في النظام ودمار عريض في النهاية، وخلق نظاما ينخرط الناس فيه كسلسلة متعلقة مع الأشخاص، وأصبح هؤلاء

<sup>107</sup> Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 128

<sup>108</sup> Ibid, p 145

<sup>109</sup> Ibid, 153

الناس مراكز القوة وكانوا يعملون بإسم الرئيس ويتعاملون بالبطانة.<sup>110</sup> ظهرت عدد كبير من قضايا للفساد المالي واستغلال القوة النظامية ضد عامة الناس ولسوء إدارة الشركات الحكومية. كل هذا كان يجري بدون محاولة ما إلى تسديد هذه الفسادات. لم يكن المفسدون ليؤخذوا إلى المحاكم، فتجذر الفساد في النظام طولا وعرضا. كانت العلاقة الشخصية أهم الوسائل القوية على كل مستوى النظام من الرئاسة إلى البيروقراطية.<sup>111</sup> كان النظام يسري بأن القوى الثلاث من العسكرية والمخابرة ونخبة من الأصحاب حول الرئيس كانت تعمل كالمؤسسات للنظام. ولكن كيف قدر جمال عبد الناصر على المكث في الحكم لهذه المدة الطويلة؟

اتخذ جمال عبد الناصر وسيلة ثلاثية القوام ليسود على النظام الجديد. الأول أنه اتخذ خطوات اقتصادية أثرت بعيدا و إيجابيا على الطبقات ما دون الطبقات العليا. الثاني أنه تجرأ تجرأ معتره تجاه إقامة الوطنية والقومية المصرية. الثالث إنه برز كقائد ورائد غير منازع فيه للعروبة وللقومية العربية السائدة فكرا بين العرب. احتكامه في هذه المجالات جعله قويا قصرت وضعفت أمامه كل القوى المضادة الداخلية من الشيوعية والإخوانية والديموقراطية، والتي جعلته يحكم كحاكم مستبد لا يجراً عليه أحد ولكن ذلك أفضى أيضا إلى نظام ضعيف من الداخل. كل الشعب مادون الرئيس كان ضعيفا، والضعف بدأت تسلل حتى برزت في هزيمة 1967م.

**خطوات اقتصادية:** أولى الخطوات التي اتخذها كان تقليص امتلاك الأراضي إلى مأتين فدان، ثم تقليصه إلى مائة فدان في 1960م، وخمسين فداناً في 1969م. وهذه الخطوات انتفع بها عدد كبير من الفلاحين الذين كانوا على منة ملاك الأراضي وأفضى إلى تحريرهم الاقتصادي. أصبحت هذه الطبقة أيادي صماء للسياسة

---

Ibid, 154 <sup>110</sup>

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 153 <sup>111</sup>



الناصرية.<sup>112</sup> وكذلك انتفعت هذه الطبقة من المجلس القومي الذي تم تأسيسه بعد انحلال الاتحاد مع سوريا سنة 1964م فقد كان أنصاف أعضائه من العمال والفلاحين. ومع بروز نخبة حاكمة أخرى من بين الطبقات المتوسطة والمتخلفة<sup>113</sup> كانت النخبة الحاكمة القديمة قد تضعفت.

وبعد أن برزت شخصية عبد الناصر بعد الهجمة الثلاثية سنة 1956م كقائد حاسم بدأ يتخذ خطوات كبيرة مثل التأميم للشركات الأجنبية، فإن ستين في المائة من الشركات الكبيرة المصرية كان يمتلكها الأجانب.<sup>114</sup> ثم قام بالدور الثاني لتأميم الشركات الكبيرة المصرية وخاصة الشركات المصرفية والشركات التأمينية. أصبحت إحدى وخمسون في المائة من الأسهم في تلك الشركات للحكومة وأعطى العمال أسهما في الشركات، وكان واضحا أن هذه الخطوات كانت تجاه الاقتصاد الاشتراكي لامتلاك النظام وسائل الإنتاج. ثم قام بإعلان أن كل من يمتلك ملكا يزيد على عشرة آلاف دولارا يجب عليه أداء ضريبة بمعدل تسعين في المائة.<sup>115</sup> وكذلك قامت الحكومة بمصادرة أموال وممتلكات النخبة من الطبقة العليا والذين كانوا حوالي أربعة آلاف.<sup>116</sup> كانت لهذه التقدمات تجاه الاقتصاد الاشتراكي نتائج بالغة المدى.

بدأ الفساد يعم بعده حيث أن الناس حاولوا استتار أموالهم عن طريق الارتشاء للموظفين الحكوميين بعد إعلان تحديد الامتلاك الشخصي. وكذلك تقلص ضخم من الأعمال وانحطت المحاولات الشخصية وعدد الشركات الذاتية. في عاجل الأمر أفضت هذه الخطوات إلى توفير المال للمشروعات الحكومية ولكن آجلا أدى إلى إماتة

---

Ibid, 145 <sup>112</sup>

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 152 <sup>113</sup>

Ibid, p 142-143 <sup>114</sup>

Ibid, p 143 <sup>115</sup>

Ibid, p 152 <sup>116</sup>

هذه النخبة الذين كانوا منشغلون في الإنتاج. ولم يكن الوطن المصري ليضعف لونجححت وتطورت الشركات المأتممة مكان الشركات الشخصية. لكن لم يحدث ذلك، كانت الشركات الحكومية مضروبة بالفساد المالي الذي أفضى إلى تضعف الشركات ماليا وبدأ المحن الاقتصادي يزداد من منتصف الستينات.<sup>117</sup>

مع المشروعات التطورية اشتدت احتياج المال ولكن المال كان مشكلة مستمرة للحكومة. فافترضت الحكومة كثيرا من الكتلة الشرقية لها ولاشتراء السلاح حيث لم تكن هناك وسائل تضيف إلى الدخل الحكومي.<sup>118</sup> لم تبق هناك طبقة غير البيروقراطية التي يمكن تعميل الضريبة عليهم. كان الفلاح والعمال أساس التأييد السياسي وكذلك العسكر فلم يمكن تعميل الضريبة عليهما. وأما البيروقراطية فرجعت إلى الفساد المالي والارتشاء. والأسوأ من ذلك، أن النظام لم يبذل أي محاولة لتسديد الفساد.<sup>119</sup> ومن أجل القلة المالية بأث التسهيلات الحكومية تتأثر بينما الأموال المتوفرة معظمها كانت تنفق على الحرب اليمنية حتى نزلت حرب 1967 فدمرت الاقتصاد المصري تماما وطمست كل المنافع التي تأتت في العقد الماضي.<sup>120</sup> هبطت الحكومة في المأزق الاقتصادي المبني على الاستقراض فكانت تستقرض حتى لأداء ربا الديون. هذه الأحوال كلها أرغمت الرئيس إلى تفكير جديد فبدأ الاقتصاد تتراجع من الاشتراكية إلى الانفتاح فشجع النظام الشركات الشخصية كي يقدر على أداء ربا الديون.<sup>121</sup>

<sup>117</sup> Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 143

<sup>118</sup> Ibid, p144

<sup>119</sup> Ibid, 143

<sup>120</sup> Ibid, p 144

<sup>121</sup> Ibid, p 150

### السياسة الخارجية:

كما ذكرت من قبل أن الحكم تحت الناصر كان قد أصبح مستبدا وأخذ خطوات جريئة تجاه الاقتصاد ولم يكن ذلك يمكن لولم تكن شخصيته تعززت على الساحتين القومية والعربية.

الأول، إن قضية قناة السويس كانت من القضايا الشائكة للشعب المصري. نجح الناصر في عقد الاتفاق على أن تنسحب بريطانيا من منطقة القناة وتأخذ مصر مسؤولية صيانة القناة سنة 1954م. ولكن حادثة تأمين قناة السويس كانت تاريخيا للقومية المصرية، للعروبة ولشخصية الناصر. والحادثة كانت تتعلق من الأحوال السائدة خلال الحرب الباردة. كانت الولايات المتحدة الأمريكية تحاول إلى تمكين العلاقات من خلال التحالفات في آسيا وأوروبا مثل "منظمة حلف الشمال الأطلسي" في أوروبا وحلف بغداد (1955) للدول العربية. رفضت مصر من عضوية حلف بغداد وكان يعتقد أن مصر رائد العروبة وأن الاتفاقية سوف تضرب على رئاتها. حاولت مصر منع الدول الأخرى العربية من الاشتراك في الاتفاقية (اتفاقية بغداد). وهناك بدأ الصراع بين مصر والغرب على يد، وعلى يد أخرى بين مصر وعراق ثم بين مصر والدول العربية الأخرى.<sup>122</sup> وأثناء ذلك شارك جمال عبد الناصر في مؤتمر باندونغ (1955م) لحركة عدم الانحياز مع رؤساء تيتو من يوغسلافية، ونهرو من الهند، وسوكارنو من إندونيسيا. هناك أعلنوا بعدم انحيازهم إلى أن قوة إمبرالية.<sup>123</sup> وهذا أغضب جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكية. آنذاك كان الناصر أيضا يحتاج إلى السلاح للاستعداد ضد إسرائيل عندما ازدادت الغارات الإسرائيلية على الجيش المصري والفلسطينيين في الضفة الغربية ما أدى إلى إماتة عديد منهم. ذلك بعد أن سمح بن غورين وزير الدفاع الإسرائيلية بالهجمة على الضفة الغربية باتهام أن مصر تسلم الفدائيين الفلسطينيين.

<sup>122</sup> Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 131

<sup>123</sup> Ibid

وقتذاك لم تكن مصر تقدر على توفير السلاح لا لجيشها ولا للفلسطينيين. أصبح الاحتياج إلى السلاح ملحة.<sup>124</sup>

تفكر الناصر في اشتراء السلاح وكان الغرب قد اتفق على إيقاف بيع السلاح إلى أي دولة عربية<sup>125</sup> فلجأ الناصر إلى روسيا ولو أن ظاهرا كان العقد لشراء السلاح مع تشيكوفاكيا. غضبا على هذه الخطوة من قبل الناصر انسحبت مجموعة البنك الدولي على إشارة دالاس من التمويل الذي ارتضت له لمشروع السد العالي في أسوان. فرد عليه الناصر بتأميم قناة السويس.<sup>126</sup> هجمت القوات الثلاثة من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر بعد أن رفض الناصر بالمشاركة في مؤتمر عالمي لتسوية القضية في أكتوبر 1956م<sup>127</sup>. فتدخلت أمريكا وروسيا لإيقاف الحرب وانتهت الحرب بعد أن تدخلت هيئة الأمم المتحدة.<sup>128</sup>

لم تكن مصر انهزمت ولا يمكن أن يقال إنها انتصرت إلا أن ثبات مصر ضد القوى الثلاثة كانت شيئا جعل شخصية الناصر قائدا عظيما في الدولة، وخارجها في العالم العربي، واحتفل بكرامة في العالم الثالث. اعتزت القومية المصرية اعتزازا والعروبة تأصيلا حيث أن صورة عبد الناصر كانت توجد في الشوارع العامة في جميع أنحاء العالم العربي. مستندا على هذا الصيت الواسع والمكانة المرتفعة قدر الناصر على اتخاذ خطوات جريئة ومستبدة.

---

Ibid, p 133 <sup>124</sup>

Ibid, p 132 <sup>125</sup>

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 133 <sup>126</sup>

Ibid, p 135 <sup>127</sup>

Ibid, p 136 <sup>128</sup>

## مشروع العروبة

في البداية أود التوضيح أنني قد تناولت العروبة نظريا وتطورا في الباب الثاني. نكتفي ههنا بذكر السياسة المتعلقة بها.

بينما كان الناصر يتفوه بالعروبة وبالقوموية العربية بدأت الخلافات تبرز من الدول العربية الأخرى. ظلت الدول العربية الأخرى على مخافة من نظرية الوحدة العربية في مفهومها القومية العربية مع وطنية عربية واحدة على موقف الناصر حيث هذا يؤدي إلى إنهاء الحكومات الحالية مزادا عليه إطلاق عبد الناصر على مخالفي القومية العربية بالإقطاعيين والرجعيين.<sup>129</sup>

بدأ تيار جديد في العالم العربي والذي أدى إلى الانقلاب العسكري في دول عديدة وأيضا إلى انقسام بعض الدول العربية على خطوط العروبة. انتهجت تيارات العروبة مناهج مختلفة في دول عربية عديدة. في سوريا نجحت العروبة لأمدما، وفي العراق والأردن لم تنجح قط، وفي اليمن أدت إلى الحرب الأهلية وانقسام الحكم، وفي لبنان إلى الحرب الأهلية بين محامي العروبة ومعانديها الذين حذوا بالولايات المتحدة الأمريكية وفق مبدأ أيسين هاور.<sup>130</sup>

الحوادث تلك أدت إلى فشل نظرية العروبة مهلا، علاوة على الأخطاء التي ارتكبتها مصر خلال رئاسة الناصر لجمهورية العربية المتحدة. قد كان حزب البعث غلب على حكم سوريا تحت ريادة شكري القوتلي الذي قام بتعقد الاتحاد بين سوريا ومصر. كان الناصر يفهم المخاطر من التقدم بدون الاستعداد. ولكن مشروع العروبة

Ibid, p 138 <sup>129</sup>

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 140-142 <sup>130</sup>

المتخيل كان جذبه إلى حد لم يتعمق كثيرا في الإقدام المتعجل. وتم بعد ذلك انتخاب المجلس التشريعي والتحققت  
 يمن الشمالي أيضا إلى هذه الجمهورية سنة 1958م<sup>131</sup>. ولكن أشياء عديدة أدت إلى تحليلها سنة 1962.

في سوريا كان الناصر قد ألغى كل الأحزاب السياسية حتى حزب البعث وقام بإعداد دستور بعجلة وأصبح  
 عبدالناصر رئيسا لهذه الجمهورية المتحدة بتصويت 99.9 في المائة. ولكن الغضب بدأ يتزايد من خطوات إصلاحية  
 على خطوط الاشتراكية من تأميم الشركات الذاتية وباقامة المجلس القومي الذي يتمثل فيه الفلاح والعمال. كان  
 المجتمع السوري معظمه مشتتلا على الطبقة البرجوازية. كلتا الخطوتين أثرتهم سلبيا حيث أبعدهم من القوة  
 السياسة والقوة الاقتصادية معا. وأغضب السوريين إبعادهم من أماكن القوة وإساءة المصريين الحكم بتعاملهم  
 السوريين كالإمبراليين حتى استنكر العسكر مجرى الأمور على هذا النهج. قام العسكر بالانقلاب واعتقلوا عبد  
 الحكيم عامر أمير الجيش في سوريا وعزلوه إلى مصر.<sup>132</sup>

بغت ناصر من جراء ما جرى. بدأ يبحث عن الغلطة. لم يكن يؤمن بوقوع ما وقع حتى لم يكن يرتضي لتبديل  
 اسم الجمهورية على الرغم مما حدث. تأثرت صيته وفلت سمعته من جراء الحدث. فكأن انحلال الجمهورية كانت  
 تساوي انحلال فكرة العروبة والقومية العربية. فلم تبق بعد ذلك إلا أقاويله في الكتب الأدبية. وساءت القضية  
 أكثر بما آلت إليه الأمور في اليمن حيث قام العسكر المعاند للحكم الملكي بالانقلاب ولكن الملك المعزول  
 الإمام بدر لم يتخل عن الحكم. فاندلعت الحرب الأهلية بين معاضديه -من قبائله- ومعانديه في قيادة عبدالله  
 السلال الذي أسس جمهورية اليمن الشمالية سنة 1962.<sup>133</sup> وطالب المعونة من عبد الناصر الذي أخطأ

<sup>131</sup> Ibid, 138

<sup>132</sup> Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 139

<sup>133</sup> Ibid, p 143

بإرسال القوات إلى اليمن.<sup>134</sup> وأخذت الحرب شكل الصراع بين الفكرة الرجعية والفكرة المتطورة وحازت مملكة السعودية محاذة الإمام بدر أيادا وعونا ودارت الحرب لسنين ما أدت إلى إتلاف الأموال والأنفس تلفا ضخما وخاصة تأثر به الاقتصاد المصري والنفسية المصرية والعربية تأثيرا بدت آثاره المترامية فيما بعد.<sup>135</sup> انتهت الخلافات بين مصر ومملكة السعودية خلال حرب 1967.

### حرب 1967 مع إسرائيل

بينما كانت الدول العربية تتصارع فيما بينها على خطوط العروبة ومنغمسة في الحروب الأهلية كانت إسرائيل تستعد لحرب خطيرة. كانت إسرائيل قد جلبت الأسلحة المدمرة والصواريخ الحديثة من الولايات المتحدة ونجحت في توليد السلاح النووي.<sup>136</sup> كانت على استعداد كامل للحرب وكانت هناك حوادث التضارب بين القوات الاسرائيلية والقوات السورية على الحدود خلال سنة 1966م.<sup>137</sup> كانت هناك تقارير سرية عن إمكان هجمة إسرائيلية على مصر، ويعني ذلك أن إسرائيل كانت تستفز للحرب<sup>138</sup> في حين لم تكن الدول العربية وخاصة مصر مستعدة لها. حاول الناصر تجنب الحرب بالأساليب الشاطرة وبجدعة ما فقدم عرضا لانسحاب القوات الأمنية لهيئة الأمم المتحدة من منطقة شرم الشيخ حيث تلتقي حدود مصر وسوريا والسعودية والأردن عند البحر الأحمر. ولكنه أيضا أغلق ممر تيران على إسرائيل وكان ذلك يكفي لدى إسرائيل عذرا استفزازيا للحرب.<sup>139</sup>

Ibid, p 141 <sup>134</sup>

Ibid <sup>135</sup>

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 146 <sup>136</sup>

Ibid <sup>137</sup>

Ibid, p 147 <sup>138</sup>

Ibid <sup>139</sup>

وأثناء ذلك توافقت الدول العربية من السعودية والأردن وسوريا على التعاون لواندلعت الحرب مع إسرائيل. ولكن إسرائيل بدأت بالهجمة الباغتة على القوات الجوية المصرية ودمرت ثلث القوات والسلاح المصري. فكرت مصر وحلفاءه العرب هجمة على اسرائيل ولكن نقصتهم الوقاية الجوية التي كانت لازمة لتمكين القوات الأرضية على التقدم في ميدان الحرب. فأدى ذلك إلى انهزام القوات العربية وتقدمت إسرائيل حتى إلى شواطئ قناة السويس من مصر والجولان من سوريا والضفة الغربية من الأردن.<sup>140</sup>

هناك تحليلات عديدة ومختلفة عما أدى إلى الهزيمة المدمرة ولكن الحرب هذه كانت لها آثار بعيدة المدى في السياسة العربية والعالمية وخاصة للسياسة الفلسطينية.

كانت الهزيمة هزيمة نفسية اعتبارا من أنه لم يكن هناك أي دولة عربية تواجه إسرائيل ثباتا فتولوا (في عهد السادات) مدبرين من مشروع العروبة والقضية الفلسطينية إلى جعل الاتفاقيات مع إسرائيل كي يحافظوا على حدود دولهم حتى يقدرروا على شراء الأمن لأوطانهم. أصبحت إسرائيل المحور السياسي لدى القوى الغربية في المنطقة، وحتى الدول العربية سرعت إلى الدول الغربية وخاصة أمريكا للعلاقات الجيدة. وأصبحت لأمريكا وإسرائيل يد عليا في سياسات المنطقة العربية إزاء النفوذ الروسي فيها. وكل واحد من الدول العربية رجعت إلى صيانة المصالح الوطنية أولا، وبها تدمرت مشروع العروبة. ولكن فلسطين وشعبها كانوا أكثر منهم ضياعا في الحرب وبعدها. فبقيت فلسطين على ترحم إسرائيل السياسي تفعل معهم ما تشاء تقتل وتهجم تسحق وتوسع من المناطق المحتلة، منذ ذلك إلى يومنا هذا لا تملك الدول العربية جرأة ما عدا أن يشاهدوا باكمين على ما يجري مع إخوانهم العرب من قتال ودمار شامل فترة بعد أخرى.



لم تنهزم مصر فحسب في تلك الحرب بل انهزمت العروبة وانهزم الناصرفانكسر من داخله حتى لقمى المصير في

سبتمبر 1970م، العام الذي تم اتفاقية إيقاف النار مع إسرائيل في يوليو.<sup>141</sup>

### ثالثاً: إصلاح الإصلاحات وعهد الجمود: سادات ومبارك

كانت مصر على هواضها أملاً ورجاء وبراقة للمستقبل فباتت إلى خواضها عندما نزل الناصر إلى الموت. كانت مصر مثل زعيمها الراحل في الزعزعة والصدع والتراجع والحيرة. كانت نهاية مزعجة لبداية منجزة.

جاء زمام مصر في أيدي أنور السادات في أكتوبر سنة 1970 وهو واحد من الضباط الأحرار وصاحب الإذاعة في صباح الانقلاب. كان مصاحب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في أيامه. لم يكن من الذين أظهروا اختلافاتهم مع الناصر حتى أنه احتل نيابة الرئيس. كان يطن اختلافه من الناصر مما تتعلق بالمبادئ الحكومية والاقتصادية. فلما أصبح الرئيس اختار سبيلاً مختلفاً عن القائد الرحيل فيما تتعلق عن التغيرات عن نوعية الحكم وفي السياسات الخارجية والاقتصادية، فكانت لها آثار على مصر وشعبها.

منذ سنة 1971م كان السادات يعلن أن العام هذا عام الفصل، ولكن الناس بدأوا يسخرون من قوله عندما مضت سنتان عليه ولم يحدث شيء.<sup>142</sup> في الثاني والعشرين من أكتوبر سنة 1973م قام بهجمة باغته على إسرائيل مع احتلاف الملك الأردني حسين والرئيس السوري حافظ الأسد واخترقوا إلى ما وراء الحدود الإسرائيلي بينما كان العالم يرى إلى ذلك هلعاً وارتياحاً.

كانت الهجمة محدودة المدى ونظر العرب إليها بنظرة طمانينة إلا أن السادات لم يصل إلى هدفه من إرجاع سيناء. فماذا كان الهدف من هذه الهجمة؟

<sup>142</sup> Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 156

يقال إنه استهدف من هذا تقربه إلى أمريكا. كان يقول إن أمريكا تملك ناصية الأمور تسع وتسعين في المائة وهي التي تقدر على إرجاع سيناء.<sup>143</sup> ولم يكن فاز في محاولاته الأولى في إقامة العلاقات مع أمريكا. فاتخذ من الهجمة وسيلة إلى تدخل أمريكا وعلى حسب ظنه قام هينري كيسينجر بالتوسط بين إسرائيل ومصر خلال المفاوضات عن إنهاء العنف بينهما حتى اتفقت إسرائيل على الانسحاب لأميال من قناة السويس والسد الجولان سنة 1974م<sup>144</sup>، فتعززت مكانته في أعين الناس واستعظموه.

على يد أخرى بدأ محاولاته لتحرير نفسه وبتر العلاقات مع روسيا مظهرا لأمريكا أنه جاد في محاولاته للتقرب منها. فأعلن السادات في سنة 1972 أنه أرسل إلى الموظفين الروسيين أن يغادروا مصر. فغادر الروسيون مع الأسلحة الحديثة التي سوف تحتاجها مصر للحرب ضد إسرائيل. توترت العلاقات بينهما إلا أنه أدرك خطأ إقدامه وبذل فيما بعد مساعيه لتحسين العلاقات مع روسيا كي لا تتوقف الإعانة السلاحية.<sup>145</sup>

وبعد الحرب مع إسرائيل اتخذ خطوات كبيرة لتسوية الخلافات وشراء الأمن مع إسرائيل من وساطة أمريكا. في سنة 1977 حينما زار السادات يروشلم كان الجومختلغا، ولوأن زيارته أثارت ضجة في العالم العربي إلا أن الشعب المصري عامة استقبلها بقبول حسن. قد كانوا تعبوا من عبأ الحروب والمشاكل الاقتصادية الممتدة لسنين ورأوا في زيارته آمالا إلى طريق الأمن. أما الاتفاقية كامب ديفيد فاستقبلوها بالنكران. بئس الأمن هذا الذي اشترى الأمن للمصريين وباع حق الظلم على الفلسطينيين لإسرائيل.<sup>146</sup> أفضت المفاوضات الثلاثية بين مصر وأمريكا وإسرائيل

---

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 56<sup>143</sup>

Ibid, p 158<sup>144</sup>

Ibid, p 157<sup>145</sup>

Ibid, p 160<sup>146</sup>

إلى اتفاقية كامب ديفيد سنة 1978م. اتفقتا فيها على إقامة السفارة بين الدولتين وتهدئة العلاقات بينهما. والنقاط المتعلقة بالشعب الفلسطيني كانت أكثر خطورة وفداحة حيث أن إسرائيل أصبح مشاركا بالدوام مع مصر والأردن في كل القضايا الأمنية الفلسطينية بدون مشاركة مستقلة والتمثيل المستقل لفلسطين. فأصبحت فلسطين بدون وجود سياسي بعدئذ. تجرأت إسرائيل بعد ذلك على مظالم فادحة والعنف المتماذي على الشعب الفلسطيني. استقبل العرب والشعب المصري هذه الاتفاقية بالغضب والنعرة. بها نقضت مصر عهدتها بالعرب، بالشعب الفلسطيني، بالشعب المصري وبفضية العروبة وغدرت حلفاءها العرب ضد إسرائيل فقامت الدول العربية بمقاطعة العلاقات مع مصر وإخراجها من مجلس الاتحاد العربي.<sup>147</sup>

بعد ذلك تضعفت القوة العربية فقد كان الرائد للعروبة استكان وتضعف وتقهقر والذي كان مركزا للمكافحة العربية ضد إسرائيل. بعد ذلك بدأت إسرائيل تعامل مع الفلسطينيين والدول العربية الأخرى من الأردن وسوريا ولبنان معاملة جريئة سيئة.<sup>148</sup>

ولعل السادات كان قد تجاوز الحد في محاولاته لمبايعة السلام لمصر. لعله كان يظن أن التطور الاقتصادي لا يمكن على نهج الاقتصاد الاشتراكي بل على نهج الاقتصاد الرأسمالي، والاقتصاد الرأسمالي يحتاج إلى العالم الغربي الذي تملك أمريكا مفتاحه. ولا يقوم العالم الغربي بالتعاون حتى يتيقن بالسلام في مصر ولم يكن في ظنه يمكن ذلك بدون السلام مع إسرائيل.

---

Ibid <sup>147</sup>

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 161 <sup>148</sup>

وتخطى في سبيل الاقتصاد الحر على نهج الاقتصاد الرأسمالي وأعلن بانفتاح الاقتصاد وتشجيع القطاع الذاتي وتشجيع البرجوازية. بدأت الطبقة البرجوازية تزيد وأمّلت الحكومة والطبقة البرجوازية أنه سوف تندفق الاستثمار الخارجي وخصوصاً من الغرب ولكن الآمال خابت. قليل من الشركات العالمية والشركات الاستثمارية لبوا لدعوتها خوفاً من الوضع المريب والمناخ الحربي. ولعل الحرب الوجيهة في سنة 1973 م كانت مقدمة لذلك.<sup>149</sup> فسرعان ما تقدم السادات مع إجراءات جذرية في السياسة الخارجية والسياسة الاقتصادية.

وفي غضونها عبأ الديون على مصر كان يتراكم ولم تكن مصر تقدر حتى على أداء الأرقام الربوية على رؤوس الأموال المقترضة مع فشل المحاولات الأولية للانفتاح. إنها فازت في جذب الاستثمار من العالم العربي إلا أنها كانت في القطاعات غير المنتجة من العقارات والبناء وقطاع الترفيه مآدى إلى ارتفاع الأسعار بدون توليد الوظائف. السادات كان يأمل التمويل والاستثمار في القطاعات المنتجة مع الوظائف الكثيرة التي تسببها. رجع السادات للإعانة المالية إلى أمريكا وصندوق المال الدولي. اشترط الصندوق بانسحاب التبرعات الحكومية وتوجيه القروض في القطاعات المنتجة. انسحب السادات التبرعات والتي أدت إلى الفساد الخبيز سنة 1977 م وتبينت فداحة الأحوال الاقتصادية الرديئة على أرض الواقع.<sup>150</sup>

ذلك أيضاً كانت عهد الانتاج البترولي في عديد من البلدان العربية. فتوجه عدد كبير من العمال إلى هذه البلدان وأرسلوا أرقاماً ضخمة إلى بلادهم مصر والذين كان يقرب عددهم إلى ثلاث ملايين. لكن الأرقام كانت لا تستخدم في الإنتاج بل للاستهلاك أولشراء العقارات والأراضي لدى الفلاحين. تحسنت أحوال البرجوازية وأسر

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 157 <sup>149</sup>

Ibid, p 159 <sup>150</sup>

الفلاحين الذين كانوا يعملون في الدول البترولية. لكن الطبقات ما دونهما كانت تعاني من ارتفاع الأسعار ومن مشاهد الترف والاستهلاك المتطرف وفسح الطراز الغربي من المطاعم والملبوسات وأماكن الملاهي والنزهة فعلى جانب مشاهد الترف والثروة كانت تحيا مشاهد البؤس والفقر المدقع.<sup>151</sup>

هذه المشاهد جذبت عناية الطبقة الدينية كما أن اتفاقية كامب ديفيد جعلت طبقة كبيرة من المصريين معادية للسادات إضافة إلى خطواته التي جعلت الطبقة الليبرالية والاشتراكية ناكرة له. كان السادات قد وضع عن الرقابة الإعلامية وعن تشكيل الأحزاب السياسية بعد مجيئه في الحكم. ولكن بدأ يزيد من تقييد الإعلام واضطهاد الساسة المعارضة الذين قاموا بنقد سياسات السادات. فجعل نقده أو نقد أصحابه أو أسرته من الجريمة من خلال قانون العار. حتى جعل الانتقادات من المصريين الخارجيين جريمة. تحت هذا القانون في سنة 1981م قام باعتقال قرب خمس عشر مائة من الناس من أعضاء الإخوان والصحفيين وأصحاب المعارضة والأساتذة والأثويات مثل نوال السعداوي مع تهديد مزاد أن لديه قائمة لخمس عشر ألف أكثر.<sup>152</sup>

في البداية كان أطلق سراح المعتقلين من أعضاء الإخوان كي يجعلهم حلفاء في محاولاته ضد السياسة الناصرية الاشتراكية وكان شجع التيار الديني آنذاك. ولكن العلاقات تغيرت بعد سنة 1978م من أجل المناخ الكامل من التغريب والاضطهاد السياسي ومعاملة إسرائيل مع فلسطين والدول العربية الأخرى. بدأ تيار التدين يزيد ضد تيار التغريب في أواخر السبعينات وبدأ الناس والمرأة في الملبوسات الدينية أكثر إزاء التغريب. تكثرت التجمعات الدينية التي تأسست للأغراض الدينية فبعضها تحولت إلى الأغراض السياسية أيضا. فلما قام السادات

<sup>151</sup> Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 161-162

<sup>152</sup> Ibid, p 162-163

بحسب القنوات الانتقادية الليبرالية والاشتراكية على جانب تشجيع التجمعات الدينية اتخذ الناس من التجمعات الدينية سبيلا للنقد والذي سوف يؤدي إلى الاعتقالات الضخمة سنة 1981م.<sup>153</sup>

وكذلك الاتفاقية السلمية مع إسرائيل كرت بنتائج مستنكرة حينما قامت إسرائيل بهجمة الأماكن النووية العراقية وبقصف القنابل على لبنان سنة 1982م وبإضافة المستوطنات في الضفة الغربية وبالظلم المتضاعف على السكان الفلسطينيين. طفق الشعب المصري يستيقن أن المسؤول الأصيل لكل هذه المآسي هو السادات نفسه.<sup>154</sup> والاعتقال الضخم سنة 1981م كان حدثا استفز الجمعيات المتطرفة إلى عملية الإرهاب.<sup>155</sup> ويوما خلال العرض العسكري قام عضو من أعضاء الإخوان بقتل السادات.

والأمر المزعج هناك أن الشعب لم يسئل حتى قطرة دمع على موته على خلاف ما كان حينما مات جمال عبد الناصر فكان الشعب يبكيه.

---

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 163, 165 <sup>153</sup>

Ibid, p 164 <sup>154</sup>

Ibid, p 165 <sup>155</sup>

## رابعاً: عهد الجمود- الرئيس حسني مبارك

اتخذ نائب الرئيس المصري حسني مبارك مقاليد الحكم بعد مقتل الرئيس الراحل أنور السادات وأصبح رئيساً لمصر سنة 1981م واحتل المنصب حتى حركة الربيع العربي سنة 2011م.

تعرف فترة حكمه للجمود السياسي على الساحة الوطنية وللانحياز الغربي في السياسة العالمية وللتغيرات الوجيزة في المجال الاقتصادي ولانبعاث السياسة الدينية ونهايتها للاصطدام بين الحكم والدين.

بعد تمكنه في الحكم قد أجاز الأحزاب السياسية غير الأحزاب الدينية للنشاطات السياسية. شارك بعضها في الانتخابات سنة 1984م و1987م مثل الوفد الجديد وفتاة مصر، وحتى جماعة الإخوان المسلمين شاركت في الانتخابات سنة 1987م.<sup>156</sup> منذ سنة 1979م صارت مصر ذات الأحزاب السياسية المتعددة<sup>157</sup> وكذلك بات الحال فيما بعد إلا أن الحزب المهيمن هو الحزب الديمقراطي الوطني الذي يساند الرئيس. لكن الشعب المصري يستيقن بجراء الغش في الانتخابات ولعل ذلك يفسر ظاهرة أن مشاركة الشعب المصري في الانتخابات لا تزيد على النصف. لما حاول سعد الدين إبراهيم كشف الستار عن الغش سجنه النظام.<sup>158</sup>

قام بترميم مادة 76 من الدستور المصري تحت الضغط الأمريكي. أجاز الترميم أيمن النور للمنافسة في الانتخابات الرئاسية ولكن مبارك قام بتسجينه فور فوزه في الانتخابات.<sup>159</sup> تحت رئاسته أصبح البرلمان لجنة مليئة بالأعضاء

<sup>156</sup> Goldsmith Jr, Arthur, Modern Egypt: The formation of a nation state, p 191

<sup>157</sup> Ibid

<sup>158</sup> Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, P 175

<sup>159</sup> Ibid



الوفيين للرئيس. تأتي التشريعات من الرئيس أكثر مما تأتي من البرلمان. وله الخيار في تعيين الوزراء. واللجنة الوزارية مسؤولة إلى الرئيس لا إلى البرلمان.<sup>160</sup>

الصحافة وحرية التعبير كانت تتمتع بحرية أكثر وتوجد عدد كبير من الصحف والمجلات إلا أنه كان يلجأ إلى الخطوات الضغطية على الصحافة حينما لا تسوغه الأخبار. على سبيل المثال، حاول النظام تهديد الساسة والقضاة الذين ظهروا للاستقلال القضائي.<sup>161</sup>

على الساحة الاقتصادية اتخذ النظام الطريق الوسط. فتقدم إلى تحرير السوق والقطاع الشخصي إلى جانب القطاع الحكومي.<sup>162</sup> إتخذ إجراءات لكبح الاستهلاكية المتطرفة وتوجيه الأرقام إلى الاستثمارات المنتجة بتقييدات في الاستيراد وتحسين الاقتصاد بتعميل الضرائب وبإجازة البنوك الدولية لإنشاء فروعها في مصر والتي لا تأتي تحت القوانين التمويلية المصرية . ولوأن البنوك تفشت في مصر عرضا وطولا إلا أن آثارها وخاصة البنوك الدولي خطيرة المدى للتطور الاقتصادي. إنها أدت إلى الترف والتطور في طبقة التجار الفتاة الذين قاموا بتأسيس الشركات والمصانع التي تنتج عددا كبيرا من البضائع للاستهلاك الداخلي وللإيراد. فبرزت منها طبقة مترفة تملك ملايين في حين كثرة الشعب الكاثرة تحيا ما دون مستوى الفقر، هذا أيضا واحد من أسباب ازدهار الاسلامية المتطرفة.<sup>163</sup>

---

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, p 175, 177 <sup>160</sup>

Ibid <sup>161</sup>

Ibid, p 170-171 <sup>162</sup>

Ibid, 174 <sup>163</sup>

بعد موت أنور السادات تحسنت العلاقات بين مصر وروسيا واتفقت روسيا على تسوية القروض لمدة آجلة ، إلا أن أمريكا هي التي تقدم الإعانة المالية التي تتراوح بين مليار إلى ثلاث مليارات سنويا. ولعل ذلك رشوة من أمريكا لتأمين السلام مع إسرائيل. يستخدمها النظام في المصاريف العسكرية والتبرعات الحكومية وتطوير بعض التسهيلات الحكومية. خلال التسعينات من القرن الماضي تحولت المحاولات إلى تطوير المشروعات التعليمية والصناعات الصغيرة والصناعة النسوية.<sup>164</sup> أعان إعفاء القروض العسكرية الأمريكية حوالي أربع مليارات والنصف من الدولار الاقتصاد المصري وتمكنت مصر بها إلى توجيه الوسائل المالية إلى المشروعات التنموية وتسوية القروض القديمة.<sup>165</sup>

الإعانة الأمريكية كانت تستهدف أيضا إلى تمديد حكم حسني مبارك وصيانة نظامه حتى لا يثور الشعب ضده، ولذلك لم ينسحب مبارك التبرعات الحكومية التي تؤثر الشعب عامة. حقا خدمت الإعانة أغراض أمريكا من توسيع سياسة الانفتاح والتجارة الحرة كي يصبح مصر سوقا للمستوربات الأمريكية وحلفائها. وبقاء مبارك في الحكم أصبح ضمنا أن إسرائيل يجي في مناخ سلمي أحسن.<sup>166</sup>

خلال فترته لم يقيم بتغييرات خطيرة في السياسة الخارجية المصرية عدا أن العلاقات مع روسيا تحسنت ومع أمريكا تعززت ومع الدول العربية الأخرى تقربت على الرغم من العلاقات الهادئة المستمرة بين مصر وإسرائيل.<sup>167</sup>

---

Goldsmith Jr, Arthur, Modern Egypt: The formation of a nation state, P 189 <sup>164</sup>

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, P 171 <sup>165</sup>

Goldsmith Jr, Arthur, Modern Egypt: The formation of a nation state, P 189 <sup>166</sup>

Ibid <sup>167</sup>

منذ سنة 1979م تستمر أمريكا إعانتها المالية حوالي مليارين دولار سنويا أكثر مما قدم بها إلى أي دولة عربية ماعدا إسرائيل، وليس ذلك إلا إعانة سياسية تستهدف خاصة بعد 2003م إلى التبرعات الحكومية. ولكن الشعب المصري ليس في بلاهة ألا يفهمه.<sup>168</sup>

الأحوال بعد الحرب الخليجية تغيرت للشعب كما تغير المناخ السياسي بعد 2001م. الهجمة على أفغانستان ثم دمار العراق أديا إلى تلوين السياسة الأمريكية باللون الديني. والشعب أصبح مستنكرا للإعانات المالية وللعلاقات السياسية مع أمريكا. الشعب العربي خاصة والشعب المصري عامة ترى إلى التطورات الحربية بالريب والاستنكار بأنها موجهة إلى تدمير الإسلام وثقافته.

خلال الحروب الخليجية والغارة العراقية على كويت كان حسني مبارك انحاز إلى الائتلاف الغربي ضد صدام حسين عندما خالف صدام موقف مجلس التعاون العربي عن تسوية الأمور بين كويت وعراق .

حاولت الدول العربية من السعودية والأردن والعراق لتوطيد العلاقات مع مصر وأدخلت مصر في مجلس التعاون العربي بعد أن قدمت مصر معاونته للعراق خلال الحرب مع إيران.

على الرغم من كل ذلك لم تتغير العلاقات المصرية الإسرائيلية من سياسة السلام مع إسرائيل إلا لفترة وجيزة أعقاب الغارة الإسرائيلية وإحتلالها لسد الجولان وتخريب لبنان بقصف القنابل سنة 1982م والذي كان أفضى إلى إتلاف الأنفس باهظا للاجئين الفلسطينيين في لبنان ومواطنيها. انسحبت مصر سفيره من إسرائيل لتوه إلا أن العلاقات استمرت وطيدة معها حتى انتعشت العلاقات السفارية مع إسرائيل سنة 1986م.<sup>169</sup>

Goldsmith Jr, Arthur, Modern Egypt: The formation of a nation state, P 190 <sup>168</sup>

Ibid, p 189 <sup>169</sup>

لعل حسني مبارك ورؤوساء الدول العربية لا زالوا يستهدفون إلى مبايعة السلام مع إسرائيل خلال العقدين الأخيرين من القرن الماضي وفي القرن الراهن إلا أن الخطوات الإسلانيلية الأمريكية وسياستهما وخاصة في فلسطين والعراق جعلت الشعب العربي عامة والشعب المصري خاصة يعتبرونها فشلا بينا في الدبلوماسية وفي إعانة الإخوة الفلسطينيين بتركهم على ترحم إسرائيل. ثم سياسة الحرب على الإرهاب جعل الشعب العربي يرى إلى كل المحاولات الغربية بالريبة والاشمئزاز وإلى سياسة الجمود من قبل الحكام العرب بالوهن والازدراء. يرى الشعب إلى تحمله الصعوبات والأوضاع القاسية والاضطهادات السياسية يذهب سدى من أن الحكام فشلوا على الساحات أجمع من الخارجية والداخلية، من الديمقراطية والحرية والرقى والازدهار الاقتصادي.

والتيارات الثورية ضد نظام مبارك كانت قد اتخذت جذورها في التسعينات من القرن الماضي حينما أصبح كل من الليبراليين والإسلاميين قانطين من أي توجهات مشجعة في المستقبل. رجع المثقفون إلى الانتقادات للحكم، ورجع الشعب اليائس إلى جذور الإسلام مرة أخرى مع شعارات مثل أن 'الإسلام هو الحل' وأن 'أمريكا تحارب إسلام وراء قناع الحرب على الإرهاب'. بينما قام المثقفون بالتظاهر ضد النظام تحت لافتة الكفاية. رجع أصحاب التيار الديني إلى توسيع شبكاتهم خلال الإعانات المدنية والتسهيلات الرفاهية من المستشفيات والتعليم والرفاهات خلال الكارثات حتى توسعت أرضيتهم في الشعب. وخلال التسعينات من القرن الماضي بدت ظاهرة أخرى. أخذت العلاقات الطائفية تتوتر فتجسدت في الاشتباكات الطائفية وخاصة مع النصارى الأقباط.

تصاعدت المحاولات العلمية حول الدين ككيان سياسي وكقوة سياسية تقدم حل القضايا التي بعثتها الحداثة الغربية. الرجوع إلى الدين بارز على الساحتين السياسية والاجتماعية. إن مظاهر التدين تصاعدت في الحياة الشخصية من خلال الجلابيب والحجاب سواء بسواء. ذلك مع تقدمهم في المجالات الاقتصادية من العمل في

الشركات وإمتلاكهم الشركات، وفي مجال التعليم العالي، وخاصة ازدادت عدد النساء المحجبات في هذه المجالات. وكذلك تكثرت الكتب حول الإسلام والسياسة، وتقللت الكتب حول النظريات الحديثة من العروبة والوطنية. إن المناخ العلمي منذ العقد الأول من القرن الراهن يملأ من "الاسلام والسياسة" و"الإسلام والغرب" إزاء التيارات الأخيرة من السياسة الوطنية أوالعروبة أوالديموقراطية أوالاشتراكية أوالشيوعية.<sup>170</sup>

رأينا اندلاع هذه التيارات الدونية خلال تحركات الربيع العربي التي كانت مصر من ضحاياها. أرغمت التظاهرات المستمرة خلال 2011م إلى تنحي الرئيس مبارك وانتخاب مرسي كرئيس مصر. كان عضوا بارزا في حركة الإخوان المسلمين. مع طلوعه على ساحة السياسة المصرية نلاحظ الحركة السياسية تنقسم إلى التيارين الليبرالية والإسلامية والتي نھائيا تجسدت في الانقلاب العسكري ضد الرئيس مرسي وتمكين عبد الفتاح السيسي على الحكم. لم ترجع التظاهرات ضد السيسي عددا وضخما كما كان الحال ضد حسني مبارك. مرة أخرى توجد مصر في مأزق سياسي لا تبدو تخرج منها بسهولة ولا يبدو له حلا يتفق عليه كثرة الشعب المصري.

---

Goldsmith Jr, Arthur, Modern Egypt: The formation of a nation state, p 197-200 <sup>170</sup>

## الباب الثاني: النقد السياسي في روايات بهاء طاهر

## المدخل

السياسة مصطلح أكثر تقولا وجدلا في العصر الحديث منذ تطور الأفكار الجديدة المتعلقة بنوعية الحكم وعلاقة الحاكم بالمحكوم أو المحكوم بالحاكم. فبعد أن ظل الحكم يتخذ قوته ومؤناته من الأعلى - شخصا كان أو دينيا - ليتدخل بها في حياة عامة الناس من تحديد اختياراتهم<sup>171</sup> وحررياتهم جاءت الأفكار الحديثة بنظريات جعلت من النظريات القديمة منقلبة على رأسها، فجعلت من الشعب مصدر الحكم والقوة. أقلعت النظريات الحديثة - الحرية الفردية،<sup>172</sup> والاتفاقية الاجتماعية، والمساواة والعدالة الاجتماعية - بناء مصادر الحكم القديم من جذورها والتي نفخت صور الثورة غير المسبوقة في الشعوب والأوطان والحكومات في جميع أنحاء العالم، بداية من أوروبا وخاصة فرنسا<sup>173</sup> انطلاقا منها إلى البلدان الأوروبية<sup>174</sup> ومنتشرة إلى العالمين العربي والآسيوي والأفريقي في غضون عهد الإمبرالية الكبرى،<sup>176</sup> وجعلت تدق على مخ كل رجل وامرأة في كل البلدان وفي جميع الطبقات حسبما توصلوا إلى هذه الأفكار والنظريات. فجعلت منهم شعبا غير شعب كانوا من قبل، وثقافة غير ثقافتهم التي يمارسونها، وحضارة غير التي يحيونها. فبرزت من كل هؤلاء بيئات غير بيئات من قبل وازدادت النشاطات الفكرية. تشكلت هذه النظريات في قوالب عديدة، مختلفة المرامي والمدى، فبرزت من احتكاك هذه الأفكار

<sup>171</sup> الحيدري، إبراهيم، النقد: ما بين الحداثة وبعد الحداثة، ص 59

<sup>172</sup> نفس المصدر، ص 61، 75، 78، 79

<sup>173</sup> Tibi, Bassam, Arab Nationalism: A critical Enquiry, P 9

<sup>174</sup> الحيدري، إبراهيم، النقد: ما بين الحداثة وبعد الحداثة، ص 60-63

<sup>175</sup> Tibi, Bassam, Arab Nationalism: A critical Enquiry, P 9

<sup>176</sup> نفس المصدر، ص 9

والنشاطات أفكار متماشية ومتضاربة تشكلت حولها أحزاب سياسية اتخذت طرقاً مختلفة إلى تحقيق الأحلام الجميلة في المستقبل.<sup>177</sup>

لم تتحرك هذه الأفكار بين الناس بدون كثير من السلبيات. فبعد أن بدأت الشعوب تثور لا يبدو أنها تستقر قراراً. وأصبحت الثورات متتابعة متناقضة في البحث عن المستقبل الجديد. و بدون التطرف الفكري لم يكن يمكن أن تتكن هذه الأفكار في الأذهان إلى حد يجعل الشعب يتأهب لتحقيقها حتى على ثمن الحياة،<sup>178</sup> فالتطرف الفكري كانت من السلبيات الجذرية في هذا الانقلاب الحديث والذي لا يبدو يهدأ إلا أن تمر كل الشعوب من جحيم التجارب المحرقة البديعة في نيران الأفكار المتطرفة.<sup>179</sup>

وكان للمتقنين في الشعوب أجمع دور رائدي في كل هذه الانقلابات والثورات. كانوا أول المستنيرين بنور الأفكار الجديدة، وأيضاً كانوا من الذين جعلوا من هذا النور الهادي نيراناً ملتهبا يلفح الشعوب والأقوام، ومنهم نجد المثقفين الذين لم ينحازوا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء بل اعتدلوا وتوسطوا في الأفكار. على عواتق هؤلاء النخبة من المثقفين أن يسبحوا بهذه الشعوب من بين الدورات ذات المخاطر إلى سواحل الاستقرار والمستقبل المتين وإلى نور ذي ضياء هادي غير لافح حتى يتنفس الإنسان سعداً طمانينة.

نجد الروائي الكبير ذات الحساسية البالغة والالتزام السياسي يرفع صوته ويثور بلقمه ويتدفق بأفكاره الليبرالية ومواقفه الاشتراكية والإنسانية البسيطة في روايته. الروائي هذا عاش شبابه الملتهب سياسياً وفكرياً قبيل ما قبل الثورة في غضون حرب فلسطين سنة 1948م ثم ثورة يوليو 1952م وما تلتها من الإيجابيات والسلبيات في

<sup>177</sup> Tibi, Bassam, Arab Nationalism: A critical Enquiry, P 27

<sup>178</sup> طاهر، بهاء، أبناء رفاعة، ص 52

<sup>179</sup> Tibi, Bassam, Arab Nationalism: A critical Enquiry, P 27



عصر الرئيس عبد الناصر من الإصلاح الزراعي، وتأميم قناة السويس 1956م، وما أعقبته من الحرب الوجيزة الخطيرة في تاريخ مصر، وما تحقق من خلالها من العدالة الاجتماعية وتأميم مصادر الانتاج وثروة الدولة. عاش أيضا تلك السلبات التي سلبت وقمعت كثيرا من الحريات الفردية والثقافية والسياسية، وأحس ما دار خلال هذه الانقلابات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ثم أحس بقلبه الشديد الحس تلك النكبة التي صدعت الروح والمجتمع المصري، كانت نكسة انتكست به الفكرة المتطورة تجاه القدام، نكسة كانت محورا جذريا قد غيرت كل أنحاء الحياة الفكرية والثقافية والسياسية، فتغيرت الأدب من الواقعية إلى الالتزام ومن الالتزام إلى الحساسية الجديدة ومن الحساسية إلى الرومانسية من جديد.

الروائي يصور كثيرا من الانقلابات السياسية والاجتماعية وأثارها المترامية الأطراف، وخصوصا كيف أن الانقلابات السياسية تؤثر على الحياة الشخصية والعائلية أو ما بالعكس. هو يعتقد أن "الإبداع الأدبي لا يتم في برج عاجي، ولا بناء على قرارات ذاتية ولكنه نتيجة لتفاعل وعي الكاتب من الواقع المحيط وتأثره بذلك الواقع".<sup>180</sup>

ولا يخفى من يمضي خلال سطور رواياته أن للمحيط أثر بالغ في أجمعها. وحاولت أن آتي في هذا الفصل من تحليل القضايا التي اهتم بها هذا الكاتب من القضايا السياسية.

أما القضية السياسية فتبني على تحديد السياسة. السياسة لا يمكن تحديدها حدا جامدا حيث أن استخدامها اتخذت معاني متنوعة ومفاهيم مبتكرة. العلماء يرون أن أصل الكلمة يرجع إلى أرسطو الذي استخدمه في "الأمور المدنية وإدارتها"، وأن السياسة قديمة قدم المجتمع الإنساني. المجتمعات من البدائية والمدنية والملوكية إلى

الديمقراطية واجهت الخلافات في المجتمع والتي احتاجت إلى الحل. فالنظام الذي أقيم تجاه هذا الغرض أطلق عليه إسم النظام السياسي.

نجد معناه متغيرا كل التغيير في العصر الحديث بعد تقدم المجتمعات وقوامها حول نظرية الكيان القومي والحكم القومي. فبعد أن كان النظام يتخذ قوته السياسية من الأمير أو الملك جعل يتخذها من الشعب عامة. ذلك بعد أن قدم الفلاسفة نظرية أحقية الفرد في الحكم، ونظرية العقد الاجتماعي وغير ذلك من النظريات الحديثة. على يد عمت استخدامه في ما يتعلق بطرق إقامة الحكم ومؤسساته من الدستور والبرلمان وغيرها، على يد أخرى عمت استخدامه في مفاهيم لا يمكن تحديدها، بأن الفرد في النظام الحديث أصبح مرجع السياسة فنطلق كلمة السياسة على كل ما يهم الفرد من الأمور من منظور النظريات الحديثة.<sup>181</sup>

ولكن المشكلة الكبيرة التي واجهتها خلال فكرة هذا التقديم من القضايا أن القضايا السياسية والاجتماعية كثيرا ما بدأت متداخلة، حيث أن الحدث السياسي لا يبدو منفردا من الحدث الاجتماعي أو الفردي أو بالعكس، فقررت أن الضلع الراجح أتبناه في تفريد القضايا السياسية من الاجتماعية.

والمشكلة الثانية التي واجهت هو عدد القضايا التي يمكن أن نعالجها. فإن الرواية ليست فكرة واحدة، وإنما هي تصوير المجتمع بأسره، تشمل جميع النواحي السياسية والاجتماعية، ولا يمكن لأحد أن يعالج كلا من هذه القضايا بالاستيعاب. ففردت القضايا البارزة أو الأكثر بارزة من حيث تعود الذكر عودا أو التكثر في تصوير مشاهدته، أو ما بدت كقضايا أكثر التصاقا وتأثرا وتأثيرا بالمجتمع الحديث.

<sup>181</sup> Poitics: Hooper, Charles, R.MSW. Salem Press Encyclopedia, Jan 2016

والأمر الثالث هنا أن هذا البحث بحث تحليلي للقضايا المنثورة عبر الروايات فاحتجنا إلى تعيين المنظور النظري الذي يحمله الروائي كي يتسهل لي التحليل من ذلك المنظور. فالمنظور البارز في رواياته هو منظور الليبرالية في المجال السياسي بمعنى نوعية الحكم ومظاهره. وإذا كانت الليبرالية من محاور البحث فاسمح لي بإسهاب يسير في الكلام حول الليبرالية وتطورها تاريخياً وفكراً.

### الليبرالية

برزت بذرتها الأولى في التاريخ الحديث في القرن السادس عشر مع حركة الإصلاح البروتستانية في الديانة المسيحية. فقد ثار قواد الحركة ضد هيمنة رجال الدين وسلطتهم وخاصة فيما يتعلق بتشريح الكتب الدينية، وجعلوا للفرد أحقية في تفهم وتشريح الكتب بدون وساطة رجال الدين. ثم تطورت نظرية الأحقية الفردية إلى أن أصبح الفرد مصدراً لجميع المواقف الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وحل العقل محل الكتب الدينية ورجال الدين في الأولوية المرجعية.

وبرز فيما بعد عديد من المفكرين الذين انتسبت إليهم الليبرالية وخاصة الليبرالية الكلاسيكية، من بينهم جون لوك (John Locke)، آدم اسمث (Adam Smith)، توماس باين (Thomas Paine)، فريدريك هايك (Freidrich Hayek)، روبرت نوزك (Robert Nozic)، وملتون فرائدمين (Milton Friedman). كان موقفهم يقوم إزاء التوجهات التي تمنح أكبر قوة في أيدي السلطة، حتى أن جون لوك دعى إلى أن السلطة تحتاج إلى تقديم مبرر لسلطة ما على فرد مدني.

ثم نجد نخبة أخرى من الليبراليين الحديثين من بينهم جون استوارت ميل (John Stuart Mill)، وكانط (Kant)، وهوبص (Hobhouse)، وغرين (Green) والذين جعلوا الحرية مركز الأمور، وخاصة الحرية

الفردية في المجال الاقتصادي.<sup>182</sup> ففي ظن كانط، الفرد حر إزاء التقييدات الخارجية أية كانت، ويعتقد استوارت ميل أن الفرد حر كل الحرية وإن كان الدافع للفرد لاعقلاني ومشاعري. يمكن لنا القول أن الليبرالية الكلاسيكية والحديثة تستويان في موقفهما ضد السلطة المطلقة، والارتباب بالسلطة السياسية، وفي الحرية الفردية المطلقة كل الإطلاق.<sup>183</sup>

وأما الليبرالية المعاصرة فقد غيرت لونها وتحول المحور فيها من الفردية إلى المجتمعية حيث يمكن القول هنا بأن الليبرالية جاءت تحت ضغط الأفكار اليسارية. وأبرز الأسماء من بين المفكرين المنتمين إلى هذا النوع من الليبرالية اسم جون راولس (John Rawls)، فقد اعتبر أن الفرد وسيلة للوصول إلى صالح المجتمع. على تعبيره، يجب على الحكم الليبرالي علاوة على منح المواطن المساواة في أمور الحقوق الفردية من حرية التعبير والدين والتنظيم، أن يضمن لكل فرد عيشة كريمة. هنا تدخلت لزوم تحقق الحرية على كل فرد من أفراد المجتمع، وهكذا تطرقت إلى الليبرالية مبدأ حكم التساوي الاقتصادي.<sup>184</sup>

فإن كانت الليبرالية في مراحلها الأولى تتسم بالحرية والحكم المحدود، فالليبرالية المعاصرة تشتمل الآن على القيم الليبرالية متعددة الأنواع من الحريات والحقوق والمساواة والعدالة التوزيعية والتكثيرية من أوجه الثقافة والحضارة والديانة.<sup>185</sup>

---

Bhargava, Rajiv and Acharya, Ashok, Political Theory An Introduction, p 239<sup>182</sup>

Ibid, p 240<sup>183</sup>

Ibid<sup>184</sup>

Ibid, p 241<sup>185</sup>

وعلى توضيح إنسائكلوبيديا للفلسفة<sup>186</sup> كلا النوعين من الليبرالية الفردية والليبرالية الجماعية تطورتا في الليبرالية الإنجليزية أيضا. حيث أن الليبرالية الإنجليزية دخلت في عصر التناقض عندما جاء المفكرون من أمثال ماثيو آرنولد (Mathew Arnold)، وبي. إتش. غرين (T.H. Green)، بتحديد الليبرالية بالنزعة اليسارية.<sup>187</sup>

وكذلك الليبرالية الفرنسية يمكن تقسيمها إلى نوعين. فهناك كانت ليبرالية تؤيدها جون لوك (John Locke) ومونتيسق (Montesquieu) وبينجامين كونستانت (Benjamin Constant) مع موافقهم من الحكم المحدود، والفردية، والاقتصاد الليبرالي، كما يقول فاغيت (Emile Faguet) أن الليبرالية تقوم لصيانة مطلقة للفرد من السلطة في المجالين الشخصي والاقتصادي.<sup>188</sup>

والليبرالية اليسارية في فرنسا كانت تقوم للحرية من خلال استخدام السلطة التي أقامها الشعب، كما يقول غراندفليرس (Grandvilliers) أن المفهوم الحقيقي للليبرالية لا يمكن أن يتحقق بدون تدخل السلطة للحصول على حرية الشعب بأجمعها. فهو مؤمن بالحرية التي يؤيدها روسو الذي يعتقد أن السلطة كلما استمدت من الشعب، فتعزيز السلطة يفضي إلى تعزيز الحرية للمواطن.<sup>189</sup>

والليبرالية الألمانية يمكن تقسيمها إلى الليبرالية المماثلة لما يقوم لها جون لوك والليبرالية القومية. وكان من أبرز المفكرين الألمانين للنوع الأول من الليبرالية جوهانس ألثوسيوس (Johannes Althusius) فهو يبرهن على

---

Brochert, Donald M., Encyclopedia of Philosophy, Vol. 5, 2nd Edition, Thomson Gale, USA, 2006<sup>186</sup>

Ibid, p 319<sup>187</sup>

Ibid, p 320<sup>188</sup>

Ibid<sup>189</sup>

أن مسئولية السلطة ليست تنفيذ ما هو الخير بل صدّ ما هو الشر، ومنها إلى أن الحكم يلزم عليه أن لا يتجاوز حتى خطوة على صيانة المواطنين وتوفيرهم السلام من الأعداء الخارجيين.

وفي القرن التاسع عشر تطورت هنا ليبرالية جديدة وضعت الدولة في المركز واستهدفت إلى تحقيق دولة كبرى. فإزاء ما قام الليبراليون الفرنسيون من إعلان قرار حقوق الفرد في 1789م قام الليبراليون الألمان بإفصاح عن قرار حقوق الشعب الألماني كافة سنة 1848م. وكانت فكرتهم تدور حول حقوق الشعب لا حقوق الفرد.<sup>190</sup>

في الولايات المتحدة الأمريكية لم تيسر لكلمة "الليبرال" ذلك التقدير الذي تمتعت به في المملكة المتحدة (بريطانيا).<sup>191</sup> فكما كان الوضع في فرنسا من أن الليبرالية كانت يستخدمها الكتاب للتعبير عن أي رأي يساري، في أمريكا أيضا عم استخدامها ككناية للاشتراكية بعد الركود الاقتصادي العظمى، وأصبحت الكلمة في فكرة عامة الشعب، أكثر التصاقا مع مفاهيم الأيدولوجيات اليسارية إزاء الحرية الاقتصادية.

ويبرهن فارنغتون (Parrington) على أن الليبرالية الأمريكية كانت معنية بالديمقراطية بطريق لا يوجد نظيره في أفكار جون لوك ولا في أتباعه الإنجليز. وأيضا يرى أن حتى قبل بروز الليبرالية اليسارية في القرن العشرين كان يوجد هناك نوعان من الليبرالية. كانت الأولى منهما أقرب من نظرية الاقتصاد الحر وتأسست على ضمان الحق المطلق للنزعة الاكتسابية مع نظام اجتماعي يستجيب للمقتضيات الشخص الاقتصادي وتعمل السلطة في هذا الإطار لصالح التجارة. وثانيهما كانت تعتقد في الديمقراطية ذات المساواة، تعمل السلطة فيها للمصالح العامة.

---

Ibid,p 321<sup>190</sup>

Ibid<sup>191</sup>

والنزعة السائدة في المشاعر والثقافة الأمريكية هو مزيج من الليبرالية اللوكية من التحرر من السلطة ومما يعتقد فيه روسو من الديمقراطية والمساواة.

يمكن لأحد تصنيف فلاسفة الحرية بين الذين يعتقدون في أن الحرية تعني للفرد أن يفعل ما يشاء، والذين يعتقدون في أن الحرية تعني ما ينبغي للفرد أن يفعل، كما يمكن له تصنيفهم إلى الذين يعتقدون أن الحرية تتعلق بالفرد والذين يعتقدون أن الحرية تتعلق بالمجتمع من كون الحرية وسيلة لتحسين أوضاع المجتمع.

ويناسب التوضيح هنا أن هناك نخبة من المفكرين العظام الذين يتيهون حيران بين هذين النوعين من الليبرالية، على سبيل المثال جون إستوارت ميل.<sup>192</sup>

ونهايا ليست الليبرالية فريدة السمات، بل من محاسنها أنها تتخذ سماتها حتى من الأفكار والنظريات التي على صراع منها. كما يقول جون غراي (John Gray) أن الشيء العام في جميع ألوان الليبرالية هو تصور إنسان حدائي ومجتمع حدائي، وأنها فردية إذا وقفت إزاء الجمعية الاجتماعية، وذات مساواة على المستوى الاجتماعي من أنها تمنح لكل فرد من أفراد المجتمع نفس الوضع المماثل، وشاملة لكل فرد إنسي بما تقوم لكون الإنسان أمة واحدة.<sup>193</sup>

ويبدو لي أن موقف بهاء طاهر من الليبرالية أقرب إلى الليبرالية المعاصرة أو الليبرالية اليسارية، كما يتضح لدى قارئ في أعماله أو يمكن القول أنه أيضا مبهور عنها بحت جون استوارت ميل وأمثاله. وانتهى الكلام عن الليبرالية.

Ibid, p 322<sup>192</sup>

41 Bhargava, Rajiv and Acharya, Ashok, Political Theory An Introduction, p 2<sup>193</sup>

ففردت من بين القضايا السياسية، القضايا الليبرالية ومن بينها قضية الحرية الثقافية- الصحافة والإعلام، والحرية السياسية، وازدواجية الروح والعقل، وقضايا الهوية الحديثة من قضية العروبة وتتضمن هذه قضية فلسطين وما جاء ذكره خلال الروايات، وقضية اللاجئين والحياة في المنفى وقضية السياسة العالمية حولها، و قضية العنصرية، وقضية كون الفلسفات والنظريات الحديثة وسائل الهيمنة والقوة.

ومرة أخرى كل هذه القضايا تبدو متشابكة حيث أن القضايا سلسلة دائرية ولكن نحاول أن نعالج قضية من ناحية خاصة ثم تلك القضية نفسها من ناحية أخرى. ثم أن الأحداث المصورة في الروايات تمتد عبر العقود من الخمسينات من القرن الماضي إلى العقد الأول من القرن الحاضر، فنحاول أن تأتي بالمغزى الفكري للحدث، ونأتي بإشارة وجيزة إلى الحقبة التي يتعلق بها. قد دونت في الفصل الأول الحقبات التي قضى الروائي حياته في غضونهما.



## الفصل الأول: القضايا الليبرالية: الحرية الثقافية والسياسية، الاضطهاد والازدواجية

### حرية الثقافة - الصحافة والإعلام

الحرية الثقافية تضم حرية التعبير والتفكير واتخاذ المواقف من الأفكار والنظريات والقيام بها حتى على اختلافها مع الفكر الشائع الراجح. يرى الراوي أن الحرية جذرية لتقدم أي شعب أو قوم في العصر الحديث. لأن الأفكار لا تتطور إلا إذا أوتيت المجال الذي تجول فيه في أي ناحية تشاء، فيقول بهاء طاهر من قول عبد الله النديم أحد رواد النهضة المصرية الحديثة "أن سبب تقدم الأوربيين هو إطلاق الحرية في نشر أفكارهم بين الأمم لإحياء أفكار العامة باحتكاكها بأفكار العقلاء، وبهذه الوساطة ربي الكتاب أبناء الأمم وهذبوهم ونقلوهم من حضيض الجهل والخمول إلى ذروة العلم والظهور، أما الشرق فقد أخطأ الطريق فخاف ملوكه من الكتاب والعقلاء فضغطوا على أفكارهم حتى أماتوها في أذهانهم ولو أطلقوا الحرية لأحيوا الأمم التائهة في القفار"<sup>194</sup> وأيضا ينقل قول طه حسين: "فهناك ما هو أعظم خطرا من المال وهو الحرية، فالأدباء عندنا ليسوا أحرارا لا بالقياس إلى الدولة ولا بالقياس إلى القراء، وقد يكون لحرية الرأي شرها ولكن بها خيرها دائما"، ثم يتبعه بقوله "أن القوانين حين يتشدد في مصادرة حرية الرأي لا تحمي الفضيلة وإنما تحمي الرذيلة وتخلي بينها وبين النفوس لأنها تظل محجوبة غير معلنة".<sup>195</sup>

ويقول بهاء طاهر: وازداد الأمر سوءا خلال فترة حكم السادات الذي جعل من معاداة الثقافة الحقيقية سياسة ثابتة له. فقد كان يكن الضغينة للمثقفين ويرميهم بأوصاف من أمثال "مجموعة من الأفندية الحاقدين" وبأنهم

<sup>194</sup> طاهر، بهاء، أبناء رفاة، ص 45

<sup>195</sup> نفس المصدر، ص 58

"شيوعيون وملحدون".<sup>196</sup> بدأ حكمه بأن أغلق كل المجالات الثقافية والمسرحيات الجادة... قام بفصلهم جميعاً من وظائفهم في الدور الصحفية... لقد أعاد الكتاب المفصولين قبل حرب أكتوبر... رجع إلى سياسته الأولى من التنكيل بالمتقنين وطردهم من الكتاب وإغلاق الصحف والمجلات... كان ذلك عصر الخروج الكبير للمتقنين في منافي الشتات خارج الوطن.<sup>197</sup>

كما ذكرنا من قبل أن الروائي كان تم إبعاده من وظيفته في مصر في عهد السادات، ف قضى أيامه في المنفى في جنيف. نجد الحزن البالغ على اضطهاد المثقف وحرية الصحافة في "الحب في المنفى" - الرواية التي ألفها بعد عهد السادات ولكنها تركز على الأحداث التي وقعت في عهد الرئيس السادات. البطل في هذه الرواية تم إبعاده من المقر الرئيسي للصحيفة التي كان يعمل فيها في مصر إلى سويسرا. "أظن أن إبعادي كان مقرراً من أول يوم في انقلاب السادات، غير أنهم فوجئوا بأن إسمي لم يكن في قائمة التنظيم السري للاتحاد الاشتراكي ولا في أية قوائم أخرى، وكنت يومها عضواً منتخبا في النيابة فتحملوني على مضض، رقوني إلى مستشار التحرير لكي لأفعل شيئاً ولكني ظللت رازحاً في مكاني ولما فتحوا مكتباً للصحيفة هنا كان ذلك يناسبني أيضاً".<sup>198</sup> هناك هو يعمل كمراسل صحفي دون أهمية ما. كان يرسل المقال والأخبار للصحيفة ولكن الصحيفة لا يمكن أن تنشرها كما هو بل هناك يكون التغيير حتى يكون ملائماً بما تقتضيه السلطة، كما يقول: "كنت أعرف سلفاً أن كلاماً سيقال لو أرسلته لم تنتشره الصحيفة في القاهرة" أو تغيره بحيث لا يفهم ما حدث حقيقياً. "ربما يأتي أحد الوزراء ويقول تصريحات تسعد رئيس التحرير، يضعها في الصفحة الأولى ويرضى عني أخيراً، الوزير يصرخ:

<sup>196</sup> نفس المصدر،

<sup>197</sup> طاهر، بهاء، أبناء رفاة، ص 45-47

<sup>198</sup> الحب في المنفى، ص: 40

اقتصادنا خرج من عنق الزجاجة، الوزير يقول: سنبعث التعاون الأوربي في انطلاق التنمية... يرتاح رئيس التحرير جدا إلى انطلاقة التنمية هذه، تظهر كل أسبوع في مقالاته، منذ سنوات طويلة جدا والانطلاقة تقفز عنده من عنق الزجاجة بلا انقطاع".<sup>199</sup> يأتي ذكر ما حدث بعد السادات من الاضطهاد السياسي والإعلامي حتى بدأ الصحفيين يتغير لوهم وصعد نجمهم<sup>200</sup>. وكذلك الصحيفة لا تأتي إلا بالأخبار التي لا تجلب عداوة السلطات، يتفكر البطل في "الحب في المنفى" وهو يرسل خبرا إلى صحيفته في مصر أن الصحيفة "لا تنشر هذا الخبر" "والله يا فلان الرسالة وصلت متأخرة أو طبعناها فعلا ولكن أخبار من الرئاسة جاءت في آخر لحظة وأكلت الصحيفة".<sup>201</sup>

وحتى طلاب الجامعات لم يكن لهم الحرية لنشر المقالات في جرائد الحائط في عهد السادات. "كنت أكتب.. أيام جمال عبد الناصر.. جاءت بعد ذلك جماعات أصحاب الجلايب التي أطلقتها علينا الحكومة فكانوا يمزقون صحفنا.. يضربوننا بقبضات حديدية... حرس الجامعة كان يحرسهم وحدهم".<sup>202</sup>

يقضى البطل هنا سنوات عديدة يحدث خلالها أحداثا من الثورة اليمينية في شبلي سنة 1973م، ثم حدث لبنان عام 1982م. الأحداث تتمركز حول هذين الحدثين، يرفع البطل بالجدي قضية اضطهاد الحرية- حرية التعبير لا في مصر فحسب بل في كل دولة أوتوقراطية بل وحتى في أوروبا. كان الحكم الجديد في شبلي ترتكب جرائم إنسانية فاضحة وكان لا بد أن ينشر عنها في العالم كله حتى يمكن الضغط على الحكم. ولكن الصحف

<sup>199</sup> نفس المصدر، ص 7

<sup>200</sup> نفس المصدر، ص 39

<sup>201</sup> نفس المصدر، ص 8

<sup>202</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 194

لم تكن لتنتشر هذه الأخبار، فالمهمات من الأمور أصبحت تافهة، وأتفه الأمور حلت محلها، يقول الروائي على لسان البطل "حاولت أن أدس بين هذه الأخبار شيئا عن بيدرو في الرسالة مع أني لم أعرف فائدة ذلك، وأخيرا كتبت ما حدث في المؤتمر الصحفي كما هو، وقلت ربما يعانون من أزمة فراغ في الصحيفة كما يحدث أحيانا فينشرون هذا الموضوع، وكنت واثقا أيضا من أني أكذب على نفسي".<sup>203</sup> ويرى البطل أن الصحف لا تؤدي من مسؤوليتها المعنية بها وأصبحت تنشر الأشياء التافهة وأصبحت بغية التنفيس والترويح فيقول البطل "المثل الأعلى بالطبع هو أن يكون الخبر عن الرجل الذي يعض كلبا لا العكس"<sup>204</sup> معكسا إلى الحالة البذئية التي انحطت إليها الصحف. "سيكون بيدرو إيبا نيز محظوظا لو نشرت أي صحيفة في العالم حكايته في خمسة أسطر أم صحيفتنا بالذات كما تعلم فإن أهم أخبار العالم فيها لم تعد تتجاوز خمسة أسطر، نحن تطورنا".<sup>205</sup>

---

<sup>203</sup> نفس المصدر، ص 115

<sup>204</sup> نفس المصدر، ص 115

<sup>205</sup> نفس المصدر، ص 24

## الدعوة إلى الحركة المدنية

لا يبدي الروائي انخيازه إلى أي من الاتجاهات السياسية بأكملها في تسيير الحركة السياسية والاجتماعية في المجتمع، لا يبدي انتماءه إلى المشروع الليبرالي أو الاشتراكي أو الشيوعي أو الإسلامي بالاختصاص ولكنه يشيد بمشروع الطهطاوي والذي يظن أنه المشروع الوحيد الذي لقي بالنجاح على مسير التاريخ المصري الحديث، وهو المشروع الذي يشمل الحرية والمساواة وحرية المرأة والحكم الديمقراطي<sup>206</sup>، ولكنه لا يتفق مع المشروع الليبرالي الذي يقع على أساس هذه الأفكار والنظريات.

بناء على هذه البنائات الفكرية الحديثة هو يدعو إلى الحركة المدنية – الحركة التي لا بد منها للحصول على كرامة الفرد المصري ثم الشعب المصري بأكمله والتي لا يمكن الحصول عليها بدون الحركة المدنية حيث أصبح الفرد المصري أساساً للشعبية المصرية ولثقافة والسياسة المصرية الحديثة.

ومن بين أفراد الشعب المصري هو يبدو يعلق آماله بجدية بالغة على الشبان وخاصة الشبان المثقفين وهم الطلبة، 'لأنني (الروائي) كل ثقة أن الشباب يستطيع لعب دور كبير ليس في الأدب والثقافة بل في كل المجالات'.<sup>207</sup> فإن طلبة المدارس والجامعات ينظر إليهم كجماعة لا بد من قيادتهم على النشاطات السياسية خاصة. وليس النشاط فحسب بل لا بد من التزام أن همهم الأول يكون الوطن والوطنية الناجحة وأن يحولوا طاقاتهم من الحب والغرام الشخصي إلى القيام بالمسؤوليات الوطنية ومن بكاء الهموم وتهللكة النفس فيها إلى الهم الأكبر وهو إصلاح الوطن. ولعل السبب لهذا الأمل البالغ في الطلبة هو أن الأكابر نفسيتهم تتغير مع الصعود في العمر، ويؤخذون

<sup>206</sup> طاهر، بهاء، أبناء رفاة، ص 35، 44، 49

<sup>207</sup> البوابة نيوز، 2016/03/18، <http://www.albawabhnews.com/10454>، البوابة نيوز المركز العربي للدراسات السياسية،-

57ش.مصدق، الدقي، الجيزة، الجيزة، مصر.

في شبكة المسؤوليات العائلية والمنافع الذاتية حتى يصعب عليهم تصويت آرائهم عن خصوص القرارات الوطنية والسياسات الخارجية إلا على ثمن تهلكة العائلة والمنافع. وكما يتبين من تصوير الكبار في الروايات أنهم نهايا لا يتعرضون أنفسهم للخطر ويتصلحون لمصالحهم الذاتية. فهناك خطر كبير من خلو الساحة السياسية من الحركة المدنية الشعبية. ولا يمكن من المثقفين الصحفيين والكتاب التعويض عن الحركة الشعبية. يمكن منهم إلقاء فكرة في الساحة السياسية، ولكن تجسيد الفكرة فيتبنى على الشعب. ولكبار من الشعب كفى ما لديهم من أحزانهم يغرقون أنفسهم فيها. فالمسؤولية الشعبية نهايا يتعلق على أكتاف الطلبة.

ويمكن أن يكون هذا هو السبب المهم الذي لا يبدو أيا من رواياته فارغة من تصوير مشاهد مظاهرات الطلبة ومن حركاتهم السياسي في حرم الجامعة و خارجها، في رواية "قالت ضحى" يصور مشهدا لمظاهرات الطلبة ضد الإنجليز وضد الملك حول الإسماعيلية وشارك فيها عدد كبير منهم. منهم من أصيب برصاص الشرطة، وصدیق البطل كان ممن جرح بالرصاص، وهذا مشهد تاريخي حقيقي جاء به الروائي. لعل الروائي كان واحدا من المشاركين فيها، فالمظاهرات مثلها تبدو قد أثرت غائرة في خياله ووجدانه وأحس بقوة الحركة المدنية مثلها.

ويرى أن الالتزام الفكري والعمل به من ميزات الشبان. فعندما يتنحى البطل وصديقه حاتم ويرى أن سيد القناوي لا يتخلف من حماسته السياسية يذكر لصديقه حاتم أنه مرض العدل قليل منهم يصيبهم هذا المرض. يرى العلاقة بين الالتزام لفكرة والعمل به وبهذا يدعوا إلى الالتزام العملي. ونرى أن البطل بعد العمهان في الهموم والأحزان يبرأ منها نهايا. يساعد البطل سيد القناوي في حماساته السياسية ويشيد بخطواته بل يراه المثل الأعلى حيث أنه أخطر حياته لفكرته وانحيازه للمبادئ التي يقدم لها إحدى رجليه ثمنا في حرب اليمن، يحاول الروائي بالإيجاء إلى أن النفسية التي هو يمر منها أو صديقه حاتم نفسية زائفة بل لا بد من الإفاقة منها - وعلى هذا المنهج هو يؤيد

الحركة المدنية الممثلة في مظاهرات الطلبة، وفي محاولات سيد القناوي ضد الفساد في النيابة في رواية "قالت ضحى".

وفي رواية "الحب في المنفى" البطل وصديقه إبراهيم، ويوسف كان لكل منهم حياة مدرسية وجامعية شاركوا خلالها في المظاهرات وقاموا بالنشاطات السياسية خلال تلك السنوات. يرجع البطل لذكراه عن حياته الجامعية. كان هو يشارك في المظاهرات ضد حكم السادات. يصور ما كانوا يواجهون من العنف من قبل السلطة حتى كان الطلبة يسجنون من أجلها وخاصة اشتد الأمر في عهد السادات الذي حاول قمع اليساريين والليبراليين وأعداء بولسية الانفتاح في عهده.

وفي رواية "شرق النخيل" تتمركز الحكاية حول مظاهرات الطلبة من خلال سمير صديق البطل وأصدقائه سوزية وليلي، يصور الروائي أن مشاركة الطلبة في المظاهرات كان مما يعتز به الطلبة، والذين لا يكونوا يشاركون يقال عنهم أنهم جنباء. ومن خلال تصوير هذه المظاهرات هو يركز القوة على قضية العروبة - خاصة الفلسطينيين - ثم قضية الوطنية. نتعرف من خلال سمير أنه تحمس بالكتابة والمشاركة في المظاهرات في قضايا الثورة العربية، ومشروع العروبة لجمال عبد الناصر وقضايا الفساد في السلطة، يصور الروائي أنه لا بد من التوقد والتنور من الحقائق الواقعية فيمكن أن تتغير الآراء التي لا علاقة لها بالحقبة، كما يظهر من ذكر عصام الفلسطيني الذي كان له نم شديد في القراءة والذي استشهد أمجاده من الآباء والأجداد لأرض فلسطين، يذهب إلى وطنه ويستشهد على أيدي العساكر الصهاينة. يتلقف سمير هذا الخبر من خلال الصحيفة والذي ينزعجه انزعاجا شديدا من أن زميله في الغرفة عصام يستشهد لوطنه العربي فلسطين وسمير لا تم له إلا النساء والترف. هذا الحدث يصبح نقطة تحول في حياته، ينهمك شديدا في قراءات عن القضايا الفلسطينية والعروبة ثم يتحمس في

الكتابة والمظاهرة ولولم يكن انخيازه إلى أي من المبادئ الاشتراكية أو الشيوعية أو غير ذلك إلا أن همه أصبح هم العروبة والوطنية وفلسطين. ويجدر بالذكر ههنا أن هذا الروائي الكبير يأخذ باعتناء بالغ قضية عدم الانخياز إلى أي فكرة أيديولوجية حديثة. ولعله يحاول الإيجاء أن هم الوطنية والعروبة لا يحتاج إلى فكرة أو أيديولوجية أو أن لكل من الأيديولوجيات لا بد من اتحادها في قضايا الوطنية والعروبة، فنرى أن البطل وسمير وليمي وسوزي لم يكن لكل منهم أي انخياز فكري أو سياسي ولكن يأخذهم هم الوطنية والعروبة نهائيا.

والروائي ناصري حيث أنه محامي شديد لمشروع العروبة الناصري وكذلك لمشروعه للعدالة الاجتماعية. ومن خلال رواياته "شرق النخيل" و "قالت ضحى" و "الحب في المنفى" يخاطب أن الشعب المصري عليه أن يتحد خلف قضية الوطنية والعروبة أيما فكرة ينتمون إليها وأن الطلبة أن يفهموا الحقائق، يتنوروا بالآراء السديدة ويقودوا المظاهرات ويخرجوا من همهم الحبي والغرامي إلى ما هو أجدر بالحب والغرام والمحنة وهي الوطنية والعروبة.

في رواية "الحب في المنفى" إبراهيم صديق البطل ماركسي ولكنه يؤيد مشروع العروبة حتى يهب لها حياته خلال حرب إسرائيل على لبنان سنة 1982م. وكذلك لا تخلو رواية "نقطة النور" من ذكرى مظاهرات الطلبة الجامعية وتصويرها عبر الأجيال مثل لبني التي تتحمس للمظاهرات وكثير من زملاءها كانوا نشاطين في السياسة الجامعية حتى أن لبني في رواية "نقطة النور" أيضا تؤخذ إلى السجن بعد اعتقال خلال مظاهرة في الجامعة، كما أن هنا تصوير عن تحمس أبي لبني الدكتور عظيم في النشاطات مثلها. ولكن الدكتور يرى أن مآل النشاطات ليست حسنة وسوف يقضى على حياة لبني الارستقراطية في حقبة تمر مصر من الأزمة الاقتصادية.



## حرية التفكير والاضطهاد السياسي

أسوأ ما انتقده الروائي على ضياع حرية التفكير واضطهاد الناس الذين لهم أفكار أو آراء ضد السلطة والحكم. فهو ينتقد فقدان حرية التفكير ليس في عهد السادات فحسب بل يرى أن الأوضاع لم تتغير بعد ثورة يوليو 1952م للديمقراطية وحرية الثقافات بل وصل إلى الوضع الأسوأ حتى في عهد الرئيس جمال عبد الناصر. في عهده كان الشيوعيون والاشتراكيون مضطهدين بالشدة حتى أنه كان قد حل كل الأحزاب السياسية لسنوات. وهذا ما يرى إليه الروائي بالنكران الشديد، ويرى إليه كسلبات سود في عهد جمال عبد الناصر. نرى إبراهيم وهو شيوعي النزعة مضطهدا في عهد الناصر "كنت سعيدا بالفعل لرؤيته (إبراهيم) رغم أننا لم نكن صديقين حميمين في أي وقت، عندما تزامننا أول مرة كمحررين في صحيفة الأخبار الخارجية أيام الشباب، كان هو ماركسيا متحمسا يقول إنني مثالي وحالم، كان رأيي فيه أنه متحجر ويعيد عن روح الناس، أيامها كنت أقرأ ساطع الحصري والقوميين العرب وأعتقد مع عبد الناصر أن دولتنا الكبيرة ستقوم غدا، وعلقت فوق رأسي بالفعل في صالة التحرير الكبيرة التي تضمننا تلك العبارة من خطابه الشهير يوم الوحدة مع سوريا (دولة عظمى تحمى ولا تهدد تصون ولا تبدد) كتبها لي خطاطا لصحيفة بخط كوفي جميل ووضعتها تحت خريطة الوطن الكبير، وكان إبراهيم يحرص على أن أرى ابتسامته وهو يتطلع إلى تلك اللوحة متظاهرا بالاستغراق في التأمل فأثور، ويبدأ الجدل والشجار بيننا. ولكنني حزنت بالطبع عندما قبضوا عليه بعد ذلك ضمن من اعتقلوا من الشوعيين في سنة 59 وكنتم أفتقده".<sup>208</sup> كان قبض سنة 1959م و حكم عليه بالسجن لسنين طوال، والذي دمر حياته نهائيا ولكن بقي ملتزما في حياته لأفكاره ' كان هو يعمل في العراق ثم سافر إلى سوريا، إلى أن استقر في بيروت

<sup>208</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 26

منذ سنوات لكي يعمل مع صحيفة تصدرها إحدى منظمات المقاومة هناك<sup>209</sup>. ومات وهو في لبنان خلال الهجمة الإسرائيلية على مخيمات صبرا وشاتيلا.

ثم لم ينس الروائي أن يصور أن الاضطهاد السياسي لم يكن إلا ابتلاء متفشيا عبر الدول والمناطق. فكان الشيوعيون لا يعملون إلا بالسر حتى في سويسرا كما يصور على لسان إبراهيم خلال سفره إلى سويسرا "أخيرا رأيت أوروبا الحقيقية! أخيرا عرفت أوروبا التي لم تعرفها أنت! تصور أنهم هنا أيضا يضطهدون الشيوعيين كما يضطهدونهم في بلدنا، تصور أن الشرطة تلاحقهم وتراقب تلفيوناهم وأنهم يضيقون عليهم في الوظائف والأعمال التي يجدونها بكل صعوبة، بل تصور أنه أحيانا لا يوافقون على إسكانهم في البيوت الرخيصة التي تبنيها الدولة لمجرد أنهم شيوعيون".<sup>210</sup> والاشتراكيون كانوا يعانون من الكبت التعذيب بعد ثورة الطبقة العليا سنة 1973م في شيلي، وكان بيدرو الذي نجت حياته وأخيه ألفريدو الذي قتل تحت التعذيب من ضحاياها. وكان النطاق ضيق إلى حد أنهم كانوا يعذبون لأدنى شبهة وريبة عن العلاقة بالاشتراكية والشيوعية. يقول بيدرو "وسألوني عن أسرتي، هل نحن اشتراكيون، هل نحن من حزب الليندي؟".<sup>211</sup> "جاؤا بأخي فريدي..... قالوا إنهم اكتشفوا أن فريدي اشتراكي وأنا كذاب، هل قلت إن أخي طالب في الجامعة".<sup>212</sup> استطاع بيدرو أن يهرب من المستشفى العسكري بعد بضعة أسابيع وساعده أصدقاؤه على الهرب إلى خارج شيلي بعد ذلك، أما شقيقه الطالب فريدي- أو الفريدي إيبانيز- مات تحت التعذيب".<sup>213</sup>

<sup>209</sup> الحب في المنفى، ص: 26

<sup>210</sup> نفس المصدر ص 117

<sup>211</sup> نفس المصدر ص 19

<sup>212</sup> نفس المصدر ص 20

<sup>213</sup> نفس المصدر ص 21

هو يرى أنه لا فرق هناك من يحكم حينما يتولى الحكم في قضية الإضطهاد، يتساوى فيه شيوعي أو ملكي، ديمقراطي أو أوتوقراطي كما يصور على لسان برنار " كنت صبيا صغيرا وقتها، ولكن الحرب الإسبانية هي التي أتت إلينا. كان أبي عاملا وعضوا في حزب العمال الثوري، وأقاموا في مدينتنا معسكرا للاجئين الأسبان من الحرب، فتطوع أبي مع من تطوعوا للعمل في هذا المعسكر، وكنت أذهب معه أحيانا. مازالت محفورة في ذهني تلك القصص التي سمعتها في المعسكر، فظائع القتل والتعذيب التي ارتكبتها الملكيون والجمهوريون على السواء.<sup>214</sup> من يتطرق إلى الحكم فيتخذ نفس الطريق - طريق الإضطهاد وكبت الأفكار والمفكرين الذي يختلفون. كما يقول في محادثة مع إبراهيم في رواية "الحب في المنفى" إن الشيوعيين الروسيين قتلوا أهالي بودا بيست بعد أن أضل القواد الجيش أنهم يقاتلون ضد الديمقراطيين وحماة الإنجليز في بورسعيد، "ولكن مولر قال .... لم أشهد غزو تشيكوسلوفاكيا يا سيدي، ولكني شهدت غزو المجر قبلها. كنت هناك بالمصادفة، وكنت أعمل طبيبا متطوعا قبل أن تبدأ الأحداث، رأيت الدبابات ورأيت القتلى، لم يكن جنود الروس المساكين يعرفون أنهم في بودا بيست، كذب عليهم قادتهم وقالوا لهم يحاربون الغزاة الإنجليز في بورسعيد في بلدكم".<sup>215</sup> وكذلك الديمقراطيون يقومون بكبت الشيوعيين والاشتراكيين وحتى الذين لا حياز لهم إلى أي فكرة. يكفي للجريمة أن أحدا خالف ما عليه السلطة من الموقف. "لا أقصد الآن هذا البكاء، أقصد البكاء على أي بيدرو أو على أي الفريد، أقصد بكائي كبكائي صبيا على (أم صابر) الشهيدة على جنود البوليس الذين قتلهم الإنجليز في

<sup>214</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، 247

<sup>215</sup> نفس المصدر ص 65

الإسماعيلية ..... كل البكاء على جميلة بو حريد حين عذبها الفرنسيون في الجزائر، كدموعي على لومبيا يوم

قتلوه في الكونغو ودموع الناس في الشارع يومها".<sup>216</sup>

## بين الاضطهاد السياسي والتطرف الفكري

ولكن الروائي يتخذ من هذه المواقف موقفا وسيطا فيرى أن الاضطهاد السياسي والفكري وكذلك الاعتقاد المتطرف في المبادئ والأساس ليس إلا وجهتين من نفس الحقيقة. هو يدعو إلى التسامح الفكري في كل الأحوال. من جهة يدعو الروائي من خلال رواياته إلى أنه يلزم أن تكون هنا حرية التفكير والتعبير ومن جهة أخرى يدعو إلى أن يحتز أحد من الغلو والتطرف حاكما أو محكوما. ويرى أن التفوه بالأفضلية والاعتقاد المتطرف فيها والنخوة الفكرية من الأسباب المؤدية إلى الحروب والقتال والفساد في المجتمع فيقول البطل في "الحب في المنفى" في المكاملة النفسية ظانا أنه يتكلم مع ابنه خالد "إحذر، لأن كل الشرور التي عرفتها في الدنيا خرجت من هذا الكهف المعتم. تبدأ فكرة وتنتهي شرا: أنا على حق ورأيي هو الأفضل. أنا الأفضل إذن فالآخرون على ضلال. أنا الأفضل لأني شعب الله المختار (لعله يريد الإشارة إلى ما يعتقد الصهيانية من نخوتهم بأفضليتهم كونهم المختارين عند الله في ظنهم) والآخرون أغيار. الأفضل لأني من أبناء الرب المغفورة خطاياهم والآخرون هراطقة. الأفضل لأني سني والآخرون شيعة. الأفضل لأني أبيض والآخرون ملونون أو لأني تقدمي والآخرون رجعيون. أنظر يا خالد إلى ما يدور في الدنيا الآن. أنظر إلى تلك المجزرة في لبنان وشعب الله المختار يستأصل شعبا غير مختار..... كل ذلك القتل لأن القاتل دائما هو الأفضل، هو الأرقى، وعجلة المجازر تدور طوال الوقت لتستأصل الآخرين الأغيار، أعداء الرب، أعداء العقيدة الصحيحة، أعداء الجنس الأبيض، أعداء التقدم..... يبدأ بأنت مخطيء وينتهي بأنت تستحق القتل".<sup>217</sup>

<sup>217</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 231

## الغلو الفكري والحياة الذاتية والازدواجية

ويرى الروائي أن التطرف الفكري والغلو في المبادئ والأراء لا تجلب الحرب الكبيرة والدماء الزكية فحسب، بل ويدمر حتى العلاقات الشخصية، والحياة الزوجية والعلاقات الاجتماعية، ويجعلك في محيط لا نهاية له. يصور الروائي في روايته "الحب في المنفى" خلال شخصياته البطل، ثم إبراهيم صديقه، زوجة البطل منار، و شادية عشيقته إبراهيم أن يوتوبيا الفكري في المبادئ كيف دمر حياة كل منهم وكيف أثر ذلك على الالتزام السياسي لكل هؤلاء الغالين في المبادئ سلبيا، حتى بدأوا يدمرون أنفسهم ولم يراجعوا أفكارهم ومبادئهم ولم يأخذوا الأشياء على هدوء إلا بعد فوات الآوان.

يبحث البطل عن الخطأ الذي تسبب البعد بينه وبين زوجته وفي النهاية يعثر على أن الغلو في التشبث بالمبادئ على الجانبين كان ما أدى إلى الفراق والطلاق.

كان البطل ناصر، محاميا للثورة والعدالة الاجتماعية، دائما يتكلم عن حقوق المتخلفين من الطبقات في المجتمع ولكن بدأ التناقض يتولد في نفسه. فعلى جانب كان يتفوه بالحقوق عن المضطهدين اقتصاديا واجتماعيا ولكن لا يرى جريمة في أن يهيا لنفسه أسباب الترف والفرجة. فبرزت الفجوة والازدواجية بين المبادئ والحياة الحقيقية. لكن زوجته منار كانت تعالي في المبادئ تشبثا. كانت تنتمي إلى أسرة ميسورة رغبة وتعتقد وتشبث بالمبادئ الاشتراكية والعدالة الاجتماعية ولذا اختارت زوجها من الطبقة المتخلفة. ولما تجلى لها أن زوجها بدأ يزحف إلى الحياة الخواجية والمترفة ظنت أن ما قدمته من الإيثار من أجل مبادئها كانت كذبة وغلطة. تبدأ ترجع قهقهري لتعذب نفسها أو تعذبه هو، انتقدت منار مرة زوجها قائلة "ثم ما هذه الطريقة التي تتعامل بها مع الناس هنا،

أية طريقة؟ هذه التهذيب المبالغ فيه مع عمال الفندق والمطعم والمحلات ومع الناس عموماً، أنت عندك عقدة الخوافة، " 218.

وكذلك كانت تتشبث بفكرة حرية المرأة ومساواتها بالرجل وكانت متحمسة ونشيطة لحماية وترويج الفكرة. تذكر منار عن مشاهد الخطبة للبطل قبل الزواج "عليها أن تتزوج ويعرضونها على الخطاب كما لو كانت سلفة، لن تتزوج هي أبداً بهذه الطريقة، ستختار بنفسها، لماذا يكون الاختيار من حق الرجل وحده؟" 219. وكما يقول إبراهيم "كنت أقدر دائماً أنت ومنار رغم اختلافنا في الرأي، كانت تعجبني شجاعتهما في الدفاع عن المرأة." 220. ولكن النتيجة لم يكن إلا دماراً، دمار حياتها وحياتة البطل، تطلق البطل فينهزم البطل وتنهزم نفسها أيضاً. يختار البطل أن يبتعد من الوطن حتى يبتعد من ذكرياته المرة. ويقضى سنواته منطويا على نفسه باكية آلامه، مبتغياً سلواه في الحب والمرأة ولكن لا ينجو "لم أقل لإبراهيم أنني رحبت بذلك الإبعاد لكي أهرب من مصر كلها بعد الطلاق" 221، وكذلك منار زوجته تتغير عاداته بعد أن قضت سنواتها غنية عن المال والترف بدأت تجلب أسباب الترف والتنعيم من أسباب الزينة والخيول المسومة، وتتلوث في التجارة كي تجلب المال وتقدر على الحصول على هذه الأسباب، كما يقول البطل: "لماذا فسدت الأمور بيني وبين منار؟ أعني الحقيقة ولا أعني تلك التفاصيل التي تحدث آلاف المرات كل يوم بين الزوجين..." قالت متبرمة أظن أن كل صاحباتي سئمن من رأيي بهذا العقد، كل واحدة عندها أطقم من المجوهرات تناسب أزبائها وأن لا شيء عندي غير هذا العقد" 222. "ربما فبعد

218 الحب في المنفى، ص: 9

219 نفس المصدر ص 10

220 نفس المصدر ص 29

221 نفس المصدر ص 40

222 نفس المصدر ص: 48

ذلك بقليل بدأت منار مشاريعها الخاصة، بدأت تدخر لحسابها وبدأت تشتري الفضة من خان الخليلي ثم تعيد بيعها عند ما ترتفع الأسعار".<sup>223</sup>

"ولكن أسأل كيف وصلت إلى ذلك وهي التي لم تهتم عمرها كله بالمال ولا بالاقتناء.. أنت الذي قدمت لها المبرر على أية حال، لم تفعل سوى ما كان يفعله غيرها ولم تفعل أنت سوى ما كان يفعله غيرك. كنت أيضا أنت تشتري وتشتري لماذا؟ ومتى بدأت الكلمات تصبح مجرد كلمات؟ الثورة، والعروبة والاشتراكية والعدل؟ كلمات للمقالات والندوات ولكنها ليست للحياة! لم أفعل سوى ما كان يفعله غيري! أن نقنع الآخرين بكلماتنا، بالعدل والمساواة والثورة والتضحية..... ولكننا نعيش مع ذلك كله في درجة أرفع، في رفاهية أكثر لكي يواتينا إلهام! لم أر ولم ير غيري أي تناقض في ذلك كله، ولكن منار كانت ترقبني وفي عينها الإدانة حين ألتقي بأصحابي ونطلق الكلمات الرنانة..... كلمات وكلمات، وكلمات نقولها..... ماذا لو أننا بالفعل قد عشنا الثورة التي نتكلم عنها، لو أننا عدنا لقرانا أو لأحيائنا الفقيرة نعيش مع أهلنا دون خطب ودون شعارات، وماذا فعلنا ليلة زيارة القدس! اعتبرنا أننا أدينا كل ما علينا حين اجتمعنا في المقهى وتناقشنا وصرخنا وبكينا، طظ طظ! ما علاقة هذا بالثورة؟ وما فائدة تلك الأفكار الآن؟ وما علاقة هذا الآفندي الجالس على المقهى المطل على النهر والجبل الأوربي الأخضر بذلك الطفل الفقير الجائع الذي كان يمشي ساعتين كل يوم بحذاء ممزق يمشي في التراب وفي الطين وفي الحر وفي البرد لكي يذهب إلى المدرسة وهو يحلم طول الطريق بالجنة لأن فيها الكثير جدا من الأكل؟ ما معنى أن أستمري في هذه الحياة الكذبة".<sup>224</sup>

<sup>223</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 49

<sup>224</sup> نفس المصدر ص 51



تغيير منار مع مر السنين، ترجع من فكرتها من الحرية والمساواة المطلقة إلى الحرية والمساواة الشرعية الإسلامية، وبعد أن كانت لا تبرز إلا مرسله الشعر في الصحيفة بدأت تتخذ الحجاب على رأسها "نعم!.. بالطبع هي منار!.. نعم هي صحيفة المرأة كالعادة يتوسطها اسم منار! وهناك عنوان فرعي بخط صغير تحت العنوان الرئيسي (بين الشريعة والتاريخ: ما جرى لحقوق المرأة؟) الشريعة صانت المرأة حقوقها المادية والأدبية ولكن الرجال على مر التاريخ راحوا ينقصون من هذه الحقوق. وكان المقال مليئا بالشواهد والاقتباسات من المراجع الدينية. ولم أجد أسلوب منار التقليدي. خفت حدة هجومها على الرجال الذين كانت تدخر لهم في مقالاتهم كلمات كطلقات الرصاص أبسطها الجبروت التاريخي للرجل وفقهاء الجهل والكذب والذين يكسرون أعناق النصوص.. إلخ. هذه المرة كانت أقوى عبارة في مقالها أن الرجال لو فهموا الشريعة كما ينبغي لتحققت المساواة منذ زمن بعيد لأن النساء لهن في الشريعة حقوق مساوية لواجباتهن وإذا كانت للرجال حقوق فلأن عليهم واجبات إضافية".<sup>225</sup>

وليس هذا فحسب بل تتغير البيئة في الأسرة من البيئة الليبرالية إلى البيئة الدينية، وفي هذا البيت يتربى خالد ابن البطل بدون رعاية الأب. يرى البطل أن ابنه بدأ يقتفى نفس الآثار التي هدمت حياة الأسرة - أي الفكرة المتطرفة من موافقه في الدين، يقول البطل "إن ما كنا نفعل في شبابنا كان من أجل المستقبل، من أجل الحياة، ما ألاحظه بالتدرج عند خالد نوع من النفي الكامل للحياة، المستقبل هو ما بعد الموت فقط".<sup>226</sup> "أذكر جيدا ما قاله إبراهيم عن الظروف التي تصنعنا. إذن فما هي تلك الظروف التي جعلت جيلنا لا يرى في الحياة عارا؟... لماذا قبلنا أننا بشر نخطئ ونصيب، نعصي ونتوب، نطمع في رحمة الله ونثق أن أوان التوبة سيأتي قبل أن تضيع فرصتها، ولماذا يريد خالد أن يكون ملاكا لا يشوب نقاءه مجرد دور من الشطرنج؟ أعرف أنه لو عاش

<sup>225</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص: 224

<sup>226</sup> نفس المصدر ص 108

تلك الحياة مثلما بدأ فلن يعرف الحيرة التي عشناها نحن، لن يحاول أن يصحح ماضيه مثلما تحاول منار الآن بطريقتها ومثلما أحاول بطريقي. لن يكون في الحياة صراع ولا في الروح صدع.. سيكون كل شيء سهلا وواضحا.. ومع ذلك فهناك شيء في داخلي يقول إن هذا مستحيل يا خالد! .. لم يحدث أبدا أن نبتت للبشر أجنحة الملائكة. لو أنك معي الآن لتكلمنا مثلما كنا نتكلم من قبل كأصدقاء. لحاولت أن أشرح لك وأن أسمع إليك.<sup>227</sup> فالبطل لا يهدأ ولا يتسكن من هذا الاتجاه المتطرف في الأسرة.

وكذلك إبراهيم أخطأ في فكرته المتطرفة حينما كتب لشادية عشيقته أن لا تنتظره وتنفس نفسها مع الرجال الآخرين إن شاءت. بعدئذ دمرت شادية حياتها، تغيرت شخصيتها المتحمسة إلى شخصية لا تكثرت بما يجري في الحياة الشخصية وفي ما حولها "ظلت شادية وفيه له في سنوات الاعتقال وصدت محاولات كثيرة للتقرب منها، بل قبلت كل الاضطهاد الذي أصابها في الصحيفة باعتبارها صديقة لأحد (أعداء الثورة) كما كان يقال أيامها. ولكن فور خروج إبراهيم من المعتقل انقطعت العلاقة بينهما ..... تزوجت بعد ذلك بقليل من صراف الصحيفة الذي كنا نسميه (عم عبد اللطيف) بسبب الوقار المبالغ فيه وبطأ حركاته وإشارته .... ثم أدهشتنا مرة أخرى حين طلبت نقلها من التحرير إلى الإدارة وعملت موظفة في قسم الحسابات، بعدها تلاشت شادية التي نعرفها، ترهلت لم تعد تهتم بمظهرها بالمرة .... هي نفسها تلك المحررة التي كانت تجلس على مكتبها هادئة معظم الوقت ولكنها تشتعل بالانفعال والحماس وهي تتحدث عن حركة للتحرير في إفريقيا أو عن تطور الهجرة إلى إسرائيل أو عن معجزة الاقتصاد في اليابان، بدا أنها نسيت هذه الأشياء تماما وظللت أتساءل إن كانت هزيمة في الحب يمكن أن تفعل ذلك بالإنسان؟".<sup>228</sup> يقول إبراهيم "نعم كنت أحبها حقاً، ولم أحب في حياتي واحدة

<sup>227</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 224

<sup>228</sup> نفس المصدر ص 40-41

مثلما أحببتها، ولما طالت سنوات الاعتقال كتبت لها من السجن أنني أحررها من الارتباط بي، وإلى هنا فكم يكن هنا بأس، ولكني كتبت لها أيضا أنها إن أرادت انتظاري فهي حرة في أن تسلي نفسها بالخروج مع من تشاء من الرجال".<sup>229</sup> وكذلك إبراهيم لم يستقر قرار وبدأ يبحث عن شادية في كل امرأة غيرها، ولم ينج من هذا الألم أبدا. وكذلك تغير رأيه عن مشروعات الرئيس عبد الناصر ويقدر لعديد من إقداماته كما يقول "ومع ذلك فيجب أن تعرف هذا المقال التي كتبتة عن بيان 30 مارس وقلت فيه إن الحكومة تتصور أن اليمين يمكن أن يخلص للثورة وأنه يمكن أن ينفذ الإصلاحات ..... بيتسم وهو يقول: يا سيدي أين نحن من تلك الأيام أرجع لنا هذا الزمن ثم أوقفني عن الكتابة كما تشاء، هل يرضيك أن أقول إنني أخطأت حين كتبت هذا المقال؟ كان معك حق في كل ما قلته عن عبد الناصر وكنت أنا المخطئ".<sup>230</sup>

وفي "خالتي صفية والدير" عالج القضية بأسرها أن التشبث بالمبادئ لا حرج فيه ولكن التطرف فيه لا يجلب إلا حربا ودمارا، يصور الروائي المجتمع الصعيدي الذي يتكون من المسلمين مع دير وسطهم، كان المسلمون والمسيحيون يشاركون في الأعياد كلها للمسلمين كانت أو للمسيحيين، وكونت هذا المجتمع ثقافة مشتركة لا فرق فيها بين مسلم مسيحي إلا أن واحدا يذهب إلى المسجد والآخر إلى الدير. كانت بيئة التسامح خلقت إطار الإخاء والتودد والتعاون في كل أمور المجتمع حتى أن الدير لم يمنع أن يتخذ مسلم (حربي) ملاذا وملجأ آمنا فيه من خوف القتل. الدير يترحب به بسعة صدره على الرغم من الأخطار التي يمكن أن يواجه. ألف الروائي هذه الرواية عندما ضاق على ما شهد من كثرة الاشتباك العنيفة بين المسلمين والمسيحيين، وبدأت تلك بيئته الإخاء والصدقة تتدهور بعد السبعينات بعد أن تولى الرئاسة أنور السادات. وضمن سياسته التي انتهجها لقمع الحركات

<sup>229</sup> نفس المصدر ص 42

<sup>230</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص: 35

اليسارية بدأ يوسع للإسلاميين المجالات في النواحي الاجتماعية والسياسية وبدأت السلفية والإخوانية تبرز كقوة مهيمنة في التحرك الاجتماعي والسياسي. والإسلامية أخذت تمكن جذورها وتتوغل في السياسة.<sup>231</sup> فأخذت الهجمات تتزايد على المسيحيين والذي، في رأي الروائي، أدى إلى تدهور العلاقات المتآخية التي عرفت لها دولة مصر لآلاف القرون. وكانت الرواية محاولة قام بها هذا المثقف ليرى المواطن المصري تاريخه المفتخر به من الإنسانية والتسامح والتماشي في الحياة على عدة المذاهب والأفكار، ولا يخفى على قارئ ما فيه من الدعوة إلى التسامح الفكري والديني.

في روايته "واحة الغروب" يصور أن أهل الواحة، والشيخ صابر، واليوزباشي كلهم يغالون في ما يعتقدون كمبادئ الدينية أو الجذور التاريخية. مليكة تقتل زكية من أجل التطرف المعمر في المجتمع. مليكة التي ترملت من موت زوجها الشيخ الفاني وهي في السادسة عشر من عمرها، تخرج من بيتها لتلتقي المأمور وزوجته. يتهمها أهل الواحة أنها أصبحت غولة وسوف تحتل بهذا الذنب الكارثات في الواحة. ترفع في الواحة همهمات ما حلت من المصائب بعد خروج الغولة. لم تكن الهمهمات إلا مقدمات لقتلها كي لا يحل الواحة العذاب. والشيخ صابر على استعداد وقود نار الحرب كلما سنحت له الفرصة ولم يكن ذلك إلا للفكر المتطرف في فضيلة أجداده وأجداده. وكذلك اليوزباشي وصفي يلعب الأعيب والدسائس والمؤامرات للوصول إلى عهدة العمدة التي يتصور عنها أنها أحق بما كونه ألبانيا يأتي من قوم لهم تاريخ الحكم والمجد في الماضي. لا يخطر بباله ما أهضب الثمن يدفع له عامة الناس والشعب. ولذا يرى الروائي أن فشل ثورة عرابي التي لم تكن إلا لجلب الحقوق الإنسانية لعامة الناس ولترجع لهم كرامتهم، كان بسبب النخوة الفكرية وزعم الأفضلية بين الطبقات الحاكمة والمتقدمة،

---

Zohny.A.Y, The Future of Political Islam & Democracy in Egypt After The Arab Spring, Culture & Religion Review Journal, page 49-50, Volume 2014 Issue 4, Franklin Publishing Company, www.franklinpublishing.net

والنتيجة هو وجود التناقضات المتضاربة العنيفة والحركات التعنيفية في الشعب المصري ما يجعل مصر تطحن في الدوامة الدموية، وتمر بأيام فاضحة في العصر الحديث. لا يوجد الحل والمخرج من هذا المأزق إلا أن يسود التسامح الفكري والديني في المجتمع المصري وتتحدث الآراء والأفكار بحرية وفي بيئة مؤاخاة وتحمل، حتى تتسع الآفاق لممارسة الحرية في التعبير والتفكير. ونرى بريجيت أصبحت متسامحة بعد كل التجارب المرة "ولكن هذا ذكرى طفولية: تعلمت من زمن أن أغفر لأمي وحتى أن أفهمها وكان يمكن أيضا أن أغفر لمولر".<sup>232</sup> وكان مولر ممن خرب حياتها في الطفولة وفي الشباب. في الطفولة عثرت على علاقة أمها مع عمها مولر. في الشباب، دمر حياتها بإشارتها وألبرت على التزوج ثورا على التمييز العنصري في نمسا.

---

<sup>232</sup> بهاء، طاهر، الحب في المنفى، ص 75

## الفصل الثاني: قضية الالتزام

ولكن الروائي لا ينسى أن يقدم قضية الالتزام السياسي للمتوقدين والمثقفين خاصة ولعامّة الناس عامة ويمكن لى تحليل هذه القضية المتواجدة في عديد من رواياته. يرى أن الأدباء والمثقفين هم من يحملون مشاعل التنوير والتثقيف وتنقية عقول كافة المجتمع<sup>233</sup>.

أما الالتزام فيرجع بروز مفهومه إلى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. استخدام المفهوم كان فيما يتعلق بالواقعية الاشتراكية بعد ثورة أكتوبر في روسيا سنة 1917م. ثم يعود إلى أدبيات المذهب الواقعي الاشتراكي الذي يقوم أصلا على تأكيد ارتباط النتاج الأدبي بالبنية التحتية (الاقتصادية-الاجتماعية) ومن ثم على رسالة الأدب والفن للعمل في سبيل التغير من أجل الحياة الكريمة والغد الأفضل. فهو حصيلة النظرية الماركسية في الأدب والفن من الناحية النظرية. ومن الناحية العملية حصيلة التجربة الأدبية المعاصرة للأدباء الاشتراكيين في الاتحاد السوفيتي وغيرها من البلدان الاشتراكية. محصلة هذه النظرية أن الأدب يتشكل في طبقة وفي عصر وتظهر فيه الجوانب الاقتصادية والاجتماعية عن ذلك العصر. وفي خضم معركة صراع الطبقات لا يستطيع الأديب أن يقف موقف المنفرج أو أن ينقطع للتأمل المجرد في برجه العاجي. بل المطلوب منه أن يتجاوب مع نضال الطبقة الكادحة البروليتارية ويقف إلى جانب الحياة ويلتزم مناصرة قوة التقدم.

ثم توسع مفهومه ليحوي كل ما يلزم أن يقوم له الأديب. فأدب الالتزام لا تقتصر على الالتزام الطبقي البروليتاري بل يعم ويشمل كل القضايا التي يرى إليها الكاتب كقضايا ذات أهمية للمجتمع. ويقول شوقي

<sup>233</sup> نصر، محمد، بجاء طاهر في حوار له "البوابة": مصر غير مؤهلة لتطبيق الديمقراطية، البوابة نيوز، - المركز العربي للدراسات السياسية، 57ش.مصدق، الدقي، الجيزة،

ضيف في هذا الصدد: "وينبغي أن نلاحظ أن من يدرسون الأدب دراسة اجتماعية لا يريدون أن يتبينوا فيه انعكاسات المجتمع فحسب... إنما يريدون أن يتبينوا ما في بيئة الأديب من ظواهر اجتماعية ومدى تأثيرها في أدبه ومحاولين النفوذ إلى معرفة طبقة الأديب الاجتماعية التي ينتمي إليها وما عاش فيه من أوضاع اقتصادية ومدى استجابته لموقف طبقته وصدوره عنها في آثاره.

وقد أدى ظهور النظريات السياسية الحديثة في القرن الحاضر إلى ظهور مقياس اجتماعي جديد هو مقياس الالتزام في الأدب، فالأديب لا يطلب في أدبه أن يعكس علاقات مجتمعه وأوضاعه فحسب، بل يطلب منه أن يشارك في تكييف مجتمعه، بحيث يصبح جزءاً لا يتجزأ من كل ما يجري فيه من مشاكل وقضايا ومعارك، وبحيث يزود عنه حين يطلب الذيادة، فينبري للدفاع عنه بقلمه كل ما يستطيع من مقالة أو قصيدة أو قصة أو مسرحية. وبذلك لا يكون كائناً طفلياً في المجتمع هارباً من معاركه وآلامه وآماله ومتضامناً مع أفرادِهِ، يعيش ما يعيشون من الصراع ويلتزم ما يلتزمون من المسؤوليات.<sup>234</sup>

وكان من أثر ظهور النظريات الفلسفية الحديثة في هذا القرن أن ظهر مقياس جديد هو مقياس الالتزام في الأدب، فالأديب ينبغي أن تكون له دعوة اجتماعية يلتزمها، بل إن هذا هو واجبه الذي ينبغي أن لا يتخلى عنه، حتى يصبح دعامة المجتمع... يعمل على تقدمه إلى الأمام.<sup>235</sup>

<sup>234</sup> ضيف، شوقي، البحث الأدبي طبيعته-مناهجه-أصوله-مصادره، ص 96-102، طبعة تاسعة، دار المعارف، مصر، 2004

<sup>235</sup> ضيف، شوقي، في النقد الأدبي، طبعة تاسعة، دار المعارف، مصر، 2004

يرى الروائي الالتزام السياسي من الأمور الجذرية في المجتمع الحديث. ومعنى ذلك أن على المثقفين من الكتاب والمواطنين مسؤولية القيادة الفكرية والعملية مما يكتبون من أعمال أدبية أو غير أدبية أو أعمال هامة في المجالات الأخرى.

والالتزام السياسي يترادف للحركة الواقعية في الأدب عامة خلال القرن العشرين، والأدب العربي خاصة خلال سنوات حركات التحرير والاستقلال حتى إلى ما بعد ثورة يوليو 1952م. والهدف كان تثقيف الناس وتعليمهم، وإخبار الحكام واجبارهم خلال أدهم من الرواية والمسرحية والشعر وغير ذلك عن واقع المجتمع وما يدور فيه من هون وضعف من ناحية العدالة والحرية والكرامة الفردية. وكان عليهم أن يكونوا من الرائدین من الصف الأول إلى توجيه تقدم المجتمع والحكم إلى الصبح الجديد والمستقبل البريق. وخلال تلك السنوات برزت نخبة من الأدباء الكبار الذي انتهجوا هذا المنهج في سلوكهم الأدبي وليس الأدبي فحسب بل في سلوك الحياة فكانوا يكتبون تنديدات وتنقيدات في الصحف ويعبرونها في أعمالهم الأدبية وأيضاً كانوا يتماشون مع عامة الشعب بل كقائدين لهم مشاركين في المظاهرات والمطالبات.

ولكن الأحوال بدأت تتغير من أجل الكبت والاضطهاد الذي عانوه خلال الأيام التالية للثورة، ومن أجل التغيرات الجذرية في اتجاه العدالة الاجتماعية والتي أثرت على الطبقات مختلفاً على تعدد الطبقات. فكان ردود الفعل مختلفاً تجاه هذه التغيرات. فمنهم من انطوى ومنهم تقدم وتحرك، ولكن الأدباء والمثقفين لن يرجعوا يحملون أشعة الالتزام إلا أن اصطدموا من الكبت الفكري الذي تسلحت منه السلطة.

ففي روايته "شرق النخيل" نجد سمير زميل البطل في الجامعة يتحمس للقضايا الوطنية والقضايا العربية وخاصة قضية فلسطين، بعد أن كان التلذذ بالجنسيات والتنعيم بالأفراح والأنعام والحياة المليئة باللامبالاة مسلكه ومذهبه



في الحياة ويقوم بالمظاهرات ويقودها إلى ميدان التحرير، والروائي من خلال شخصية سمير في الرواية يحاول أن يبلغ إلى الناس رسالته أن على الطلاب والمثقفين لا يصح مسلكهم الترفيحية في الحياة بل لا بد أن يفهموا عبأ المسؤولية التي على عاتقهم. فيقول الروائي على لسان سوزي زميله سمير "يكلمني أنا الجاهلة عن السياسة واليهود، وسيناء وفلسطين وأحيانا يبكي، سمير، سمير الذي لم يكن يعرف غير الضحك والفرح بعض ساعات يبكي وأنا خائفة عليه".

وعبر روايته "شرق النخيل" يحاول الروائي الإيحاء بأن الشعب عامة والشبان خاصة عليهم أن لا يهنوا عن مسؤوليتهم في التعبير والمطالبة عن الوطن والوطنية والعروبة وكل ما يهم لأن يتكامل الوطن المصري.

وبالمماثلة والمقارنة التي أتى بها الروائي من خلال الحدث الذي يستشهد فيه الأب والإبن مدافعين عن حقهما في أرض لهما، يحاول الروائي الإيحاء بأن الآباء والأبناء يلزم عليهم أن يتراضوا للدفاع عن وطنهم المصري ووطنهم العربي ولا يتفرقوا حتى تخرج ريجهم. كما حدث في نفس الحدث أن الأخ الأصغر لم يقيم على جانب أخيه الذي لم يكن إلا يدافع عن حقه وأرضه، ولو أن الأخ قام له عضدا لقام معه الأعمام والأخوال وذوو القرى الآخرون ظهرا، وما كانت دماءهم سالت سدى، بل لكان الجاسرون من أولاد الحاج صادق انهزموا وكانت الأرض بقيت لهم.

يقول البطل "وكان عمى يغفر لي كوني صغيرا فيملائي هذا بالخجل. أما حسين فلم يغفر لي".<sup>236</sup> "ثم أستبد بي الغضب فجأة وقلت - ماذا أستطيع أنا وحدي يا حسين؟ لماذا لا يفعل الكبار شيئا؟ أخوالك مثلا أو أهل أبي وأبيك؟ لم يتركون هذه النار تشتعل ولا نسمع منهم شيئا سوى الكلام؟ لماذا وهم يعرفون أن الحق معنا لا يذهبون

<sup>236</sup> طاهر، بهاء، شرق النخيل، ص 25

إلى أولاد الحاج صادق ويقولون إنهم يعرفون لمن الأرض وأنهم لن يسكتوا إن حاول أحد أن يعتدى على حق أبيك؟

أشاح حسين برأسه بعيدا عنى وقال- عندما يقف الأخ مع أخيه أولا بعدها يأتي دور الأخوال والأعمام".<sup>237</sup>

"ولكنك صرت رجلا ويجب أن تعرف الحقيقة. في هذه البلدة، في هذه البلدة الملعونة، في هذه الدنيا الملعونة، إما أن تأكل الناس وإما أن يأكلك الناس. إما أن تخاف من الناس وإما أن يخاف منك الناس. أتظن أرض الحديقة هذه مشكلة؟ لا، ولكن أولاد الحاج صادق يريدون أن يكسرونا كما أرادوا دائما أن يكسرونا، وعمك يعطيهم الفرصة ليكسرونا، جربوا ذلك مع جدك من قبل، جربوا معه أكثر من طريقة. أجروا من تحرق زرعهم ولكن من دفعوا له خاف من جدك. عرف أنه سيصل إليه ولو اختبأ في بطن الأرض فجاء واعترف له. ولم يسكت جدك، قال لهم إن أحرقتهم لي زرع قيراط أحرقت لكم أرضكم كلها. وكانوا يعرفون أنه يقدر. كانت له رهبة. كانت أرض جدك تزيد وخيله تزيد وأنا أتعلم. وعمك يفلح ويجتهد مثل أبيه وأولاد الحاج صادق يرهنون أرضهم ويبيعون خيلهم. لكنهم أسياد البلد. بالحيلة. بالحيلة وحدها أن لم نكسرهم فإنهم على الأقل لن يستطيعوا كسرونا".<sup>238</sup>

"ربما لو ذهبت إليهم وقلت لهم هذه أرضنا وأنا وأبي مع عمى فيها حتى الموت.. ربما لو قلت لأبيك لن أسافر حتى تصالح عمى وحتى تذهب معه إلى أولاد الحاج صادق وتدافع عن حق أخيك.. ربما لو عرف كل إنسان

<sup>237</sup> طاهر، بهاء، شرق النخيل، ص 272

<sup>238</sup> نفس المصدر، ص 273

أننا معا لجاء الأخوال ولجاء الأعمام ووقفوا أيضا معنا، ربما كان كل شيء ينتهي، وربما حضرت فرح فريدة قبل أن تسافر. ربما لو وقفنا أربعة معا لصرنا عشرة ولصرنا مائة ولما استطاع أولاد الحاج صادق شيئا، ربما...".<sup>239</sup>

فيدعوا الروائي من خلال هذه القضية أن الشعب المصري لا بد لهم أن يتكاتفوا ويتشادوا ويقوموا متراصين للدفاع عن وطنهم وحقوق المواطنين وكذلك للوطن العربي، وأن يقوموا بالمظاهرات لإجبار الحكام في هذا الوجه ولا يخافون عصي الشرطة ولومة اللائمين. وأيضا يوحى إلى أن فلسطين لم يقدر اليهود على استيلاءها إلا بعد أن تفرقت كلمة العرب وبدأ المواطنون العرب يظنون بالسوء عن إخوانهم الفلسطينيين، فأصبحوا بدون الأعضاء والأيدي المؤيدة وظلوا يسكنون تحت ظلم الصهاينة الذين تحشوا من أرض فلسطين قطعة قطعة حتى بدأ الفلسطينيون يميون كالأجئيين الهالكين في أرضهم وأرض آبائهم. ويصور أن الهموم لا تبكوها بل تغيروها، لا تبقوا حبساء الحب والغرام الشخصي ولا تستهلكوا أنفسهم للأشياء التافهة مثلها. كما يبدو التصوير في هذا الحوار، يسأل سمير من البطل "حاولت كثيرا أن أفهمك فلم أنجح. أيمكن حقا أن يكون كل هذا بسبب حكاية عمك وابن عمك؟".<sup>240</sup>

"توقفت في الطريق فجأة وهتفت - عمي وابن عمي! ما الذي أدراك بهذا؟

قال سمير في وهو يتفرد في وجهي - ما الذي أدراكي؟ .. ولكن يا ابن الحلال أنت حكيت لي حكاية عمك حسين وابن عمك آلاف المرات. هي قصة أسمعها منك في كل ليلة أعود فيها وتكون أنت قد شربت وبدأت

<sup>239</sup> نفس المصدر، ص 273-274

<sup>240</sup> طاهر، بهاء، شرق النخيل، ص 293

حصّة البكاء".<sup>241</sup> يَصور أن البطل لا يكاد يفيق من حزنه وأسفه على ما فعل مع أخيه وعمه، وكاد أن يقتل نفسه. ثم يَصور أن ليلي أيضا تتنشط.

"لا، ليلي بدأت اليوم فقط. ولم تبدأ سرا ولكن علنا. جاءت إلى الميدان بعد الظهر وبدأت تتحمس للاعتصام أكثر من الجميع. ليلي لم تشترك معنا قبل اليوم في أي نشاط رغم أنني حاولت معها. والآن لا تريد أن تنصرف من الميدان.

"-إذن فلم تغيرك السياسة يا سمير. مازلت صعيديا يهمسك أمر البنات وسترتهن!.. في الواقع أن السياسة هي الغريبة عليك".<sup>242</sup>

"أنت لم تخطئ في حقي أنا. وعلى العموم فأنا لا ألومك ولا ألوم أحدا. أنا أيضا كنت غافلا ونائما.

نعم، وصحوت دون أن يدري أحد".<sup>243</sup>

فكان الروائي يخاطب، أيها الطلبة، إن عليكم أن تستهلكوا أنفسكم إن أردتم، فلأرضكم، لوطنكم، لشعبكم، هذا الحب أهم من أنواع الحب الأخرى. ولذا حينما ننتهي من الرواية نجد أن سوزي وليلي والبطل كلهم قد لبوا دعوة الحب والهلم للوطن، حتى ابن الشيخ الراحل في الترام الذي كان يخالف المتظاهرين، وثب خارج الترام واشترك مع المظاهرين ولم يبال ما سوف ينهال عليه الشرطة من الضربات والعصا، كما يَصور الروائي ههنا. "وقبل أن نصل إلى ميدان التحرير. عند الأنتكحانة وقف الترام وكانت تقف أمامه عربات ترام كثيرة، ورأيت عند سور

<sup>241</sup> نفس المصدر، ص 294

<sup>242</sup> نفس المصدر، ص 294

<sup>243</sup> طاهر، بهاء، شرق النخيل، ص 295

الأنتكخانة كثيرا من العساكر بملابسهم السوداء. وعلى رؤوسهم برانيط الحديد وبأيديهم الشوم. سألنا فقالوا لنا أن مظاهرة الطلبة في ميدان التحرير وجاء السائق فجلس معنا في ديوان الدرجة الأولى وهو يقول ربنا يستر. نزل كثير من الركاب وبقي معي في الديوان رجل عجوز ومعه ابنه الشاب وكان يصرخ فيه ووجهه محمر والولد، يا عيني، لا يفتح فمه بكلمة. كان يقول ماذا يريدون؟ يريدون أن يحرّبوا البلد؟ يريدون أن نحارب ونحن لم نستعد؟ عندما كنا شبابا كنا نعمل مظاهرات ضد الانجليز. قال هذا وهو يدير نظراته بيننا نحن الجالسين في الديوان ولا أعرف ماذا كان يريد منا أن نقول له لأنه كان هو نفسه الله يخرب بيته يمشى في المظاهرات ضد الإنجليز. وكلما علا صوته كلما أحنى ابنه رأسه في الأرض. وكنا مجبرين أن نستمع إليه لأننا كنا محبوسين في الترام والناس يقولون أن البوليس يضرب الطلبة في ميدان التحرير. وأخيرا خرس واصفر وجهه عندما رأينا العساكر الواقفين عند الأنتكخانة يجرون ناحية الميدان وهم يرفعون عصيهم. وحين نظرت من شبك الترام ورأيت حولي العساكر والطلبة يقولون بلادي بلادي والعسكر يضربون ولا هم هنا. وقابل الطلبة وهم يجرون العسكر الذين كانوا يقفون عند ميدان الأنتكخانة وحصروهم بينهم وبالشوم وهات. وجرى واحد من الطلبة وقفز إلى ترام واقف ووثب من شبكه إلى الناحية الأخرى خلف صف العربات الواقفة ولكن كان هناك عساكر أيضا عند أول شارع شامبليون، فاستدار وقفز من شبك الترام الذي نركبه وزحف على يديه ورجليه حتى أختبأ في الديوان عن أقدامنا. كان مجروحا في رأسه والدم ينزف من جبينه على أرضية الترام فأعطيته منديلي لكنه كان صغيرا ورحت أفتش في شنطتي عن شيء أكبر. وكانت امرأة عجوز تجلس على أرض الترام قرب ديوان الدرجة الأولى وهي تستند على قفة فأخرجت منها خرقة كبيرة وأعطتها له وهي تقول يا كبدي يا ابني. وفي هذه اللحظة صعد إلى الترام عسكري وهو يلهث وزملاؤه تحت يقولون له هنا هنا.. فتش الترام وبدون أن تنظر المرأة العجوز أزاحت قفتها قليلا لتخفي الطالب المقرفص على الأرض ولكن العسكري رآه وهم نحو الديوان فقالت العجوز بصوت خافت ربنا يسترك

يا ابني. لو عندك ابن أو أخ صغير ربنا يبارك لك. مجروح يا كبدي. ومدت يدها على قفتها وكأنها ستسد باب الديوان.

وتطلع العسكري إلى وجوهنا ثم إلى الطالب على أرضية الترام ووقف قليل ثم استدار لينزل. ولكن كان زميل له يحاول أن يصعد تسبقه عصاه فقال له لا أحد هنا. أنا فتشت الترام. ولكن زميله دفعه في صدره وهو يقول بل هنا. فتشنا كل العربات الأخرى. ولكن العسكري وقف يسد الباب ويدفع زميله وهو يقول قلت لك لا أحد هنا. تعال نفتش العربات الأخرى. وفي هذه اللحظة يا سيدي وقف الأفندي ابن الحرام صاحب المظاهرات ضد الإنجليز وقال مناديا العسكري وهو يشير بيده إلى الأرض. هنا يا عسكري. تعال هنا. دفع العسكري الواقف على السلم زميله حتى كاد يقع وداس على المرأة العجوز وهجم على الطالب ورفع من رقبتة وحاول الطالب أن يقف وهو يقول بلادي بلادي ولكن العسكري أخذه يجره على ركبتيه ويقول له إخرس. وعندما دحرجه خارج الترام وتلقفه العساكر الآخرون بالشوم كفت المرأة العجوز التي هرسها العسكري عن التأوه وتطلعت إلينا كأنها تستفسر منا، ثم نظرت إلى الأفندي الذي كان لا يزال واقفا وبصقت على أرض الترام دون صوت. وفجأة قام ابنه الذي كان يضع يده على وجهه ثم اندفع يجري خارج الترام وهو يبكي ويصيح بلادي بلادي فتلقفه العسكر. وصرخ الأفندي وهو يهم وراءه يا ولد، وقام يصرخ في العساكر الذين يسدون باب الترام لا تضربوه. هذا ابني. لكن أحدهم لكز في صدره.. فانحط مكانه. أنظر. أترى إلى هذه البقع الصغيرة من الدم على الفستان. إنها دم الطالب الذي تناثر علينا عندما رفعه العسكري من على أرض الترام. أين هو الآن يا ولده أين الأفندي ابن الحرام؟ وأين سمير؟ ... قالت ذلك ثم أحنّت رأسها فجأة وأجهشت بالبكاء مرة أخرى..".<sup>244</sup>

وفي رواية "قالت ضحى" البطل وشخصية سيد القناوي وحتى حاتم كانوا من الملتزمين، كما يقول البطل "حاتم هو كان صديق عمري، زميلي في فؤاد الأول الثانوية ثم كلية الحقوق، ولما تخرجنا عملنا معا في نفس الوزارة. ولم تكن عندما تعارفنا في نفس الفصل ولكننا التقينا أثناء المظاهرات المتكررة التي كنا نخرج فيها أيامها".<sup>245</sup>

"يدوي في مكان من المدرسة صوت عصبي جهوري" اليوم حرام فيه العلم" فيتردد الصدى في كل مكان ونخرج فصلا بعد فصل، نتجمع في فناء المدرسة ويشرح الخطباء لماذا اليوم حرام فيه العلم. غالبا ما يكون ذلك من أجل مصر والجللاء بالدماء ونيل واحد وشعب واحد. ولكننا نعتقد أيضا أن كل شؤون العالم تخصنا، توقع العراق معاهدة مع إنجلترا لا تعجب الشعب هناك ولا تعجبنا فنخرج. صدقي- بيغين حرقت صدقي وجبر- بيغين قبر بيغين. يقتل اليهود فلسطينيين في حيفا فنخرج. شهداءك يا حيفا في الجنة وتارك يا فلسطين في رقابنا".<sup>246</sup>...

"ترتفع القبضات والهاثافات من أجل مصر وفلسطين وتونس وسوريا والشرق كله".<sup>247</sup>... "نتبارى في الحماس وفي الوطنية".<sup>248</sup>

غير أن البطل وحاتم قد خابت آمالهما من السياسة وقد كانت السياسة في وقت ما مآكلهم ومشربهم، يقول البطل "الحقيقة التي لم أقلها لحاتم أو لأحد، أنت بالطبع ذكرتي أنا وحاتم معا دون قصد ولكن الحقيقة أنه بصورة ما قد صنع حياتي، كنا أنا وهو زميلين في المدرسة الثانوية وكنا نشطين جدا في المظاهرات، نكره كل ظلم".<sup>249</sup>... "ولما جاءت الثورة فرحنا، قلنا تحققت كل الأحلام، سيخرج الانجليز، سيتحقق العدل فلا يعيش

<sup>245</sup> نفس المصدر، ص 312

<sup>246</sup> نفس المصدر

<sup>247</sup> نفس المصدر

<sup>248</sup> نفس المصدر

<sup>249</sup> طاهر، بهاء، قالت ضحى، ص 362

ناس في بيوت كالحجر تملؤها القذارة و يملؤها المرض، سيتعلم الناس فلا يصير جهل، ستنمو مدائن وحدائق وسيمشى الإنسان عزيزا على الأرض، لا يسمح الأطفال أحذية الآخرين ولا تتسول النساء في الطريق...ولكننا رأينا ملوكا جددا وباشوات جددا يريدون أن يستولوا على البلد التي كنا مستعدين أن نفقد أنا وحاتم حياتنا من أجلها.... كنا أنا وهو في الجامعة نعد للدراسات العليا، وقرنا أن نقوم بمظاهرة كما كنا نفعل قبل الثورة لكي نطلب الحرية ، وخرجت المظاهرة من الجامعة، كان حاتم هناك محمولا على الأعناق يردد الهتافات التي كنا نرددنا أيام الثانوية والجامعة. دماؤنا فداؤك يا مصر.. لا استعمار ولا طغيان.. وأضفنا أشياء جديدة.. يسقط حكم البكباشية وهتافات من هذا النوع.. ..أما في هذا اليوم فبعد أن خرجنا من الجامعة وعبرنا الكوبري الصغير، ما أن دخلنا الجزيرة، وقبل أن نصل إلى مجلس قيادة الثورة بكثير، حتى جاءت عربات مدرعة يستقلها جنود الجيش لصد الغزاة ووراءها عربات من اللوري، وهجموا علينا.... كنت يومها معه ضمن من أخذوهم في العربات، كنت أجلس إلى جوار حاتم في اللوري وهمس في أذني: مهما يحدث فلا تقل لهم أننا موظفان، يمكن يفصلونا من وظائفنا.... أنتظر دوري والعرق الغزير يغمر وجهي ويدي ترتجف، وجسمي كله يرتعش، لماذا كان يشغلي خاطر صغير في تلك اللحظة، أن يعرفوا أي موظف فأفصل من عملي وتجويع سميرة وأتشرذ أنا؟ لماذا فعلت ذلك الشيء الذي لم أغفره لنفسى أبدا؟.... فأخذت ذلك الضابط إلى جنب وهمست في أذنه: سأعترف لك.. الذين نظموا المظاهرة هم هذا .. وهذا .. وهذا ومن بين من أشرت إليهم حاتم، فهمس الضابط في أذني: ولماذا تخون أصدقاءك؟ لماذا لا تصمت كالآخرين؟ ... بعد ذلك لم أنطق ولم أعترف، ولكني لم أغفر لنفسى هذه اللحظة أبدا .. لم يعرف حاتم حتى الآن شيئا مما حدث ولكني عرفت أنني لست كبيرا بما فيه الكفاية لأهتم بالسياسة .. لماذا لا أعترف؟ حين جاءني حاتم بعد ذلك وكان الجلاء قد تم وقال لي أنه سينضم لهيئته التحرير ليحاول أن يحقق مع الثورة ما عجزنا عن أن نحققه خارجها .. رفضت .. رأيت بعض أحلامنا تتحقق، رأيت الانجليز يخرجون



ومدارس تبني ومصانع تقام في كل مكان، ولكنني قلت: لا شأن لي بذلك .. لست كبيراً بما فيه الكفاية..".<sup>250</sup>.... "بعد فترة قالت ضحى: أنا أصدقك. حين تخون واحدا فأنت تخون العالم كله..".<sup>251</sup>.... "أقصد أنك عندما خنت صديقك فقد خنت أيضاً أحلامك وأفكارك، لم يعد ممكناً أن تعود نفس الشخص".<sup>252</sup>

لكن شخصية سيد القناوي يبقى رمزا للأمل والفكر الإيجابي الذي يؤثر التزامه على حساب وضعه وحياته، لا يخاف ولا يهاب بالقيام ضد الفاسدين في النيابة والإرادة وحتى يتطوع بالذهاب إلى حرب يمن دفاعاً عما تقوم له وطنه مصر من مبادئ العروبة ووحدة الأمة العربية وحتى يضيع أحد رجليه خلال الحرب.

وحتى البطل يفيق من إغمائه وإن كان قد زلق إلى مهاوي خيبة الأمل والقنوط من أجل نفسيته الضعيفة إلا أنه لا يتنحى بالتزامه الفكري، هو يقول لحاتم: "أنا أعرف يا حاتم أن طلب العدل مرض، ولكنه المرض الوحيد الذي لا يصيب الحيوانات".<sup>253</sup> "

وكذلك يعتقد أن التغيير الإيجابي لا يمكن فقط بالثورة ولا يمكن أن يفعل الحاكم كل الأشياء، بل لا بد للناس عامة أن يقوموا لها حتى يمكن تحقيقها وتحقيق الآمال والعدالة وإلا فتهدى الدولة في مهالك الفساد المميت الذي يقضى على الوطن وآماله كما يقول البطل على لسان سيد القناوي في "قالت ضحى": "الدولة تتظاهر بأنها

---

<sup>250</sup> طاهر، بهاء، قالت ضحى، ص 364

<sup>251</sup> نفس المصدر

<sup>252</sup> نفس المصدر

<sup>253</sup> نفس المصدر، ص 409

تريد وهي لا تريد، والشعب يتظاهر بأنه يريد وهولا يريد، فماذا يمكن أن يفعل عبد الناصر وماذا يمكن أن أفعل أنا الصغير؟" 254

في رواية "الحب في المنفى" البطل، وإبراهيم الشيوخي، والشاعر الجليل خليل حاوي، وبرنار، وألبرت ووالد بريجيت كل واحد منهم شخصيات تدعو إلى الالتزام. وتبدو شخصية إبراهيم أكثر التزاما عبر حياته. لم يزل يجري وراء مسؤوليته ويكتب عن الفلسطينيين حتى يموت في لبنان خلال حرب الإسرائيلي عليها، ويموت ملتزما وإن عارضته فلته في حياته الشخصية.

البطل أيضا يفيق من إغمائه الطويل في المنفى. يمضي حياته هناك بدون جدوى لمدة طويلة إلا حينما يحدث حدث لبنان فيقوم بكل قوة أن ينشر المقالات ويكتب في الصحف ويؤدي مسؤوليته وكاد أن يموت من أجلها. وبرنار أيضا يكتب عما حدث مع اللاجئين الفلسطينيين في لبنان، وألبرت يجاهد ضد العنصرية طويلا في سويسرا وضد الحكم الأوتوقراطي في بلده في غينيا. لا بد ههنا من الإشارة إلى أن حقبة مشوشة قد حالت بين حركة الالتزام في الخمسينات وبين رجوعه مع الحساسية الجديدة بعد السبعينات. منذ النهضة العربية الحديثة كان الشعب المصري يزيد توقدا واستنارة من الأفكار الجديدة من الحرية والمساواة والحكم الديمقراطي ومن خلال الرحلة الإصلاحية الفكرية منذ أيام محمد علي حتى من خلال سنوات الاستغلال المصري المحدد إلى ثورة يوليو 1952م، الرحلة التي أقنعت الشعب عامة عن الأسباب التي ألفتهم في قعر التخلف والمذلة والاحتلال الفرنسي ثم الإنجليزي. وكانت الأسباب ترجع دائما إلى أن فقدان الكرامة الفردية من أجل فقدان الحرية الفردية وغلبة عدم المساواة والحكم الأوتوقراطي. فكان منطقيا أن يرى الشعب إلى هذه الأسباب كعوائق في سبيل التقدم والازدهار ما لا

بد من كسرها لاختراق الطريق إلى المستقبل الحر وذي الكرامة والمساواة. وكانت الأمانى قد علقّت على حصول الاستقلال المطلق من الاحتلال الإنجليزي سياسياً واقتصادياً. وبعد ثورة يوليو قد فازت مصر بتحقيق كثير من هذه الآمال الطائلة من خلال مشروع الإصلاح الزراعي، وتأميم قناة السويس بعد حرب وجيزة فرجعت منها مصر كفاتحة ومنتصرة على القوات الكبرى العالمية، إنلجترا، فرنسا، إسرائيل، والذي جعل الشعب المصري أشد اعتقاداً بالمبادئ والأفكار الحديثة. وكانت الآمال والمطامح الكبرى تحلق في فضاء الفوز والنجاح عندما قامت أول اتحاد الدولة العربية. وكانت الدول العربية الأخرى تبغى أن تكون أعضاء هذه الاتحاد، وكانت مصر على ذروة السمو والكرامة القومية متقدماً كقائد العروبة والاتحاد العربي. وفجآن ما يصيبها الصدع والهزيمة المنكرة في حرب 1967م أو كما يطلق عليها النكسة الكبرى والتي انهزمت فيه جيوش الاتحاد العربي أمام دولة صغيرة مثل إسرائيل. كانت مصر ممن عانت من أسوء نتائج الهزيمة، فسرعان ما تشتت كلمة العروبة من أجل الهزيمة ولم تنحصر آثار هذه النتائج على التصوير الكبير للاتحاد العربي فحسب بل اخترقت إلى نفوس الشعب بأكمله وتركتهم هتا بتا. أصابهم ذهل وصدع في العقل والقلب والنفس. اندثرت ثقة نفوسهم، تفتت فكرتهم واعتقادهم في المبادئ الطائلة التي كانت نبع الحماسة والنشاط. كانت هذه هجمة نهائية على نفسية الشعب المصري الذي كان يعلق آماله إلى الصبح الأجود والمستقل الأبرق على الرغم من الصدع الذي أصابهم من أجل الإضطهاد الفكري والسياسي وضياع الحرية وتوجيه الحكم الديمقراطي بعد ثورة يوليو في عهد الرئيس جمال عبد الناصر.

### السياسة وخيبة الآمال

على الرغم من فشل مشروع العروبة في حرب يمن 1962م-70م، والانقلاب العسكري في نيجيريا، وانفلاع الاتحاد المصري والسوري سنة 1962م، إلا أن نفسية الشعب المصري لم يئس من هذه الأوضاع السلبية وعلقت آمالها على المستقبل. ولكن النكسة الكبرى كسرت الآمال على أنقاضها فكانوا مأخوذين مبهوتين متفتتين ثقة

ونشاطا. كان الجزر أخذهم بعد المد العالي الطويل فانغرفوا في دوامة الخيبة واليأس لا يدرون أنى يذهبون وما يفكرون بما وما يتنشطوا لها. هذه الخيبة تعرف بالقنوطية وحقبة خيبة الآمال والتي أثرت غائرة على الاتجاه الأدبي في ذلك الوقت وخاصة أدب الستينات التي لم ينجح على اسم غير أدب الستينات لما في هذه الحقبة من بيئة التشويش والذهول، فبرز الأدب مشوشة بدون اتجاه خاص. وهذا الاتجاه المشوش يغلب على روايات بهاء طاهر من "قالت ضحى"، و "الحب في المنفى" و "نقطة النور" وكثيرا ما صور في روايته هذه النفسية المنهزمة المتهدمة والمشوشة، في هذه الرويات الثلاثة وأيضا في رواية "شرق النخيل" الأبطال كلهم أصابهم خيبة الآمال لا يجدون مخرجا من هذا المأزق الغريق. 'الروائيون بعد الهزيمة عبروا عن مرارات الهزيمة ولكنهم تمسكوا بقناعاتهم الفكرية، وجعلوا الملاذ في الوطن، كاشفين العيوب إما بالرمز أو بالإشارة'.<sup>255</sup>

في رواية "الحب في المنفى" البطل أصابته خيبة الأمل بشدة لا يرى لحياته ونفسه معنى. يحاول أن يقضى أوقاته بطريق ما. قد يحاول أن يجد سلوى في ما يرى حوله من مظاهرة الفطرة وقد يحاول أن يعوض نفسه من حب المرأة. يحاول أن لا تتوسع حياته من هذا النطاق الضيق من الحب والغرام الشخصي. يجد أن المنفى لا وجود فيه لشخص لأنه مقلوع من أصوله وجذوره، وملفوظ في بيئة لا تواتيه ولا تسايره. يحاول تمثيل ما حدث له وهو مع منار في إحدى الرحلات الخارجية، إنهما اقتطفا عديداً من الزهور التي ظلت مزدهرة في منبتها وما أن اقتطفها من جذورها حتى ترهلت وماتت، فيقول: "قالت وفي صوتها خيبة الأمل، ولكنها كانت جميلة في الأرض....".  
أعتقد هذه الزهور البرية لا تعيش إلا في الأرض"<sup>256</sup>

<sup>255</sup> جمعة، مصطفى عطية، ما بعد الحداثة في الرواية العربية- الذات، الوطن، الهوية، ص 12

<sup>256</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 8

وكذلك الشخصيات الأخرى في هذه الرواية من منار، وشادية، وبريجيت عشيقة البطل في المنفى، ورنار، صديق مولر وهو عم بريجيت، ويوسف الصحفي النشط في سنواته في مصر والذي لجأ بالفرار إلى المنفى بعد الاضطهاد الذي واجهه. كل واحدة من منار وشادية وبريجيت يئسن من التغيير في المجتمع فتغيرت أنفسهم. فمنهم من انطوى على نفسه مثل بريجيت التي لا ترى للحياة معنى. تظن أن من يتعذب يتعذب وحده، ولا أحد يتقدم للمساعدة بالإحساس المماثل. ومن يتقدم لا يستطيع أن يفعل شيئاً بل تتأثر بذلك الحياة الشخصية سلباً كما حدث مع بريجيت. كان والدها متحمساً ونشطاً يحامي ويكتب عن المكبوتين حتى تزهد من الحياة الشخصية. قد دمر حياة زوجته - أم بريجيت وحتى حياة بريجيت التي أخذت تبحث السلوى خارج البيت. وحينما تجد السلوى، لا تمتد حياته إلا بضعة شهور تضيع خلالها الجنين في رحمها. وهذا ما جعلها قنوطية نهائياً ولا تبدو تبرا من خيبتها نهائياً.

شخصية منار ترجع في حياتها إلى القهقري بعد أن قضت سنوات طوال خلف المبادئ التي شبت عليها من العدالة الاجتماعية والمساواة بين الفقراء والرؤساء. ولما تواجه التناقض والازدواجية العملية في حياتها وحياة زوجها تضيع كل آمالها. تئس من الحياة السياسية وتحدد حياتها في القضايا العائلية. فبعد ما كانت الدينا كلها هما لها أصبحت هم العائلة دنيا لها، وتجد في الحياة الدينية سلوى لها.

وكذلك شادية عشيقة إبراهيم صديق البطل، بعد الفشل في الحياة الذاتية تفشل من الحياة نفسها. لا تبدو ترى معنى للحياة وتسائر الحياة كما تسير ولا تسيرها كما تشاء كما كان الحال من قبل. والمهم بالذكر ههنا أن هذا كله يحدث في بعد زمن النكسة والاضطهاد السياسي في عهد السادات فلا يمكن القول بأن الفشل في الحياة الشخصية هي الوحيدة التي قلبت شخصياً لأن الأوضاع السياسية لو كانت إيجابية لكانت توغلت فيها وتجعل

منها هدفا للحياة كما نجد في "شرق النخيل" أن ليلي التي فشلت في الحب عوضت نفسها بالتنشط للحياة السياسية.

وشخصية يوسف في نفس الرواية تمثل شخصية ضاعت كل آماله في طريق كفاح الحياة ومحنها كان نشيطا في سنوات الجامعة. ولما يرى الحياة تنزلق من يديها يفر وراءها كي يستبقى على وجوده. لا يرى حرجا في إعانة ذلك الثرى حامد التاجر المصري الذي مشبوها شخصيتها وأهدافها.

## الفصل الثالث: قضايا الهوية- فلسطين والعروبة

### قضية فلسطين:

أثار الروائي قضية فلسطين وخاصة في روايته " شرق النخيل " و"الحب في المنفي" من منظور كونها قضية للقومية العربية. دعا الأمة العربية إلى أداء مهمتها تجاه فلسطين والفلسطينيين كونهم إخوانا من العرب. خاطب الشعب العربي داعيا إلى أن يقوموا بالمظاهرات ويذكروا الحكومات مسؤوليتها تجاه القضية الفلسطينية وإلى إيقاظ العامة وتوعيتهم عن هذه المهمة التي نسوها وأسأؤوا فهمها. يمكن أن نفهما في خلفية سياسات الرئيس أنور السادات تجاه القضية الفلسطينية. ويناسب أن أقدم ههنا نبذة عن الخلفية التاريخية لفلسطين.

### نبذة عن تاريخ فلسطين الحديث

استعاد اهتمام الغرب بالمنطقة العربية في أعقاب الاحتلال البريطاني للهند في القرن السابع عشر. بعد حملة بونابرت نابليون على مصر بدأت التنافس بين بريطانيا وفرنسا للسيطرة على المنطقة خاصة من قبل بريطانيا للحفاظ على مصالحها في الهند في التجارة. وليس ذلك فحسب بل كانت تريد أن تحتفظ بالمنطقة لحساب نفوذها وذلك عن طريق سيطرة لأسطولها غير منازع عليها وعن طريق الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية كحاجز في وجه أطماع الدول الأوروبية الأخرى. ويعني ذلك أن بريطانيا تعارض بروز أية قوة محلية في المنطقة. تدخلت بريطانيا عسكريا عندما هزمت جيش محمد علي الجيش العثماني. أثار تقدم جيوش محمد علي في المشرق العربي ما عرف "بالمسئلة الشرقية" واستتبع ذلك إقدام بريطانيا على الالتزام بسياسة ثابتة هدفها الحفاظ على المصالح

التجارية البريطانية في المنطقة تحت ستار حماية الأقليات الدينية. ذلك بأن حالت دون قيام دولة موحدة في مصر وسوريا تحدد نفوذ والمصالح الأجنبية.

أعلنت بريطانيا بحمايتها للدروز والبروتستانت واليهود في سوريا وجبل لبنان وفلسطين، كما أن فرنسا وروسيا كانت تقومان بحماية الكاثوليك والأرثوذكس. فرضت الدول الغربية على الدولة العثمانية ما عرف "بالامتيازات الأجنبية"

عندما بدأت أول هجرة يهودية إلى فلسطين سنة 1882م، كانت هي تحت الدولة العثمانية وكان يطلق عليها اسم سوريا الجنوبية وكانت تحت وزارة الداخلية العثمانية مباشرة.<sup>257</sup>

كانت بداية ظهور الوعي السياسي والتيقظ للرابط القومي العربي والمطالبة للتحرر والاستقلال سابقة لبروز الحركة الصهيونية في طورها التنظيمي. وذلك يرجع إلى احتكاك العرب بالغرب وأفكاره الحديثة وخاصة منذ فتوحات نابليون. الوثائق البريطانية تؤكد وجود نزعة مكبوتة بين بعض الطبقات ولاسيما بين المسلمين في سورية نحو التوحد مع مصر وهي نزعة أخذت تشتد تدريجياً في الآونة الأخيرة، كما لاحظ القنصل البريطاني في دمشق سنة 1885م.<sup>258</sup> وتشير الدلائل الثابتة أن فلسطين لم تكن معزولة عن التيارات والاتجاهات السياسية الجديدة في المنطقة. ولكن لم يرافق الشعور القومي العربي آنذاك في القرن التاسع عشر أي شكل من أشكال العداء قبل الغزو الصهيوني والهجرة الصهيونية الأولى سنة 1882م.<sup>259</sup> ولم يتبدل الموقف من اليهود إلا بعد أن أخذ طابع الوجود اليهودي في فلسطين من الطابع الديني إلى الطابع الاستعماري الاستيطاني الزراعي بوحى الأفكار

<sup>257</sup> الكيالي، عبد الوهاب، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة العاشرة، 1990م، ص 37

<sup>258</sup> نفس المصدر، ص 39

<sup>259</sup> نفس المصدر، ص 40



الصهيونية.<sup>260</sup> أثار توافد اليهود (الهجرة الثانية) غضب الفلاحين الفلسطينيين الذين عبروا في أكثر من مناسبة من معارضتهم منذ اللحظة الأولى لوصول المستعمرين الصهيونيين، ورافقت ذلك موجة من الغضب على الملاكين الاقطاعيين الذين كانوا يجنون الأرباح من بيع الأراضي للصهيونيين. في أكثر الأوقات كان بائعوا الأراضي من بين الملاكين الغائبين-معظمهم من الأسر اللبنانية، والحكومة العثمانية التي كانت تبيع الأراضي عن طريق المزاد العلني، والملاكون الفلسطينيون-معظمهم العائلات المسيحية.<sup>261</sup>

وبحلول نهاية عام 1909م أصبحت معارضة الهجرة الصهيونية موضوع الأحاديث الدائمة بين الناس.<sup>262</sup> لما أثار الوجهاء الفلسطينيين القضية اكتفوا بلعب دور الوساطة بين الحكومة والشعب ولم يتصدوا لمقاومة الصهيونية وجها لوجه ولم يقوموا بتنفيذ مطالبهم بأن يغلق مرفأ يافا في وجه المهاجرين اليهود.<sup>263</sup> ففي زحمة الاستياء والاشتباه بتواطؤ الحكومة ظهر تطور بارز واتخذت المعارضة من قبل الفلسطينيين شكلا منظما فقاموا بتنظيم منظمة محلية مهمتها الحيلولة دون بيع الأراضي إلى اليهود سنة 1909م.<sup>264</sup> وظهرت دعوة إلى مقاطعة البضائع اليهودية ردا على مقاطعة الصهيونيين للبضائع والأيدي العاملة العربية،<sup>265</sup> وبدأت الاحتجاجات لدى السلطات العثمانية التي لم تذهب سدى لما طلبت مجموعة من النواب العرب من طلعت بك تأكيدات بأن لا يسمح

---

<sup>260</sup> نفس المصدر، ص 41

<sup>261</sup> نفس المصدر، ص 48-49

<sup>262</sup> نفس المصدر، ص 49

<sup>263</sup> نفس المصدر، ص 50

<sup>264</sup> نفس المصدر

<sup>265</sup> نفس المصدر، ص 51

لليهود بامتلاك أراضي السكان المحليين وبعدم السماح بحجرة يهودية واسعة.<sup>266</sup> ولكن الحكومة التركية كانت متراخية في العمل بعد 1909م وكانت شديدة الحرص على حماية نفسها من الخطر الصهيوني.<sup>267</sup> وعلى الرغم من أنها تم انعقاد أول مؤتمر عربي في باريس سنة 1913م إلا أنها لم تقم بمناقشة الخطر الصهيوني بالإسهاب ولا أخذت مقررات بشأن هذه المشكلة العامة الخطرة.<sup>268</sup>

وفي غضون الأشهر التي سبقت الحرب العالمية الأولى كانت الحركة المناهضة للصهيونية قد بلغت ذروتها. وظهرت دلائل جديدة على وجود معارضة منظمة للصهيونية من أمثال "الجمعية الخيرية الإسلامية"، "جمعية الإخاء والعفاف"، "شركة الاقتصاد الفلسطيني العربي"، شركة التجارة الوطنية الاقتصادية".<sup>269</sup>

وما أن نصل إلى الحرب العالمية الأولى نجد الأوضاع تتغير بسرعة للعالم العربي والإسلامي والغربي. هناك كانت إشارات في بداية 1914م إلى أن تركيا سوف تحالف ألمانيا. تفرست بريطانيا الأخطار المستقبلية لهذا الإقدام من قبل تركيا. فإن مصالحها الإمبرالية والاقتصادية سوف تتأثر ويمكن أن تضعف هيمنته على قناة السويس والممر إلى الهند. فبدأت بريطانيا محاولات التحالف مع شريف مكة ضد الحكومة التركية وقدمت تعاهدات عديدة من تأمين دولة عربية مستقلة، والخلافة الإسلامية على شرط أن لا يحاذي القوميون العرب الأتراك من خلال خطة "بروتوكول دمشق". وكان شريف في ظنه الخائب قسم المنطقة بين أبنائه وحاذى حذو بريطانيا في الحرب والذي

---

<sup>266</sup> نفس المصدر

<sup>267</sup> نفس المصدر، ص 54

<sup>268</sup> نفس المصدر، ص 57

<sup>269</sup> نفس المصدر

ساعد بريطانيا في تضييق التأييد الذي كان يجده الحكم العثماني من قبل مسلمي الهند.<sup>270</sup> فقد كانت تركيا أعلنت بالجهاد ضد الأعداء. وكانت بريطانيا تريد أن لا يقف المسلمون العرب مع تركيا. ولذلك فقد استغلت بريطانيا المشاعر القومية العربية ضد الأتراك ونجحت في محاولاتها.<sup>271</sup>

على يد أخرى هناك كانت تعاهدات سرية بين روسيا وبريطانيا وفرنسا والاتفاقيات المتعلقة بها تعرف بمعاهدة "سايكس بيكو". تعتبر المعاهدة مثالا للمكر والخداع والجشع في سياسة الدول الاستعمارية. ذلك أنه تم التوصل إلى تلك المعاهدة السرية من وراء ظهر العرب وضدهم في الوقت الذي كان العرب حلفاء بريطانيا كما أنها مناقضة قطعاً للالتزامات بريطانيا بموجب مراسلات حسين-مكماهون. ولقد حقق الاستعمار الأوروبي في هذه المعاهدة مؤامراته ضد قيام دولة عربية موحدة وقوية عن طريق تمزيق وحدة الولايات العربية الواقعة ضمن الإمبراطورية العثمانية وتوزيعها على الدولتين الاستعماريين بريطانيا وفرنسا لسلبها إرادتها ومقدراتها وثرواتها.<sup>272</sup> واتفقتا في المعاهدة على إقامة نظام دولي خاص بفلسطين علاوة على خطة توزيع الأراضي العربية فيما بينهما.<sup>273</sup> على جانب ثالث عندما نشبت الحرب العالمية الأولى وجدت الحركة الصهيونية نفسها موزعة بين مختلف الدول المحاربة. جعلت موقفها الحياد رسمياً ونقلت مقرها الرئيسي من برلين إلى عاصمة الدنمارك المحايدة إلا أنها عملت في الواقع على محاولة كلا الطرفين لضمان السيطرة الصهيونية على فلسطين مهما كانت نتائج الحرب.<sup>274</sup>

---

Pappe, Ilan, A History of Modern Palestine- One Land Two People, Cambridge University Press, UK, <sup>270</sup> 2004, p 67

<sup>271</sup> الكيالي، عبد الوهاب، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة العاشرة، 1990م، ص 72-76

<sup>272</sup> نفس المصدر، ص 77-78

<sup>273</sup> نفس المصدر، ص 77

<sup>274</sup> نفس المصدر، ص 78

كان الصهاينة الألمان يشكلون غالبية داخل المجلس الصهيوني العام. وجد الصهاينة الألمان في كراهية اليهود للحكم الروسي مبررا للتعاون مع المحور الألماني في الحرب ومحاولة الحصول على تنازلات للصهيونية في فلسطين ثمنا لهذا التعاون ونشطوا من خلال منظمة لجنة الشرق.<sup>275</sup> ولم تمض سنة على الحرب حتى أعلنت الحكومة الألمانية عن 'تعاطفها مع النشاط اليهودي الذي يهدف إلى تحسين أحوال اليهود الاقتصادية وتقديمهم الثقافي في تركيا كما أن الحكومة الألمانية تنظر بعين العطف إلى استيطان اليهود وهجرتهم من البلدان الأخرى'.<sup>276</sup>

استمرت الجهود الصهيونية للحصول على وعد ألماني-وبالتالي موافقة تركيا حليفة ألمانيا- بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. إلا أنه من المؤكد أن خطاب مورغنتو (سفير أمريكا في إستانبول) في ايار 1916م بمدينة سينسيناتي، والذي جاء فيه أنه بالإمكان وضع ترتيبات شراء فلسطين من الأتراك لصالح اليهود بعد انتهاء الحرب قد أثار غيظ المسؤولين الأتراك. وقد ازداد اقتراب الصهاينة الألمان من النجاح في الحصول على الوعد الألماني في سنة 1917م، وكان هذا العامل من جملة العوامل التي ضغطت الحكومة البريطانية للتعجيل في إعلان وعد بلفور في تشرين الثاني 1917.<sup>277</sup> فعلى الرغم من ذلك، ظل قادة الصهيونية يأملون أن بريطانيا سوف تتفكر في تبني الفكرة الصهيونية بما في ذلك من توافق بينها وبين استراتيجية بريطانيا في السويس والطريق البري إلى الهند.<sup>278</sup>

فقد كانت هجمات تركيا العسكرية على قناة السويس في مطلع الحرب العالمية الأولى أثبتت أن فلسطين هي خط الدفاع الأول للقناة ولمصر.<sup>279</sup> هذا علاوة على محاولات وايزمين وتحمس هريت صمويل الشخصية

<sup>275</sup> نفس المصدر، ص 79

<sup>276</sup> نفس المصدر

<sup>277</sup> نفس المصدر، ص 79-80

<sup>278</sup> نفس المصدر، ص 80

<sup>279</sup> نفس المصدر، ص 81

البريطانية اليهودية وجورج لويد النائب البريطاني الذي أصبح رئيسا للوزراء فيما بعد.<sup>280</sup> فقد كانت هناك محاولات جادة من قبل القيادة الصهيونية تجاه إقناع الأمر أن الاستعمار الصهيوني سوف يكون أكثر تلاؤما مع الأهداف الاستعماري البريطانية. وبمساعدة صمويل وآرثر بلفور قام وايزمان بدعاية شاملة تجاه هذا الهدف حتى فاز هذا الثلاث في تغيير سياسة بريطانيا تجاه العزائم الصهيونية. والنجاح الأكبر كان في توطيد اللوبي هناك والذي كان يتمحور حول أسرة روتشيلد. بدأت المفاوضات رسميا بين الحكومة البريطانية والحركة الصهيونية سنة 1916م. وفي الثاني من أكتوبر 1917م أعلن بلفورد بالتعهد لإقامة أرض يهودية على أرض فلسطين.<sup>281</sup>

ولتحالف أمريكا في الحرب بجانب كان أهمية شديدة لبريطانيا. وكان جيمس مالكوم-الذي كان يعمل بالتعاون مع روسيا وبريطانيا ضد تركيا- يعتقد أن الصهيونيين في أمريكا قادرون على جر أمريكا إلى جانب الحلفاء من أجل أن القاضي لويس برانديس زعيم الحركة الصهيونية كان له نفوذ لدى الرئيس الأمريكي وودرو ولسون.

وهكذا قامت صلة وثيقة بين المنظمة الصهيونية العالمية والمخابرات البريطانية، ولا تزال دوائر الدولة البريطانية تعامل الصهيونية كحليف منذ ذلك.<sup>282</sup> وأغرب ما في وعد بلفور أنها منحت أرضا لا تملكها إلى جماعة لا تستحقها.<sup>283</sup>

<sup>280</sup> نفس المصدر، ص 80

Pappe, Ilan, A History of Modern Palestine- One Land Two People, Cambridge University Press, UK, <sup>281</sup> 2004, p 67

<sup>282</sup> الكيالي، عبد الوهاب، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة العاشرة، 1990م، ص 82

<sup>283</sup> نفس المصدر، ص 84

### تصاعد عدد المهاجرين اليهود بين 1890م و1940م

هاجر اليهود إلى فلسطين في عدد ضخم في عالىات أربع على تعبير اليهود عن هذه الهجرة. وصل اليهود إلى فلسطين بعدد يقرب 15000 بين 1882م و 1903م، كثرهم كانوا من الروسيين الهاربين من الهجمة الإبادية الروسية، بينما العاليا الثانية كانت تهرب من الكبت الروسية الزارية بين 1902م و1904م والتي اشتملت على 40000 يهوديا. والعاليا الثالثة كانت تتركب من اليهود الهاربين من أوربا الشرقية بين 1924م و1929م من أجل الإبادة هناك وكان عددهم يقرب 40000 نسمة. والعالية الرابعة أيضا كانت تشتمل من اليهود الهاربين من أوربا الشرقية بين 1924م و1929م وخاصة بولندا التي نفذت سياسة إبادة الساميين هناك فيما يتراوح عددهم بين 75000 و82000 يهوديا. وخلال العاليا الخامسة خلال الإبادة النازية بين 1936م و1940م حوالي 174000 يهوديا.<sup>284</sup> بينما عدد اليهود في فلسطين كان حوالي 42000 نسمة في سنة 1890م من بين 532000 فلسطينيا، كان عدد اليهود قد وصل في سنة 1940م إلى 450000 في فلسطين.<sup>285</sup>

لم يكن اختيارهم أرض فلسطين كدولة لهم فقط استجابة للسياسات الإبادية في أوربا بل كان ذلك مشبوها بالديانة اليهودية التي تعد عن الأرض الموعودة لليهود علاوة على كونهم وسيلة الاستعمار البريطاني في العالم العربي.<sup>286</sup> ويدل على ذلك شراكتهم تطوعا في الحرب على جانب بريطانيا ضد الدولة العثمانية.<sup>287</sup>

---

Said Aly, Abdel Monem, and Feldman, Shai, and Shikaki, Khalil, Arabs Israel- Conflict and <sup>284</sup>  
p 12-13, Palgrave Macmillan, UK, 2013 Peacemaking in the Middle East,

Ibid, p 10<sup>285</sup>

Ibid, p 28-30<sup>286</sup>

Ibid, p 12-13<sup>287</sup>

## قضية الأراضي ومقاومة الشعب الفلسطيني

كما ذكرنا من قبل أن النزاعات برزت تصاعد بين الفلسطينيين واليهود حينما أصبح شراء الأراضي منظماً مع هدف خاص. قام الشعب الفلسطيني بالمقاومات المستمرة عبر تاريخ العدوان الإسرائيلي من شراء الأراضي على المستوى الكبير ثم محاولات غضبها باستخدام القوة مع مساندة الحكم البريطاني، ثم بعد إعلان قيام دولة إسرائيل باستخدام القوة الدفاعية. بعد حرب 1967م قامت إسرائيل بتشييد المستوطنات المنظمة على المناطق المغصوبة وعلى الأراضي الفلسطينية ولا تزال هي تستمر بهذه السياسة من خلال توسيع المتوطنات.

في سنة 1891م أرسل 500 من أهالي يروشللم خطاباً إلى إستانبول يشكون فيه عن الهجرة اليهودية ومطالباً فيه حظرهم من شراء الأراضي ومن حشد الأسلحة. مع حلول 1909م بدأت المطالبات إلى وقف الهجرة اليهودية وبدأت الصحف الفلسطينية تهاجم ملاك الأراضي العرب الذين كانوا يبيعون أرضهم إلى اليهود. وخلال 1913م بدأت المحاولات المنظمة إلى إيقاظ الشعب الفلسطيني وتحرسهم من خطر الصهيونية.<sup>288</sup>

مع تدفق اليهود في فلسطين خلال 1920م تلو ثورة روسيا سنة 1917م اندلعت تظاهرات عنيفة من قبل الفلسطينيين ضد المشروع الصهيوني والتي أفضت إلى إماتة خمسة من اليهود مع استمرار التظاهرات في الشهور المقبلة. في مايو 1921م اندلعت اصطدامات على مستوى كبير في جافا ثم توسعت إلى المدن الأخرى والتي هاجم الفلسطينيون خلالها على بيوت اليهود ومتاجرهم. ذلك أفضى إلى 47 قتلى من اليهود وإلى الاصطدام مع القوات البريطانية التي أفضت إلى مقتل 48 من الفلسطينيين. لجنة هيكرافت التي أقامها الحكم البريطاني

للنظر في الأمر أبدت رأيها أنه على الرغم من أن الفلسطينيين كانوا ممن أثاروا الصدام إلا أنها نبئت منهم مخافة من كثرة اليهود المهاجرين. بالنتيجة قامت بريطانيا بوقف مؤقت على هجرة اليهود.

في سنة 1929م وقعت صدامات عنيفة بعد أن تصاعدت الخلافات المتعلقة بالعبادة عند الجدار الغربي في يروشلّم واندلع العنف بين اليهود والفلسطينيين ما أدى إلى إمامة 113 من العرب و116 من اليهود. واللجنات المعنية بصدها أشارت على ضرب الحد لهجرة اليهود.

تغيرت الأوضاع من المقاومة العشوائية إلى المنظمة مع بروز عز الدين القسام على ساحة المقاومة الفلسطينية الذي قام بنظم المنظمات المسلحة للجهاد ضد الصهاينة وضد بريطانيا المعاضدة، وذلك باسم الدين وليس باسم القومية الفلسطينية.<sup>289</sup>

ثم وقعت ثورة امتدت من 1936م إلى 1939م، شارك فيه الفلسطينيون بالإضرابات التي بدأت من نابلس وتوسعت إلى حيفا وجنين مع المطالبات التي دارت حول الأمور التي سبقت من إيقاف قاطع على هجرة اليهود وحظرهم من شراء الأراضي. كان يرأسها القواد المحليون في البداية ثم أخذت بزمامها اللجنة العربية العليا التي قد تمت تأسيسها أياما من قبل اندلاع الثورة على يد حاج أمين الحسيني وراغب النشاشيبي. اهتمتها بريطانيا بالعنف والثورة وجعلتها في قائمة التجمعات المحظورة في سنة 1937م. تهدأت الثورة لوقف قصيرة لتنتعش من جديد في سبتمبر 1937م بعد أن قامت اللجنة برفض مشروع لجنة بيل التي قدمت مشروع التقسيم وبعد أن حاولت بريطانيا اعتقال الحسيني. خلال هذه الأعوام الثلاثة تعرض الفلسطينيون بتلف الأنفس الهائلة وضياع الأراضي الكبيرة، ونفت بريطانيا عدد اكبرا منهم واعتقلت منهم كثيرا حتى يبلغ عدد هولاء الضحايا حوالي عشرة في المائة



من الشعب الفلسطيني. وكذلك اهدمت قوة الفلسطينيين العسكرية والاقتصادية على أن بريطانيا قامت بتنفيذ

قانون يحظر الفلسطينيين من امتلاك السلاح ويجعله جريمة تستحق عقاب الموت.<sup>290</sup>

## المقاومة الفلسطينية كمقاومة عربية من الانتداب إلى حرب 1967م

كانت الثورة العربية ضد الدولة العثمانية مبنية على أساس فكرة القومية العربية التي تمخضت فيها الوطنية العربية. كان هناك انحدار من الهوية الإسلامية إلى هوية اللغة العربية والثقافة العربية على غرار الفلسفة الرومانتيكية كما أشرت إليه في مقالتي عن تطور العروبة. فكان طبيعياً أن تتلون القضية الفلسطينية بالقومية العربية وبرزت المقاومة الفلسطينية كمقاومة عربية ضد الاستعمار البريطاني وضد المشروع الصهيوني بين حقبة الانتداب والنكسة الكبرى أي حرب 1967م.

كانت القومية العربية قومية واسعة تشمل كل ما هو ومن هو عربي ما عرف بالإنجليزية بـ Pan-Arabism، إزاء القومية التركية كما كانوا يظنون، ثم إزاء القوميات الأوروبية أي فرنسا وبريطانيا. انفتحت نواة القومية العربية بداية من المطالبات للدولة العربية المستقلة ومتطورة بين الحربين العالميتين إلى أن تبلورت في عهد الرئيس جمال عبد الناصر ثم تدهورت منذ حرب 1967م. منذئذ بدأت القومية العربية تنشق إلى القوميات الوطنية شتتا وغلبت المصالح المحدودة إزاء مصالح القومية العربية. فبدأت تبرز المقاومة الفلسطينية المبنية على فكرة القومية الفلسطينية.

أولى المحاولات العربية المنظمة برزت في سنة 1930م عندما عبرت 22 من الدول العربية المستقلة وغير المستقلة في مؤتمر في يروشل عن تأييدها للفلسطينيين. اتخذت الدول قرارات عديدة من مقاطعة البضائع والشركات اليهودية وتأسيس وحدة العرب والرفض بتقسيم فلسطين، وتأسيس بنك عربي في فلسطين وتأسيس جامعة في يروشل.<sup>291</sup>

وكذلك الشعب العربي كان معنيا بما يدور في فلسطين وكانت الصحف العربية تنشر ما يجري مع إخوانهم الفلسطينيين العرب، وكانت جماعات ممثلة للفلسطينيين تسير خلال المدن العربية لحشد التأييد والتعاون فاستجاب الشعب العربي بتقديم المساعدات السياسية والاقتصادية للفلسطينيين باعتبارهم ضحايا الاستعمار البريطاني والصهيونية التي تتبنى مشروع الاحتلال والتوسيع.

على الرغم من أن الشعب الفلسطيني أحرز على التأييد العربي، إلا وضع هذه الدول كان رديئا. كانت الدول العربية قسمتهم في الانتدابات<sup>292</sup> العديدة فبرزت منهم قوميات عديدة وتضعفت الحركة العربية المتحدة إلى الحركة القومية المحدودة إزاء المستعمر بريطانيا كانت أو فرنسا. على المستوى العملي لم تكن الدول العربية مستقلة تماما فلم تكن في أيديهم قوة الصراع والدفاع النهائي. فلم تزد المحاولات إلا كنوع من التعبير المشاعري تجاه القضية الفلسطينية.<sup>293</sup>

مع نهاية الانتداب الأوربي سنة 1948م برزت على الساحة العربية لا دولة عربية واحدة بل ثلاث دول عربية من الأردن وسوريا ولبنان وحاذتها دولة جديدة إسرائيل أعلنت هيئة الأمم المتحدة بقيامها في قرار رقم 181، بحسبه هي تشتمل على خمس وستين في المائة من أرض فلسطين الانتدابية وأصبحت مدينة يروشلم تحت حكم دولي خاص.<sup>294</sup>

استقبلت الحركة الصهيونية القرار ورفض به العرب والفلسطينيون خاصة. بدأ مفتي فلسطين وحركة الإخوان المسلمين حملة تدعو إلى تأسيس جيش عربي لتحرير فلسطين. قام أهالي دمشق بالإضرابات ضد القرار في حين

<sup>292</sup> الانتداب يشمل المناطق تحت النفوذ أيضا، أوجزت التعبير للسهولة.

Ibid, 31-32<sup>293</sup>

Ibid, p 50<sup>294</sup>

اندلعت الصراعات في حلب ما أدى إلى قتل 76 يهوديا وإحراق مساكنهم ومتاجرهم، وكذلك اندلعت الحرب الأهلية بين الفلسطينيين واليهود في فلسطين الانتدابية وخاصة في يروشلم، جافا، تل أبيب، طبريا، غليلي وحيفا. مع حلول مارس 1948م شارك المتطوعون العرب ما يقرب عددهم ستة آلاف مع إخوتهم الفلسطينيين. وفي أبريل في نفس السنة بدأت اللجنة العربية التي تم تأسيسها سنة 1945م تستعد لحرب عربية منظمة من عراق، سوريا، لبنان، مصر، والأردن ضد إسرائيل.<sup>295</sup>

يقال أن بعض القواد العرب كانوا يؤيدون القرار مثل عبد الرحمن عظام-الأمين العام للجنة العربية- الذي سرّ إلى إياهو ساسون الإسرائيلي بارتضائه للقرار وأنه لا يشجع على الإعلان به، كما كان عبر الملك الأردني عبد الله رأيا مماثلا خلال محادثاته مع غولدمير وساسون.<sup>296</sup>

وقبل أن تقوم الدول العربية بالهجمة كانت إسرائيل قد أتم تنفيذ مشروعه دي(D)، طبقا لهذا المشروع كانت إسرائيل نظمت محاولاتها للاستيلاء على المناطق التي منحت لها من خلال قمع المقاومات العشوائية من قبل الفلسطينيين العرب. مع حلول مايو 1948م عندما بدأت الدول العربية هجماتها كانت إسرائيل قد استولت على المناطق التي منحت لها وزيادة. ولجأ الفلسطينيون ما يقرب عددهم ثلاث مائة آلاف بالهروب من مساكنهم.<sup>297</sup> واحدة من المذبحة الدامية التي دارت هنا خلال هذه الحقبة كانت مذبحة دير ياسين، وهي قرية فلسطينية كان أهاليها اتفقوا مع المنظمة العسكرية اليهودية هاغناه أنه لا يهاجم بعضهم البعض ولكن قوات

---

Ibid, p 51<sup>295</sup>

Ibid<sup>296</sup>

Ibid, p 53<sup>297</sup>

إيرغون ليهي - وهي جماعة متشعبة من هاغاناه - هاجموا قرية دير ياسين وقتلوا أهاليها من الرجال والنساء والولدان حوالي مأتين وخمسين قتلى. كانت المذبحة نظيرة لنفسها في الخداع والسفك.<sup>298</sup>

الهجمات العربية المتحدة أولاً حازت على بعض المستوطنات الإسرائيلية إلا أن القوات الإسرائيلية مع حلول الدور الثالث من الحرب قد كانت احتلت الأراضي التي منحت لها وعلاوة على ذلك. تم إعلان الهدنة من قبل هيئة الأمم المتحدة. طبقاً لهذه الهدنة بقيت منطقة غزة التي كانت مصر احتلتها في أيدي مصر، والحدود بين لبنان بقيت موافقة للقرار، وحازت الأردن على أراضٍ احتلتها في الضفة الغربية وخاصة يروشلماً الشرقية والمدينة القديمة. واحتلت إسرائيل على مناطق أخرى علاوة على ما في القرار من غليلي، تل أبيب وممر يروشلماً. تعرض الفلسطينيون أسوأ العواقب من التلف والضياع. فعلى تقدير الهيئة المتحدة أجبر قرب 710000 من الفلسطينيين للخارج من أجل الحرب.<sup>299</sup>

اتجاهات الأحداث ومصائرهما تبدو قد عينت مسار المقاومة الفلسطينية. كانت العروبة أولاً تمنح الهوية ضد الدولة العثمانية ثم ضد الاستعمار الأوروبي، لكن الهوية هذه بالتحديد ما آلت إلى التحقيق لأي دولة أو كيان تبنت الهوية العربية. بل تحققت الهويات الضمنية ضمن الهوية العربية من المصرية والأردنية والسورية واللبنانية، فأصبحت الهوية الفلسطينية مشبوهة المصير.

على المستوى النظري كانت العروبة كهوية واحدة تقوم لكل العرب، ولكن على الأرضية الواقعية كانت منقسمة على هويات ضمنية عديدة. ومن بين هذه الهويات الضمنية ما اتخذت فلسطين هوية ضمنية بالتحديد على

---

Ibid, p 52-53<sup>298</sup>

Ibid, p 55-56<sup>299</sup>

خلاف الدول العربية الأخرى. فصارت الهوية الفلسطينية منقسمة على هويات متعددة من المصرية والأردنية والسورية واللبنانية. ظلت هذه الهويات الضمنية متنافسة فيما بينها فيما بعد وأصبحت الهوية الفلسطينية لقية تلقفها تلك الهويات الضمنية لصالح هويتها بالتحديد. رفعت المحاولات العربية لدفاع فلسطين عن هويتها المحددة أي الهوية الفلسطينية. ولو أن فيه دور كبير لعدم بروز قيادة فلسطينية على المستوى المحلوظ. لم تتجاوز الهويات الضمنية وراء المصالح الوطنية ولم تحاول لتشديد الهوية الفلسطينية بالتحديد.<sup>300</sup>

وصلت اللعبة إلى نهاية الطريق بعد النكسة الكبرى سنة 1967م. بعدئذ أخذت الهوية الفلسطينية في الانتعاش، وتقدمت وجها لوجه أمام الهوية الإسرائيلية بدون قناع العروبة. انكشفت الهوية العربية إلى الهويات الوطنية الصغيرة والمحددة.

شاركت الدول العربية أجمعها في هذا الحرب التي تسميه إسرائيل ب -حرب الأيام الستة- انهزمت فيها جيوش المتحدة من مصر وسوريا ولبنان والأردن. صفعت الحرب ضربة على الناصر والعروبة الناصرية بشدة لم يبرأ منه ناصر ولا الناصرية أبدا فيما بعد.

احتلت إسرائيل على ثلاثة أضعاف من الأراضي مما كانت تملكها قبل الحرب. تحققت لإسرائيل الاحتلال من الأراضي الأردنية على يروشلّم الشرقية والضفة الغربية، ومن مصر على منطقة غزة وجزيرة سيناء، ومن سوريا على هضبة الجولان. وفي يونيو 1967م اتفقت إسرائيل على إيقاف الحرب واتخذت الدول العربية قرار خراطوم فتعهدوا لبذل الجهود لاسترجاع الأراضي المسلوّبة وأنه لا يكون أي نوع من القرار الأمني أو تسليم إسرائيل

وأنة لا تكون هناك أية مفاوضة مع إسرائيل.<sup>301</sup> وسعت إسرائيل استيلائها على المناطق المحتلة مع مشروعات توسيع المستوطنات في تلك المناطق وخاصة في غوش إيتزيون (Gush Etzion)، حبرون، يروشلم الشرقية، هضبة الأردن، العريش وهضبة الجولان.<sup>302</sup>

قامت هيئة الأمم المتحدة بإعلان قرار رقم 242 الذي دعى، علاوة على إرجاع المناطق المحتلة، إلى تسليم كل الدول القائمة عندذاك، يعني ذلك أن الدول العربية التي تقبل هذا القرار أيضا تسلم دولة إسرائيل. أخذت مصر والأردن القرار أخذ قبول بدون استشارة الفلسطينيين.

اتخذت الصراع العربي الإسرائيلي منعطفا جديدا منذئذٍ. فإن النزاعات والمحاولات السياسية بدأت تدور حول الأراضي التي سلبت من الدول العربية وليس حول ضياع فلسطين سنة 1948م.<sup>303</sup> أصبحت القضية الفلسطينية ثانوية المصير وانسلخ القناع من وجه العروبة وتبرزت الهويات الضمنية حاسرات الوجوه. تبينت لدى الفلسطينيين خطأهم من جعل قضية فلسطين قضية عربية.<sup>304</sup> تهدمت العروبة وزعزت ثقة الفلسطينيين في الدول العربية المجاورة.<sup>305</sup>

---

Ibid, p 129<sup>301</sup>

Ibid<sup>302</sup>

Ibid, p 118<sup>303</sup>

Ibid, p 134<sup>304</sup>

Ibid, p 149<sup>305</sup>

## المقاومة الفلسطينية كمقاومة وطنية

شاهدت الأعوام التالية بروز حركة فتح كقوة قومية فلسطينية وخاصة بعد أن انتصر الفلسطينيون في حرب كرامة مدغرة سنة 1968م.<sup>306</sup> حاولت فتح ونجحت سنة 1969م في محاولاتها للاستيلاء على منظمة التحرير الفلسطينية التي تم تأسيسها من قبل اللجنة العربية سنة 1964م.

على يد أخرى برزت جماعات أخرى مدغرة حاولت استخدام أرض الأردن للهجمات المدغرة على إسرائيل ظنا أن الحكم تنقصه القوة الأخلاقية من أن يمنعهم من هذه النشاطات إلا أن ظنهم قد خاب. قام الحكم الأردني بحملة تعرف بسبتمبر الأسود سنة 1970م، استهدفت إلى تمحيص أرضه من الفلسطينيين ومن الجماعات المدغرة. لجأ الفلسطينيون بالهرب إلى سوريا ثم إلى لبنان.<sup>307</sup> ثم اتجهوا إلى تونس لما اشتد عليهم الأمر في الدول المجاورة. واتخذت حركة فتح من النشاطات الإرهابية وسيلة للمقاومة.

في سنة 1974م جعلت قمة الرباط منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة وحيدة عن الفلسطينيين، وقبلت المنظمة مشروعاً مؤقتاً وأبدت رضاهاً للمشاركة في مؤتمر جنيف سنة 1973م، وفي نوفمبر من نفس السنة قدمت هيئة الأمم المتحدة دعوتها إلى ياسر عرفات رئيس المنظمة لإلقاء الخطاب ومنحت المنظمة وضع كيان ناظر في الهيئة.<sup>308</sup> وخلال فترة من 1975م و 1986م بذلت إسرائيل مجهوداتها لتضعيف قيادة المنظمة في الضفة الغربية. وفي غزة حاولت إسرائيل تعزيز الحركة الإسلامية إزاء المنظمة.<sup>309</sup>

---

Ibid, p 159<sup>306</sup>

Ibid<sup>307</sup>

Ibid, 164<sup>308</sup>

Ibid, p 196<sup>309</sup>



في غضون ذلك كانت هناك محاولات من قبل مصر لإقامة علاقة سلمية مع إسرائيل ما تأوجت في توقيع اتفاقية كامب ديفيد سنة 1978م والتي اتفقت إسرائيل فيها بإرجاع سيناء إلى مصر وإعداد خطة لحكم مستقل في الضفة الغربية ومنطقة غزة في الأعوام الخمسة القادمة.<sup>310</sup> اقتدت خطوة مصر المغرب وعمان وسودان، ووقعت الأردن على إتفاقية لندن. طبقا لهذه الاتفاقية، جميع القضايا المتعلقة بفلسطين يتم تناولها من خلال المفاوضات بين الأردن وإسرائيل، وأن الجماعات التي تريد المشاركة في المفاوضات يجب عليها التنازل عن النشاطات العنيفة والإرهابية، ويعني ذلك أن منظمة التحرير الفلسطينية لا يمكن لها الشركة في المفاوضات.

ففي كلتا الاتفاقيتين تم تنحي الفلسطينيين من المشاركة في المفاوضات التي تعين مصيرهم. فلم يبق لديهم إلا النشاطات غير الشرعية التي ردت عليها إسرائيل ردا عنيفا كما حدث في الهجمات الإسرائيلية على لبنان وخاصة العمليات المليشية في مخيمات الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا سنة 1982م. قتل فيها مئات من الفلسطينيين رجالا ونساء، ولدانا وشيوخا على أيدي مليشيات المسيحيين المارونين التي كانت تدعمها إسرائيل.<sup>311</sup>

منذ 1987م قد تبينت الأمر كل التبيان أنه ليست قوة خارجية تستطيع على نصر الفلسطينيين. وكانت قضية فلسطين آخرة في قائمة الموضوعات في القمات العربية. وكذلك لم تثمر محاولات منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت تجري عملياتها من تونس فلم تصل إلى حل سياسي لا للفلسطينيين تحت الاحتلال ولا للاجئين في الخارج. في هذه الخلفية نجد بروز الحركة المتجذرة في المحلية في فلسطين التي اشتهرت بالانتفاضة في الضفة الغربية و غزة في 1987م والتي أجبرت إسرائيل على إنهاء مؤقت للاحتلال السري المستمر. (creeping

<sup>310</sup>Ibid, p 199-200

<sup>311</sup>Pappe, Allen, A History of Modern Palestine, p 223

(annexation). من تلك السنة بدأت إسرائيل دمج المناطق الفلسطينية في إسرائيل وإقامة حكومات فلسطينية منصاعة لإسرائيل.<sup>312</sup>

ثم يأتي اتفاقية أوسلو سنة 1993م التي شاركت فيه إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية.<sup>313</sup> ومع نهاية القرن تعتبر الاتفاقية ميتة، والفلسطين السياسة التي تشتمل على غزة والضفة الغربية مأخوة في الحرب مع إسرائيل وبالنتيجة أصبحت معظمها تحت احتلال أكثر بأس. ولا تبدو الأوضاع تتحسن للفلسطينيين. في 1917م كانت هناك حملة لانعقاد مؤتمرات حول العالم حول استحقاق الفلسطينيين للرجوع إلى فلسطين، ولا يعلم المال إلا الله، وندعو للفلسطينيين بالخير والصبر والتقوى، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً. وانتهى الكلام عن تاريخ فلسطين.

في شرق النخيل تجري القصة على لسان صديق البطل سمير المصري من خلال محادثاته مع عصام الفلسطيني وهما طالبان في الجامعة. بيدي الروائي أسفه وغضبه على ما آلت إليه الأمور والأوضاع المتعلقة بهذه القضية الشائكة. بيدي أسفه على مدى تعقل سمير للقضية. سمير يهزأ بأخيه الفلسطيني ويعيش عيشة لاهية غافلاً من المهمة التي كانت على عواتق الشبان عامة والطلاب خاصة من كونهم واعين عن القضية.

هذه الرواية تم طبعها أولاً في سنة 1985م. والزمن القصصي في الرواية هو زمن ما بعد نكسة 1967م التي زعزت العقلية العربية وجرتهم في اليأس و اللامبالاة وخاصة مصر التي ولت ظهرها من فلسطين في عهد السادات بعد أن كانت مهمتها المفضلة في عهد الرئيس جمال عبد الناصر.

---

Ibid, 232-233<sup>312</sup>

Ibid, p 243<sup>313</sup>

على خلاف السرد القصصي يستخدم الروائي السرد التقريري والتصوير المباشر عن حقيقة تاريخية على لسان سمير فائلا: "في تلك الأيام كان يشاركني غرفتي في شقتنا المزدحمة طالب هندسة فلسطيني خجول اسمه عصام يدمن القراءة وينصحني أنا أيضا أن أقرأ فأسخر منه. أنا وقتها لم أكن أصلا أقرأ مواد الكلية فكيف أهتم بقراءة التاريخ والسياسة والأشياء الفارغة التي تضيع الوقت؟ كانت آرائي في كل شيء تتكون مما أتلقفه وأسمعه من أحاديث الناس، وكانت كلها آراء مريحة للنفس فالهزيمة التي نعيشها اسمها نكسة، والنكسة حدثت لمجرد صدفة سنصلحها بإذن الله بأن نزيل آثار العدوان، أما الفلسطينيون فقد فقدوا وطنهم لأنهم باعوا أرضهم لليهود. وأما العرب فهم يخونوننا ويتخلون عنا في كل حرب ومع ذلك فيجب أن نحتلمهم لأن هذا هو قدرنا. سمعت آخرين يرددون ذلك بكل ثقة ففعلت مثلهم دون أن أشغل نفسي بالقراءة عنه أو مجرد التفكير فيه. ولماذا أفكر وهذه الآراء تعطى شعورا لذيذا ومريحا كما قلت لك؟! الإحساس بأننا فعلنا كل ما علينا لكن الظروف هي التي خانتنا والزمن الغادر؟ وكنت أحيانا أقول هذا الكلام لعصام وأنا أمزح معه أقول له أنتم بعتم أرضكم لليهود فلا داعي للتظاهر بالحزن ولا لعبارات الوطن السليب وعائدون وأجراس العودة وما أشبه. ولكن لا تهتم يا عصام فنحن سنحرر لكم الوطن السليب ونعيدكم إليه رغم أنوفكم. سنحرمكم من الثروات الفاحشة التي تجمعونها وأنتم تتظاهرون أنكم لاجئون مساكين. وكان عصام يعرف رغم قسوة ما أقول أي لست سيء النية. أي أمزح معه كما أمزح مع الآخرين في الشقة. كما كنت أقول لزملائي البحاروة في الشقة مثلا لولا نحن الصعايدة لظل الهكسوس يكتمون على أنفاسكم حتى اليوم. أو كما كنت أقول لزميلنا السكندري دخل الإنجليز مصر بسبب خناقة حماركم مع رجل مالطي ودفنا سبعين سنة من عمر البلد بسبب غباوة حمار من بلدكم. وكان زملائي في الشقة بدورهم يسخرون من الصعايدة وتبادل جميعا هذا النوع من المزاح الثقيل. وعندما كنت أقول لعصام ما أقول كان يجاوبني بالضحك ولكن وجهه يفضح الألم لأنه يعلم أن مزاحي معه هو بالذات يمثل رأيا. كان يحاول

أن يثبت لي أني مخطئ فيعطيني كتباً لأقرأ لكي لا أفتحها، وذات مرة كان حزينا وصامتا لسبب لا أدريه أردت أن أمزح معه كعادتي لكنه انفجر في غضبا وقال أعطيتك كتباً لتقرأ ولتفهم فلم تفعل. إن قلت هذا الكلام في وجهي فلا تكلمني بعد اليوم. سأقول لك يا سمير كيف باع جدي وأبي أرض فلسطين.

وأخذ عصام يكلمني بصوت مرتفع ببطء. وهو يشوح بيديه كأنه يعلم درسا لطفل. قال لي أنا من قرية اسمها حلحول في فلسطين يا سمير. كان الإنجليز يحتلون فلسطين ووعدوا بها اليهود يا سمير. بدأوا يهجرون اليهود لفلسطين ويعطوهم الأرض والسلاح فثار الناس وحملوا السلاح ليدافعوا عن أرضهم يا سمير. بهذه الطريقة بدأ عصام يحكي لي عن أسرته في حلحول.

قال لي إنه عندما حدثت أول ثورة كبيرة في فلسطين على هجرة اليهود، أرادا الإنجليز أن يؤدبوا الفلسطينيين ليعرفوا أن الوعد بمنح بلادهم لليهود ليس كذبة. وكانت حلحول بين القرى التي أدبوها. ذات يوم جاء جنود الاحتلال للقرية الصغيرة وقال الإنجليز لأهلها هناك 36 من الثوار من أهالي حلحول وعندكم 36 بندقية لا بد من تسليمها لنا. ولم يكن من في القرية يعرفون شيئا عن بنادق الثوار، ولو عرفوا لما سلموها لكن الإنجليز قالوا سنرى. جمعوا من في القرية من الشيوخ وصفوهم وقوا في الشمس، في الصيف، وقالوا ستظلون واقفين هنا حتى تظهر البنادق. وتناوب الإنجليز حراسة أسراهم الواقفين الممنوعين من الجلوس بالنهار والليل. ومر اليوم الأول ولم يتكلم أحد. وفي اليوم الثاني طلب الأسرى الماء فطلب الإنجليز البنادق. وعندما سقط الضعاف على الأرض إعياء وعطشا لم يسمح الإنجليز برفعهم من مكائهم. وهكذا مر اليوم الثالث دون نوم ودون جلوس وذن ماء ولا طعام. وزاد عدد من عجزت أقدامهم عن حملهم. وفي اليوم الرابع بدأ الشيوخ يموتون.

قال عصام، وكان جدي ضمن من ماتوا هناك يا سمير وهكذا باع جدي أرض فلسطين. ثم حكى لي عصام عن أبيه. قال عندما جاءت حرب فلسطين في سنة 48 ودخلتها الدول العربية قالت هذه البلاد للفلسطينيين أن يهاجروا منها إلى أن تطهر الجيوش العربية أرض فلسطين وتقضى على عصابات الصهاينة. ولكي يعجل اليهود بهذه الهجرة بدأوا يذبحون الفلسطينيين في دير ياسين وفي غيرها ليلقوا في قلوبهم الرعب. وبدأن الناس يهاجرون ورفض أبو عصام. قال لمن معه إن كان علينا أن نموت فلنمت ونحن ندافع عن أرضنا ولا داعي لأن نموت ضحايا كما مات آباءنا. كان واحدا ممن حملوا بناذقهم وأجسامهم أمام دبابات اليهود وسقطوا هناك دون أن يذكر أسماءهم أحد.

وقال لي عصام وهكذا باع أبي أرض فلسطين يا سمير. وعندما انتهى عصام من حكايته كانت عينه تلمع بالدموع خلف نظارته الطبية فاعتذرت له وشعرت بخجل من نفسي. لا أقول لك إن آرائني تغيرت ولكني كففت عن المزاح معه في مسألة بيع الأرض. وبعد فترة جئت أنا وسكنت معك فلم أعد أرى عصام إلا نادرا، ثم انقطع عني فلم أعد أراه أبدا. وذات يوم كنت أمسك صحيفة يومية أقلب فيها ففاجأتني صورته بوجهه النحيل ونظارته الطبية وتحتها العبارة التالية الشهيد الفلسطيني أبو كذا وبين قوسين عصام الفلاني الطالب بهندسة القاهرة. لم يكن عصام قد حدثني أبدا عن أنه سيتطوع أو سيشترك في الثورة، لم يناقشني في مستقبل القضية أو الكفاح. كما فعله أنه ذهب هناك مثل أبيه ومثله قرر ألا يموت ضحية وأن يعود دمه لأرض وطنه. وعندما قرأت نعيه في الصحيفة كتبت كلمة صغيرة في انفعال حزني. كتبت عن استشهاد عصام وأبيه وجدته وأعطيت الكلمة لزميل من بلدتنا يجرر إحدى صحف الحائط في الكلية كان هو أيضا مثل عصام، يطلب مني أن أقرأ وأن أكتب... " 314

<sup>314</sup> طاهر، بهاء، شرق النخيل، ص 296-267

بعدئذ يتغير سمير كثيرا من كونه شابا لا يهتمه إلا البنات والغناء والتفرج إلى تحوله شخصا يهيمه كل الأمور الوطنية والعروبة وفلسطين. ينضم إليه عدد كبير من زملائه في التظاهرات التي ينظمها وهم يستعدون دائما لتقديم التضحيات من أجل مواقفهم.

روايته "الحب في المنفى" تملأ بسرد طويل عما حدث مع اللاجئين الفلسطينيين في سنة 1982م في لبنان حينما قامت إسرائيل بالهجمة الضخمة على اللاجئين الفلسطينيين في مخيمات صبرا وشاتيلا خاصة. يكرب كثيرا لأجلهم ومما ظهرت من التصاوير المروعة من أموات هائلة ودمارات شاملة. يصور الروائي تصويرا صحفيا مفصلا عن الأحداث ويتعجب من ردود الفعل من قبل الدول العالمية والشعب العالمي. يرى أن العالم الذي لا يكل عن تفوهاته وصراخاته عن الإنسانية يبدو صامتا أبكم على هذه المجازر اللاإنسانية. "أصاب بلدنا الحر مرض غريب هذه الأيام، أصابه الخرس فلم ينطق شيئا عن الجرائم ضد حقوق الإنسان ما دامت تأتي من الدولة العبرية، يرجع صحفيون من هناك يريدون أن يحكوا عن الفظائع التي رأوها لكن ما يكتبونه لا ينشره أحد أليس كذلك" يذكر بالتفصيل عن الحدث من خلال ما نشر في الصحف وكيف أن صحيفة اعتبرت الهجمة خطوة لصيانة إسرائيل و إبادة المجرمين.<sup>315</sup> ويذكر ما كانت الصحف تنشر من دلائل تستند على ما فعل بهم النازية في ألمانيا تبريرا فيقول "ومع ذلك فكل شيء يصلح، الحديث عن النازية والخيل العربية وهدم مباني الفقراء القديمة والتبرعات لإسرائيل، كل شيء يصلح ما دمت تنجح!<sup>316</sup>

<sup>315</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 253

<sup>316</sup> نفس المصدر، ص 254

ويذكر بانحياز وسائل الإعلام. قلما كانوا يقدمون ما حدث في المجازر في المخيمات التي يحلها الفلسطينيون، بل كانت التلفاز تنشر بكاء الإسرائيليين وغضبهم "موت طفل واحد هو موت الدنيا كلها بالطبع، ومع ذلك فلن يسألك أحد كم طفلا قتلوا في الجليل: خمسة أو عشرة؟.. وكم ألفا من الأطفال أبادتهم إسرائيل في لبنان ومن قبلها في فلسطين؟... ولم لا؟ لست وحدك... كانت الأخبار في الصباح تتحدث عن سقوط مئات القتلى والجرحى كل يوم في المدينة المحاصرة، فينقل تليفزيون البلد في المساء احتفالا مهيبا مليئا بالمراسم الدينية وبالدموع وبالغضب لدفن أربعة جنود إسرائيليين سقطوا في "الحرب". لا يحزن العرب لقتلهم بالطبع! ولم لا. بشر حقيقيون وبشر لا حاجة لهم على الاطلاق. وكنت قد قرأت في صحيفة "التقدم" أيضا هذا التصريح لبشير الجميل، المرشح رئيسا للبنان، وقال فيه هناك في منطقتنا شعب لا لزوم له، اسمه الشعب الفلسطيني!"<sup>317</sup>

يذكر أيضا أن إسرائيل كانت مدعومة من قبل أمريكا قائلا "وعرفت معظم الأخبار من التليفزيون.. تابعت ابتسامات المبعوث الأمريكي إلى لبنان فيليب حبيب وتصريحاته عن نجاح خطته لوقف إطلاق النار. وحاولت ألا أفكر في أن أمريكا هي التي زودت إسرائيل بالطائرات والقنابل التي تقتل وتشعل النار، وهي نفسها التي ترسل المبعوث لوقف إطلاق النار، حاولت ألا أفكر في أنها هي القاتل وهي المعزي، وما فائدة مثل هذه الأفكار ما دامت هي نفسها أيضا التي توسطت لترحيل المقاومة من لبنان؟.. ما دامت قد قررت وأرسلت بالفعل تلك القوة العسكرية مع حلفائها لنفي المقاتلين الفلسطينيين من هناك ووقعنا نحن معها على ذلك وتصافحنا؟.. ما دام كل شيء قد انتهى وبدأت المقاومة تخرج من لبنان."<sup>318</sup>

<sup>317</sup> نفس المصدر

<sup>318</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 254

ثم يبين ما حدث في المجزرة. لكن الأخبار تأتي بعد أن أنجزت إسرائيل مهمتها الدموية "هذه أول مرة تدخل فيها الكاميرا إلى مخيم صبرا بعد المذابح ضد الفلسطينيين خلال الأيام الماضية... تتحول الكاميرا بعد ذلك في صمت. تتجول وسط أزقة ضيقة، وسط بيوت مدمرة تبرز منها أسياخ حديد ملتوية وبقايا أثاث محطم ولكن لا مظهر لأي حياة تتحرك، ثم تتمهل الكاميرا وهي تنقل الصور من بعيد.

أكوام من الجثث. وجثث فوق جثث.

جثث وراء جثث. وجثث فوق جثث.

كومة لجثث مختلطة لرجال ونساء ملقاة على وجهها وجنوبها وظهورها.

كومة أخرى ترتمي على ظهورها وسيقانها منفرجة، نساء وأطفال..

كومة ثالثة جثث رجال منتفخة كأن جلودها وثيابها ستنفجر في أي لحظة.. بحيرات دم متجلط تحت الرؤوس وحول الأجساد.

جثث أخرى لرجال وأطفال يحتضنون بعضهم البعض بسواعد ملتوية..<sup>319</sup>

في صبرا وشاتيلا ذبحت إسرائيل والكتائب وجيش سعد حداد آلاف الفلسطينيين<sup>320</sup>

يرى الروائي صلة بين هذه المذبحة والمذبحة التي وقعت أعواما من قبل عام 1948م، فيقول على لسان البطل في خلفية أن الدول تمنع الناس من المظاهرات ضد إسرائيل "هم يريدون أن تموت الحكاية بالصمت كما كانت

<sup>319</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 259, 260

<sup>320</sup> نفس المصدر، ص 261, 262



جرائم أخرى. يريدون أن تموت الذاكرة ويموت الغضب ليستمر اللعب في الخفاء... سأحدثكم عن مذبحه واحدة وقعت في فلسطين في سنة 1948م أعلنوا العرب واليهود معا أنهم لا يريدون أن يشاركوا في الحرب، فكافأت عصابات الإرجون الإسرائيلية سكانها المسلمين... مذبحه دير ياسين،... أباد الإسرائيليون ثلثي سكان القرية ذبحا وطعنا فلم يبق حيا إلا من لاذ بالفرار. حكى كيف قتلوا أطفال القرية وشيوخها وبقروا بطون نساءها الحوامل وتساءل ما الذي جرى في صبرا غير ذلك؟ .. ومن كان رئيس عصابة الإرجون الذي ارتكبت المذبحة؟ .. أليس هو بعينه مناحيم بيجين رئيس الوزراء إسرائيلي هذه الأيام؟ أيامها لم يكن هناك تليفزيون ينقل الصور ولم تكن هناك كتائب تكلفها إسرائيل بالعمل، أما الآن فأنتم رأيتم المجزرة وعرفتم أن من ارتكبوها كانوا يطبقون الدروس التي نفذتها إسرائيل من قبل في دير ياسين وفي قبية وفي عين الحلوة، وأن الهدف كان واحدا في كل مرة: إبادة الفلسطينيين ونفيهم من أرضهم ثم من كل أرض يلجأون إليها، فماذا سيفعل العالم لوقف إبادة شعبنا؟ .. إن كنتم قد نسيت كل المذابح السابقة أو لم تسمعوا بها فأنتم في هذه المرة قد رأيتم بأعينكم ولا عذر لكم.<sup>321</sup>

يبين أن إسرائيل أخفت المجزرة خلال تنفيذها، ولما فرغت بدأت ينشر التصاوير المهلكة لتفزع الفلسطينيين فيقول على لسان رالف اليهودي الذي شارك في مظاهرة ضد إسرائيل "حتى النازيون كانوا يحاولون إخفاء جرائمهم فهل سألتهم أنفسكم لماذا أرادت إسرائيل أن تعلن هذه الجريمة؟ ... لقد تعمدوا ترك هذه الجثث، لقد أرادوا أن يثيروا الفزع. أرادت أن تقول نحن نقدر دائما على مثل هذا. ما حدث في صبرا وشاتيلا يمكن أن يتكرر في غيرها. استسلموا، لا تفكروا في المقاومة"<sup>322</sup>

<sup>321</sup> نفس المصدر، ص 279,280

<sup>322</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 284

نجد الروائي في هذه الرواية مأخوذاً بالقلق الشديد والهلع المدعور مما يحدث مع الفلسطينيين وما رأى من ازدواجية القوى العالمية، خيانة الصحافة والإعلام، مهانة العرب أمام إسرائيل وتفريق كلمتهم. في هذه الرواية أيضاً على غرار شرق النخيل لقد تناول القضية من منظور العروبة أو كقضية إنسانية. لعله استهدف بهذا الطويل من الذكر توعية وإيقاظ العرب للمهمة التي على عواتقهم. في التالي سوف نأت بذكر وجيز عن تطور فكرة العروبة و حركتها.

### قضية العروبة:

لقد تناول الروائي قضية العروبة وقضية الوطنية في رواياته "شرق النخيل" و"قالت ضحى" و"الحب في المنفى" عن طريق السرد المباشر ما تنبض بالحساسية والحماسة والدعوة. وإن بهاء طاهر يتمتع بروح عربي عميق، وبحس تكونت أركانه في الفترة الناصرية، فهو يرى أن العروبة كانت وما زالت فكرة قابلة لإصلاح الحاضر والمستقبل معا.<sup>323</sup> وأما طريق المعالجة فيبدو من التصوير أنه يحاول أن يتخذ موقفا سويا بين العروبة والوطنية. يبدو لي حريا أن أقدم ذكرا وجيزا للعروبة في مراحلها التطورية نظريا.

تطورت العروبة مع احتكاك العرب بالغرب. انفتحت بذرتها الأولى على أيدي النصارى السوريين ثم اللبنانيين تحت تأثيرات البعثات النصرانية الدينية التي حملت معها الفلسفات الحديثة من فرنسا وأمريكا.<sup>324</sup> لا شك أن أول جيل من حماة العروبة برز من أجل التغييرات في البناء المجتمعي وانفتاح السوريين لتأثيرات أوروبا.<sup>325</sup> كانت فرنسا أكثر حماسة تجاه هذا الأمر بما أنها كانت تحتاج إلى دولة تقدر على إغلاق الممر لبريطانيا إلى الهند.<sup>326</sup> قدمت إعانتها لمحمد علي والي مصر حينما قام بالهجمة على سوريا الكبرى، واستقبله الشعب هناك كمحرر لهم من قوة الدولة العثمانية. بعد مجيء ابنه إبراهيم تقوت الحركة بما قام بتشجيع العروبة ضد الدولة العثمانية<sup>327</sup> وادعى أنه يحارب من أجل العرب ضد الأتراك.<sup>328</sup>

<sup>323</sup> عبيد الله، محمد، عالم بهاء طاهر، "ديوان العرب" ١ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٥، <http://www.diwanalarab.com/spip.php?article2543>

<sup>324</sup> Tibi, Bassam, Arab Nationalism A Critical Enquiry, P 71

<sup>325</sup> نفس المصدر، ص 73

<sup>326</sup> نفس المصدر، ص 71

<sup>327</sup> نفس المصدر، ص 70

<sup>328</sup> نفس المصدر، ص 72

على يد أخرى تطورت العروبة من منظور الثقافة العربية الوتيدة في اللغة العربية التي نالت تطورا ملحوظا على أيدي البعثات الأمريكية والفرنسية والروسية- بعثات نصرانية دينية. أفضت التطور اللغوي إلى تطور الثقافة العربية ثم الحساسية بالقومية العربية في أوائل أيامها كان تطور القومية العربية تطورا ثقافيا والتي برزت من أجل الاهتمام للثقافة العربية و تحديث اللغة العربية والتي نالت تشجيعا على أيدي البعثات الأمريكية.<sup>329</sup> وكان من أعلام هذه الثقافة ناصف اليازجي(1800-1871) وبطرس البستاني(1819-93) وإبراهيم اليازجي ابن ناصف اليازجي. إنهم قاموا بأعمال أدبية في اللغة العربية وتغنوا بالثقافة العربية الكبرى القديمة اعتبارا أن الثقافة هذه فالظلام قد غشاها تحت العثمانيين. قاموا بتأسيس عديد من المنظمات السرية وخاصة كلية البروستانت السورية<sup>330</sup> وكانت المحاولات الأولى محاولة ثقافية، ثم تطورت إلى محاولات سياسية على أيدي طلاب هذه الكلية الذين قاموا بطبع وتوزيع المكتوبات التي تطالب بالدولة العربية.<sup>331</sup> في أوائل القرن العشرين أصبح باريس المركز لإشاعة القومية العربية على أيدي العرب من السوريين اللبنانيين.<sup>332</sup>

اختلفت المجتمع العربي وخاصة المجتمع العربي الإسلامي مع شيوع القومية العربية اختلافا منهم من ذهب إلى دولة عربية مستقلة ومنهم من طالب بمقاطعة مستقلة تحت الدولة العثمانية، و منهم من قاموا مع الدولة الإسلامية كونها قيادة للأمة المسلمة.

---

Tibi, Bassam, Arab Nationalism A Critical Enquiry, P75 <sup>329</sup>

<sup>330</sup> نفس المصدر، ص 77

<sup>331</sup> نفس المصدر، ص 79

<sup>332</sup> نفس المصدر

مع الولوج في القرن العشرين ازدادت مؤامرات القوى الخارجية وخاصة فرنسا ضد الدولة العثمانية والتي كانت على اتصال دائم مع القوميين العرب وخاصة منذ 1908م حتى هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى<sup>333</sup>. كانت فرنسا انعقدت معاهدات سرية مع الولاة السورية والعربية<sup>334</sup> وتم انعقاد مؤتمر العرب القومي في باريس سنة 1913م. شارك فيه عديد من المندوبين العرب من المسلمين والمسيحيين. كان الاتفاق على أن هناك وجود وكيان لقومية عربية إلا أنهم لا يريدون دولة عربية منفصلة من الدولة العثمانية وكان من أبرز شركائه عبد الحميد زهراوي<sup>335</sup>. أعلن المؤتمر بتوجيه المحاولات إلى تحقيق القومية العربية من خلال الثورات حتى تتأتى لهم التمثيل في المجلس التشريعي العثماني<sup>336</sup>.

في سنة 1908 أتى زمام الحكم في أيدي الأتراك الفتاة على الرغم من أنه كان حتى الآن تحت الخليفة العثماني<sup>337</sup>. الأتراك القوميين الذين حاولوا استلهاهم هويتهم، على غرار الفلسفة الرومانتيكية الألمانية، من التورانية من منطقة توران وهي مكان نشأة قبيلة توران ما قبل الإسلام.

في حين كان العرب يحاولون تحديد هويتهم من خلال الثقافة العربية، كان الأتراك القوميون يحاولون تحديد هويتهم من خلال السلالة التورانية. كلا من القومييين اتفقوا ضد الدولة الاسلامية كونها إسلامية. فالعرب حاولوا الرجوع

<sup>333</sup> نفس المصدر، 82

<sup>334</sup> نفس المصدر، ص 84

<sup>335</sup> نفس المصدر، ص 85

<sup>336</sup> نفس المصدر، ص 86

<sup>337</sup> الكيالي، عبد الوهاب، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة العاشرة، 1990م، ص 44

إلى هوية غير إسلامية فوجدوا ذلك في اللغة العربية والثقافة العربية المظنونة، وكذلك الأتراك كانوا يبحثون عن الهوية غير الدينية.

برزت الخلافات بين القوميين الأتراك والقوميين العرب بعد أن حاول الأتراك بعد مجيئهم في الحكم سنة 1908م أن يجعلوا العرب تحت الدولة التركية التي لا يزال يطلق عليها الدولة العثمانية وسما.

كان المسلمون العرب يقنتون للدولة العثمانية كدولة تستمد قوتها الفكرية من الإسلام. أما النظرية التورانية فلم تكن لها القوة مثل الإسلام ورأى العرب قوميتهم أعلى من التورانية. هكذا نشب الصراع المميت بين القوميين من كلا الجانبين.<sup>338</sup> لجأ الأتراك إلى إضطهاد القوميين العرب وإعدامهم حتى رفع العرب أصواتهم للاستقلال الكامل من الدولة التركية (العثمانية) خلال 1915-16م.<sup>339</sup> وخلال الحرب العالمية الأولى كانت فرنسا على اتصال مع القوميين العرب الذين ساعدوها ضد الحكم العثماني حتى قاموا بثورة عربية سنة 1916م ، إلا أنهم كانوا على غفلة من التعاهد السري بين بريطانيا وفرنسا وروسيا بتقسيم الدولة العثمانية فيما بينهم.<sup>340</sup>

حتى الحرب العالمية الأولى كان للقوميين العرب الحياز إلى فرنسا. لما وجدوا أنفسهم مأخوذون بالغدر من فرنسا لما قسموا الدولة العثمانية فيما بينهم بدأت نكراهم ونفورهم منها. تبينت لديهم أهدافها السرية وراء اهتمامها للعروبة. ليس ذلك فحسب بل وجدوا انفسهم تحت إمبرالية أشد بطشا من العثمانية. من هنا برزت العروبة في اتجاه جديد مع بروز تحركات أخرى وخاصة الوطنية.

<sup>338</sup> الكيالي، عيد الوهاب، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة العاشرة، 1990م، ص 45

<sup>339</sup> Tibi, Bassam, Arab Nationalism A Critical Enquiry, P 87

<sup>340</sup> Tibi, Bassam, Arab Nationalism A Critical Enquiry, P88

فبعد أن كان الحماة يتخذون من فلسفة المثالية الفرنسية مادة فكرية لإثبات القومية العربية بدأوا يتقهقرون منها يلجؤون إلى الفلسفة الرومانتكية الألمانية التي تطورت على أيدي هرذر وفيتشي خاصة.<sup>341</sup>

استخدموا هذه الفلسفة لإثبات القومية العربية من خلال اللغة العربية على غرار مواقف الفلاسفة الألمانين. كان ساطع الحصري من أبرز أعلامها الذي حاول إنعاش القومية العربية على بناء اللغة من خلال الوسائل غير السياسية وخاصة التعليم. كان أول من وسع نظرية العروبة إلى كل المناطق العربية من سوريا إلى المغرب على خلاف القوميين العرب الأوائل فلم تشمل عربيتهم مصر وماوراءها إلى المغرب.

لعل ضياع الصيانة السياسية الواسعة العثمانية وسقوطهم تحت إمبرالية جديدة تحت القوى الأوربية ضربتهم على مخمهم شديدا حتى بدأوا يبحثون نظرية ذات قوة تحميمهم من تسللهم في المحكومة وهم لا يزالون يحاولون أن يجدوا نظرية يمهدهم القوة السياسية.

بعد سقوط الدولة العثمانية برزت التحركات الوطنية والعروبة والإسلامية متماشية ومتضاربة.

تطورت الوطنية في المناطق تحت الإمبرالية والتي كانت تتطور في مصر منذ الحكم البريطاني على مصر سنة 1882م. بدأت الاسلامية السياسية خاصة على يد الإخوان المسلمين في مصر والذي كانت تتطورت فكريا من قبل على أيدي جمال الدين الأفغاني (97-1839) ومحمد عبده (1849-1905) ورشيد رضا. اتخذت الإسلاميه طرقا عديدة من الإسلاميه الحديثه ضد الإمبرالية على يد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. والإسلامية الوهابية وجدت تأييدا فكريا من قبل رشيد رضا والذي أصبح من بعد من أعلام الإخوان المسلمين.<sup>342</sup>

<sup>341</sup> نفس المصدر، ص 101، 143

<sup>342</sup> Tibi, Bassam, Arab Nationalism A Critical Enquiry, P64,67 ,138

نجد في مصر تطورا سياسيا مغايرا. تطورت الوطنية أولا هناك على يد الطهطاوي، ثم تطورت الإسلامية على يد الأفغاني، وعبدو ورشيدرضا واتجهت فكرة عبدالرحمان الكواكبي إلى القومية العربية.<sup>343</sup>

العروبة لم تتجذر في مصر إلا بعد ثورة 1952م في مصر، وفي المغرب كانت بروزها مؤخرا أكثر. تطورت الوطنية في المناطق العربية في أفريقيا في الجزائر والمغرب وتونس. وتوطدت العلاقة الجزائرية الوطنية والعرب أثناء الثورة الجزائرية<sup>344</sup> عندما أرسلت مصر وسوريا خاصة إليها مددا سنة 1958م ثم التحقت المغرب و تونس بالمجلس العربي.<sup>345</sup>

حصلت العروبة صدأ دويا بين الدول العربية بعد مجيء جمال عبد الناصر الذي مزج العروبة مع نظرية العدالة الاجتماعية وبرز كقائد للعروبة الجديدة. بدأت المنافسة الآن في مجال قيادة العروبة الناصرية والعروبة التي يمثلها حزب البعث الذي أقامت منظمته في كل الدول العربية ماعدا المغرب.<sup>346</sup> كان حزب البعث قد أسس على يد مايكل أفلاك وزملائه سنة 1940م في سوريا. تأسست حركة العرب القومية سنة 1950م في الجامعة الأمريكية في بيروت.<sup>347</sup> مزج حزب البعث فكرتها العروبة بالفكرة الاشتراكية وبدأ يطلق عليه حزب البعث العربي الاشتراكي منذ سنة 1954م. واجهت العروبة الناصرية مخالقات من حزب البعث خاصة في العراق. منذ الخمسينات من القرن العشرين أصبحت العروبة مبدأ لازما في جميع الدول العربية ولو كان كلاما أكثر منه عمليا واقعيا. يقول بسام طيبي ' إن العروبة في محاولة التحرير من الهيمنة التركية ثم من الإمبرالية الإنجليزية لعبت دورا كبيرا وتقدميا..

<sup>343</sup> نفس المصدر، ص 67

<sup>344</sup> نفس المصدر، ص 177

<sup>345</sup> نفس المصدر

<sup>346</sup> نفس المصدر، ص 176

<sup>347</sup> Tibi, Bassam, Arab Nationalism A Critical Enquiry, P 174



إلا أنها بعد الحقبة الإستعمارية ظلت نظرية تستخدم لإخفاء التضادات في المجتمع العربي. وتطور التحركات الثورية منذ الستينات من القرن العشرين تشير إلى أزمة العروبة. بدأت اليسارية تبرز في داخل الأحزاب المؤيدة للعروبة مثل البعث وحركة القومية العربية.<sup>348</sup> وهزيمة 1967م صفت العروبة شديدا بينما التضادات المجتمعية بدأت تبرز. أخذت الماركسية تبرز كقوة جديدة على الساحة العربية<sup>349</sup>

نجد تصوير هذه الخلافات بين العروبة الناصرية والماركسية في رواية "الحب في المنفى". البطل كان من حماة العروبة الناصرية، وإبراهيم زميله من الحماة الماركسية، وكانا يختلفان شديدا في الحياز الأيدولوجي فيقول "عندما تزامننا أول مرة كمحررين في صحيفة الأخبار الخارجية أيام الشباب، كان هو ماركسيا متحمسا يقول أنني مثالي وحالم، كان رأي فيه أنه متحجر وبعيد عن روح الناس. أيامها كنت أقرأ ساطع الحصري والقوميين العرب وأعتقد مع عبد الناصر أن دولتنا الكبيرة ستقوم غدا. وعلقت فوق رأسي بالفعل في صالة التحرير الكبرى التي تضمنت تلك العبارة من خطابه الشهير يوم الوحدة مع سوريا (دولة عظمى تحمى ولا تهدد تصون ولا تبدد) كتبها لي خطاطا لصحيفة بخط كوفي جميل ووضعتها تحت خريطة الوطن الكبير، وكان إبراهيم يجب على أن أرى ابتسامته وهو يتطلع إلى تلك اللوحة متظاهرا بالاستغراق في التأمل فأثور، ويبدأ بيننا الجدل والشجار"<sup>350</sup>

في رواية شرق النخيل نجد التصوير الملئ بالحماسة والدعوة لقضية العروبة. تتمركز العروبة حول قضية فلسطين من خلال تصوير المظاهرات التي يتحمس له سميح حول قضية فلسطين وقد فصلته بالذكر تحت عنوان 'قضية فلسطين'.

<sup>348</sup> نفس المصدر، ص 180

<sup>349</sup> نفس المصدر، ص 181

<sup>350</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى ص 26

وفي رواية قالت ضحى يأتي تصوير العروبة ممن خلال ذكر اليمن والحرب المدنية التي تسببت بعد الانقلاب العسكري هناك. في عديد من المشاهد يأتي ذكر العروبة من خلال تصوير الاتحاد الاشتراكي في رواية قالت ضحى.

البطل في رواية قالت ضحى يقول "حاتم هو كان صديق عمري، زميلي في فؤاد الأول الثانوية ثم كلية الحقوق، ولما تخرجنا عملنا معا في نفس الوزارة. ولم تكن عندما تعارفنا في نفس الفصل ولكننا التقينا أثناء المظاهرات المتكررة التي كنا نخرج فيها أيامها".<sup>351</sup>... "يدوي في مكان من المدرسة صوت عصبي جهوري "اليوم حرام فيه العلم" فيتردد الصدى في كل مكان ونخرج فصلا بعد فصل، نتجمع في فناء المدرسة ويشرح الخطاب لماذا اليوم حرام فيه العلم. غالبا ما يكون ذلك من أجل مصر والجللاء بالدماء ونيل واحد وشعب واحد. ولكننا نعتقد أيضا أن كل شؤون العالم تخصنا، توقع العراق معاهدة مع إنجلترا لا تعجب الشعب هناك ولا تعجبنا فنخرج. صدقي - بيفين حرقت صدقي وجبر - بيفين قبر بيفين. يقتل اليهود فلسطينيين في حيفا فنخرج. شهداءك يا حيفا في الجنة وتارك يا فلسطين في رقابنا".<sup>352</sup>... "ترتفع القبضات والهتافات من أجل مصر وفلسطين وتونس وسوريا والشرق كله".<sup>353</sup> يذهب سيد القناوي كعسكري في الحرب اليمنية ويضيع هنا قدماء "من أجل خاطر مينا وجمال عبد الناصر ومن أجل خاطرك يا أستاذ تركت ساقني في اليمن؟".<sup>354</sup>

<sup>351</sup> نفس المصدر، ص 312

<sup>352</sup> نفس المصدر

<sup>353</sup> نفس المصدر

<sup>354</sup> طاهر، بهاء، قالت ضحى، ص 384

يصور الروائي الأوضاع المعقدة التي طرأت من المحاولات تجاه تشكيل العروبة. يشارك سيد القناوي في الحرب الأهلية في اليمن من أجل العروبة. يندهش مما يرى هنا أن الناس لا يحبون المصريين. حاول الروائي أن يقدم دلائل في تأييد العروبة وفيما هو لا مناص من أن يقوم الناس لها، كما يصور البطل. "ثم تطلع (سيد القناوي) إلى وقال بعينين واسعتين مندهشتين: ومع ذلك يا أستاذ فهم لا يحبوننا هناك. صدقني هم لا يحبون المصريين ولا أعرف لماذا؟" <sup>355</sup>..... "إسمع أنا لا يهمني أن أموت.. كلنا سنموت. ولكن.... لماذا أموت من أجلهم ماداموا لا يحبوننا؟" <sup>356</sup> هل تعرف أن مصر في الزمن القديم، قبل الفراعنة كانت ممالك كثيرة متفرقة؟" <sup>357</sup>..... "ولكن كيف وحد مينا القطرين يا سيد؟ ألم يجارب من أجل ذلك؟" <sup>358</sup>..... "وأظن أن الأستاذ حاتم يريد أن يقول إننا العرب الآن مثل مصر في الأيام التي سبقت مينا.. وعندما تأتي الوحدة فسنفهم بعضنا البعض ونحب بعضنا البعض. ولكي يحدث ذلك فأنت تحارب مثل مينا، وما لم يحدث ذلك يا سيد فسنضيع بلدا بعد بلد كما حدث في فلسطين" <sup>359</sup>.

نجد تضعف الحركتين العروبة والماركسية على مرور السنوات فيقول " نعم أعرف من العرب عشرة أطباء متطوعين أوعشرين أو ثلاثين، مائة فدائي أو مأتين أو ألفا. ولكن هذه يا صديقي هو العروبة التي عشت تحلم بها؟ .... إذا سألتني أين هم العرب فسوف أسألك أنا أين هم عمال العالم الذين اتحدوا؟" <sup>360</sup>

---

<sup>355</sup> نفس المصدر، ص 336

<sup>356</sup> نفس المصدر

<sup>357</sup> نفس المصدر، ص 337

<sup>358</sup> نفس المصدر،

<sup>359</sup> نفس المصدر، ص

<sup>360</sup> ظاهر، بهاء، الحب في المنفي، ص 46



## الفصل الرابع: قضايا المنفى والعنصرية والإمبرالية

### قضية المنفى والحياة في المنفى

أثار الروائي قضية المنفى مع مظاهرها وآثارها في روايته "الحب في المنفى" من منظور الأسباب والأوضاع التي ترغم الإنسان إلى الملاذ بالفرار في المنفى وكيف يؤثر المنفى على حياة الإنسان وكيف يكون الحياة في دولة المنفى.

بتصوير الأوضاع قدم الروائي نقدا سياسيا لاذعا على الحكم من جهة، ويحاول التحذير من جهة أخرى من السلبيات التي تتمخض من هذه الخطوات الباطشة على الأفكار والتي تفضي إلى تضعيف الوطن نهائيا.

يصور الحياة في المنفى للاجئين كحياة مقلوعة جذتها الأوضاع من الأصل فيلجأ الإنسان إلى حياة مطرودة ما لها من قرار. يؤثر هذا النوع من الإطار الكبوتي الخانق على نفسية الشخص وهويته وحياته وحياة أسرته فتجلبط آماله، تنكسر روحه، وتجرح شخصيته، تهتز ثقته بالنفس فيبدأ يكره الحياة، ولا يرى إلا الظلام فيمضي حياته ضائعا وسدى. يضع مع شخصيته الفذة المؤهلة ويتلوث شخصيته من هبوطها في قعر اليؤوسية التي لا يرى بأسا بعد ذلك فيما كيف عمله وخلقه حسنا أو سيئا، قد يحاول يفيق منه لأن يلج فيه مرة أخرى.

يصور الروائي قضية المنفى والحياة في المنفى من خلال شخصيات عديدة- البطل وصديقه إبراهيم ويوسف وبيدرو إيبانيز وألبرت. كل من هذه الشخصيات يحيون حياة مختلفة إلا أن سبب المنفى لكل واحد منهم واحد وهو الكبت السياسي في وطنهم الأصلي.

البطل كان ناصريا محاميا للعروبة وللإصلاحات الناصرية<sup>361</sup> في الاقتصاد من تقسيم الأراضي و تأميم الشركات وغيرها إلا أن الأوضاع تغيرت بعد مجيء السادات. هو بدأ يمحص المؤسسات ويغير البوليسيات. اختار بوليسية

<sup>361</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 33

الانفتاح في الاقتصاد و بدأ التغيير في الإصلاحات التي قام بها الرئيس السابق. قام بتمحيص المؤسسات من المؤيدين للحكم السابق. لم يكن للبطل أي حياز سياسي يساري، فلم يجدوا شواهد يتخذونها عذرا لعزله. يقول البطل "أظن أن إبعادي كان مقررا من أول يوم في انقلاب السادات، غير أنهم فوجئوا بأن إسمي لم يكن في قائمة التنظيم السري للاتحاد الاشتراكي ولا في أية قوائم أخرى، وكنت يومها عضوا منتخبا في النيابة فتحملوني على مضض رقوني إلى مستشار للتحرير لكي لأفعل شيئا ولكني ظللت رازحا في مكاني ولما فتحوا مكتبا للصحيفة هنا كان ذلك يناسبني أيضا".<sup>362</sup>

يتم تنحي البطل من مصر إلى سويسرا كمراسل صحفي إلا أنه لم يكن له عمل هناك بل كان طريقا لإبعاده. كان لا يزال يرسل الأخبار للصحيفة في مصر إلا أن الأخبار قلما يتم طبعه. كان دوما هناك الأعدار لعدم طبعها من أجل قلة المكان في الصحيفة، لكن البطل كان يعلم يقينا أن الأعدار تافهة، لا يريدون طبع أي مقال ينتقد على بوليسيات الحكم. فكان يمضي أوقاته سدى. وجد نفسه في مأزق لم يخرج منها أبدا. لم يكن يطيع الاستقالة للاحتياج إلى المال من أجل إرسال النقود إلى أولاده وزوجته المطلقة في مصر. كان البطل متحمسا في شبابه حبا للوطن وحبا للمرأة التي تزوجها. أبعده الأوضاع من كليهما. انهزم في الحب الذاتي بعد الطلاق من زوجته، وانهزم في الحب العقلي للمبادي بعد مجيء السادات. لم يقدر على إشغال حماسه لا لأسرته ولا لوطنه ومبادئه فبدأ يحاول ملأ الفراغ في حياته من حب ينجيه من الكربين. يجد في بريجيت النمساوية ذلك الملاذ،

---

<sup>362</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 40

ويحاول تعويض نفسه للحرمانين الذاتي والنفسي " ولكن ما أهمية ذلك، ما أهمية أي شيء؟ ألم نتفق على ألا يهزمننا العالم مرة أخرى؟ ألم نتفق حالاً على أن لا يكون في الدنيا سوى أنت و أنا؟<sup>363</sup>

على يد أخرى بدأت الأوضاع تتغير في أسرته . يرى أن أسرته قد فرغت عن التسامح الفكري وخاصة ابنه خالد الذي أصبح متدينا إلى التطرف، وحتى زوجته تغيرت من الليبرالية إلى الإسلامية.

يلقى البطل مصيرا سيئا حينما يتم إلغاؤها من الوظيفة نهائيا. ويشير المسار الروائي إلى نهايته الشاردة. يحاول البطل أن ينقذ نفسه ويعمل لمسؤولياته مرة أخرى ولكن يهبط مرة أخرى. يموت نهائيا بعيدا عن وطنه وأهله في يأس وحيرة ووحدة قاتلة "تترجح في بظاً وتهدهديني.. النأي يصحبنى بنغمته الشجية الطويلة إلى السلام والسكينة"<sup>364</sup>

إبراهيم غادر وطنه ولجأ إلى لبنان بعد اعتقاله في عهد الرئيس جمال عبد الناصر. كان ماركسيا متحمسا يرى إلى العروبة من منظور طبقي ويخالفها. مضى حياته مطرودا في الخارج، مشرودا في الداخل، منهزما في مشروعه الماركسي و في حياته الذاتية. عشيقته شادية تتغير لما يكتب إليها وهو في السجن أنها حرة أن تتفرج مع من تشاء من الرجال. يكتب هذا وهو في يأس مظلم في السجن. يعتبرها شادية هتكا لكرامتها فتتزوج من رجل لا تحبه وتدمر حياتها. يدمر إبراهيم حياته ولا يقدر على إقامة علاقة مع أي نساء في الحياة. يمضي إبراهيم حياته مع التزامه السياسي في الماركسية إلا أن فقدان الوطن والحب سلبت منه لذة الحياة وآمالها وجرحت روحه غائرة.

<sup>363</sup> نفس المصدر، ص 199

<sup>364</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 309

يموت في الجلاء بعيدا عن وطنه وهو يعمل كمراسل صحفي أثناء الهجمة الإسرائيلية على مخيمات الفلسطينيين اللاجئين.

يوسف لجأ إلى سويسرا بعد أن حكم بتسجينه من أجل نشاطاته السياسية وكتاباتة النقدية ضد ما آلت إليه الأمور في عهد السادات. يهرب إلى ليبيا فسويسرا ويكسب لعيشته عاملا كطباخ في واحد من المطاعم. إنه يتزوج كرها صاحبة المطعم التي تكبره ضعف عمره ، ليتمكن من الحياة في المنفى. يقول "كنت في السنة الثالثة بكلية الإعلام وكان محكوما على بالسجن ستة أشهر لأنني اشتركت في مظاهرة هتفت ضد السادات واشتبكت مع حرس الجامعة، هربت إلى ليبيا بعد صدور الحكم ومن ليبيا جئت إلى ههنا".<sup>365</sup>

نجده أخيرا يعمل مع التاجر المشبوه حامد وهو لا يعلم علما يقينا عن هويته. لم يكن له ملاذا غير ذلك. فيرغم للعمل الذي لا يلائم لمن يقوم للمبادئ.

في رواية "الحب في المنفى"، بيدرو إيبانيز لاذ بالفرار من قمع النظام في شيلي. قام العسكر والضباط بالانقلاب العسكري خلال الحرب الباردة سنة 1973م ضد الرئيس المنتخب ديمقراطيا الرئيس سلفادور الليندي الذي كان اشتراكي النزعة. تأمر الرئيس الأمريكي رتشارد نكسون ضده حتى نجح في إثارة الانقلاب. اتخذ العسكر الحكم في يده. بدأ الحكم بقمع اليساريين وخاصة الشيوعيين والاشتراكيين. كان شيلي منذ 1932م رمزا لامعا للديموقراطية في تاريخ أمريكا الجنوبية.<sup>366</sup>

<sup>365</sup> الحب في المنفى، ص 92



وقع بيدرو في أيدي الضباط من جهاز الأمن الوطني. لم يكن هو إلا سائقا للتاكسي الذي أخذه الضباط مشبوها من أجل أن ركب في تاكسيه رجل كان تحت مراقبة جهاز الأمن الوطني. يقتلون ذلك الرجل ثم يأخذون عليه ويجعلونه تحت التعذيب. ثم يعتقلون أخيه الطالب فريدي بجرمة كذبة أنه اشتراكي، ويجعلونه تحت التعذيب حتى يموت. "وسألوني عن أسرتي، هل نحن اشتراكيون، هل نحن من حزب الليندي؟ أنا بالطبع في الأصل من الريف ولكننا حتى لم نأخذ أرضا عندما وزعوا أراضي الأغنياء على الفلاحين في الريف، لا أنا ولا أخي..... لهذا لم يحدث لنا شيء عندما رجع الأغنياء بعد الانقلاب واستردوا أرضهم، أقصد لم ندخل السجن مع الفلاحين الذين كانوا قد أخذوا الأرض".<sup>367</sup> ... "جاؤا بأخي فريدي..... قالوا إنهم اكتشفوا أن فريدي اشتراكي وأني كذاب، هل قلت إن أخي طالب في الجامعة".<sup>368</sup>

ينجح بيدرو في الفرار إلى الخارج حتى يصل إلى سويسرا. يعيش هناك في خوف وخفاء في ظل الكراهة والحقارة. يغيب بعد اللقاء الصحفي الذي أقامه الدكتور مولر، كعضو لمنظمة اطباء غير سياسية، لإنباء الصحفيين عن الأوضاع الخطرة في شيلي وما يجري من الانتهاكات لحقوق الإنسان. يقول الدكتور مولر "إنه تعب كثيرا حتى حصل على تأشيرة الدخول لبيدرو لكي يتحدث في المؤتمر، فهم لا يرحبون هنا باللاجئين من شيلي ولا من أي بلد آخر، ولذلك فإن التأشيرة لا تسمح لبيدرو بالبقاء أكثر من أسبوع واحد، ورغم علمه بذلك فقد أخذ حقائبه وترك الفندق دون كلمة".<sup>369</sup>

---

<sup>367</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 19

<sup>368</sup> نفس المصدر، ص 20

<sup>369</sup> نفس المصدر، ص 110

هناك في سويسرا أيضا لم يكن الأمر أن المواطنين يستقبلونهم برحابة صدورهم، بل كانوا يرون إلى اللاجئين بدناءة وكرهة و يتضح ذلك من مشهد حدث في نفس المؤتمر الذي شارك فيه بيدرو "ولكن فجأة وقف صحفي أعرفه من أهل البلد وكانت صحيفته المسماة "الوطن" تهاجم باستمرار اللاجئين من شيلي وغيرها من البلدان.....

كانت تنتشر مقالات متتالية عن اللاجئين وتقول إنهم يزعمون البلد وينشرون الجرائم ويلوثون البيئة وأنه يجب إنقاذ الوطن من هذا الخطر".<sup>370</sup> ... "أنت رأيتهم هناك في المعسكر المجاور لبلدتنا، دعك من قسوة الحراس، كم تظن أن الإنسان يحتل نظرات العداة والكرهية من سكان بلدتنا الودودين؟".<sup>371</sup>.....

إذن تعال معي أعرفك على عشرات يعيشون بهذا الطريقة (الاختفاء في بلاد المنفى كما فعل بيدرو) من شيلي ومن كل بلاد الأرض يفضلون ذلك ألف مرة على العودة إلى بلادهم، ويفضلونه أيضا ألف مرة على مراكز الاستقبال".<sup>372</sup>

كذلك كان ألبرت (الحب في المنفى) غادر وطنه غينيا بعد أن جاء زمام الحكم في أيدي ماسياس. أصبح ماسياس أول رئيس لغينيا الاستوائية سنة 1968م وبقي حتى تنحيه سنة 1979م. كان حكمه مليئا بالمظالم والكبت والقمع. ألغى المجلس التشريعي وجعل نفسه رئيسا للحياة. إتخذ الأمور الاقتصادية في أيديه وبدأ إبادة الأسر والقرى إذا ما أصابته ريبة عنهم. قام بقمع وإبادة المثقفين والعلماء والمهنيين والمهرة . يقال إنه قتل ما بين

<sup>370</sup> نفس المصدر، ص 15

<sup>371</sup> نفس المصدر، ص 111

<sup>372</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص: 116

خمسين وثمانين ألفا من الناس في دولة لايزيد على مأتين وخمسين ألف نسمة. لاذ عدد كبير من الناس بالهرب في الدول الخارجة والأوربية.<sup>373</sup>

يلتحق ألبرت في سويسرا بجامعة ولكن الأوضاع لم يكن مسوغا للأفارقة السود هناك. عانى كثيرا من العنصرية في بلاد البيض حتى تدمرت حياته و حياة زوجته و زيجتهما. لكان ضاع هناك لولا غادر سويسرا لوطنه بعد نهاية حكم ماسياس وإعدامه.

متسايرا مع هذه الأحداث تأتي ذكر اللاجئين الفلسطينيين إجماء أن اللجوء في بلد غير وطنه لا يسوغ لأحد. يضيع الإنسان من أجل كونه بعيدا عن أصله مقلوعا من أصله فتدمر حياته كما يقول تمثيلا 'بهرتني تلك الزخرفة المنمنمة...فراحت تجمع باقة من الزهور منها... ولما انتهت نظرا إلى الزهور.. بالفعل كانت الزهور الصغيرة ماتت

للتو...قلت: أعتقد أن الزهور البرية لا تعيش إلا في الأرض' <sup>374</sup>

---

<sup>373</sup> 'Francisco Macias Nguema' 2017, Columbia Electronic Encyclopedia, 6Th Edition, p. 1, Complementary Index, EBSCOhost

<sup>374</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 8

### قضية العنصرية

قدم الروائي مشاهد عديدة للعنصرية في روايته "الحب في المنفى" و "واحة الغروب" ولو أن الواجهة التصويرية والمستلزمات الخلفية تختلف في كلتا الروايتين. في "الحب في المنفى" قدم الروائي القضية من حيث التمييز العنصري ضد الأفارقة السود من قبل البيض. العنصرية هناك عنصرية تميز تفوق وتعل إزاء عنصر. في وجهة البيض عنصر الأفارقة السود دنيء وكرهه باعتبار الأفارقة السود دون البشرية. في رواية "واحة الغروب" تبرز العنصرية في شكل هوية سياسية على غرار الهويات الأخرى من اللغوية والمنطقية وغير ذلك.

قدم القضية من خلال ألبرت الذي كان طالبا في جامعة في نمسا. غادر وطنه خلال حكم ماسياس. تعلق معه بريجيت البيضاء النمساوية حبا وزواجا. والعقلية السائدة هناك كانت أن 'البنات كن يتهامن عن الأفريقيين.. محبوبين جدا من البنات مكروهين جدا من الطلبة. لم أكتشف حين عرفت ألبرت أن المسألة بالنسبة لمن لم تكن تزيد على الفضول لمعرفة الشيء الغريب.. ذلك الفضول للتحقيق من متعة ذلك الجنس الأفريقي الذي يحكي عنه الجميع، ثم بعد التجربة يرجع كل شيء إلى أصله.. ترجع البنت إلى صديقها النمساوي.<sup>375</sup>

كان الطلبة يتنازرون الأفارقة والسود بسبابات شتى، تقول بريجيت "لم يكن ألبرت يبالي بتلك الكلمات الغليظة عن الأفريقيين والسود"<sup>376</sup> أو كما يقول ألبرت "حين أسمع شخصا يقول شيئا من عينة هؤلاء الأفريقيين القروء، أو لماذا يبقى هنا هؤلاء السود فأنا أعرف نوعية عقله ولا أضيع وقتي في التفكير فيما قال".<sup>377</sup>

<sup>375</sup> طار، بهاء، الحب في المنفى، ص 128 / 129

<sup>376</sup> نفس المصدر، ص 133

<sup>377</sup> نفس المصدر، ص 131

كان هناك نشاطات ضد التمييز العنصري، فساءت الأوضاع أكثر فيما بعد، تقول بريجيت "أيامها بدأ مولر حكاية حقوق الإنسان هذه بعد أن تقاعد أو أغلق عيادته.. ألف الدكتور في بلدتنا الصغيرة جمعية لمكافحة العنصرية ضم إليها ألبرت وبقية الأفريقيين وبعض الأجانب ممن كانوا يدرسون في الجامعة.. وكان مولر يدعو أصدقاءه النمساويين القلائل ويلقى خطبا وينظم مظاهرات في الميادين العامة ضد العنصرية. وقيم احتفالا بيوم أفريقيا. ويعقد ندوة باسم "من أجل عالم واحدة" إلخ إلخ..... ومن وقتها تغيرت البلدة. قبلها كانت الأمور تسير، أما الآن فقد صار الناس إما مع جمعيته وهم على الأكثر عشرة أفراد من أهل البلدة وإما ضد جمعيته وهم بقية الناس.. حتى الذي كانوا يخفون عنصريتهم أصبحوا يتباهون أيامها بأنهم ضد وجود السود في البلد ويظهرون العداء لكل الملونين<sup>378</sup>.

كان اتفاق بريجيت وألبرت على أنهما يتزوجان بعد الرجوع إلى غينيا بعد سقوط حكم ماسياس، لكن عمها مولر الناشط السياسي ألح على أن تتزوج ألبرت ثورا وتظاهرا على السلوك التمييزي ضد الملونين، والذي اعتبرته بريجيت فيما بعد أن مولر دمر حياتهما بإشارتهما على الزواج على الرغم من الإنذار من أيها، تقول:

"لم يرد أبي أن تتزوج. قال لي على طريقته في الكلام ولكنك لست عاملة في بار!.. يمكن أن يمر هذا الزواج لو كنت عاملة في بار.. كأنه كان يرى كل شيء، نصحنا أن ننتظر كما كان قرارنا الأول، ننتظر إلى أن ينتهي ألبرت من الجامعة ومن ماسياس ثم نرحل بعد ذلك معا، قال لنا ما لم نكن حتى تلك اللحظة نفهمه جيدا، قال إن الناس في بلدنا يغمضون عيونهم عن العلاقة بيننا على أنها نزوة عابرة، حرية محكومة يسمحون بها للشباب على ألا تتجاوز الحد.. أما الزواج فهو جريمة، دنس للجنس الأبيض كله لا يغفره أحد في بلدتنا، ولم نصدق،

<sup>378</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 132، 131

مرة أخرى خسر أبي القضية. مرة أخرى كسب مولر وهو يلح على ألبرت: فلنلقنهم درسا!.. فلنعلم أهل هذه البلدة البليدة أن الدنيا قد تغيرت.. يجب أن يفهموا أخيرا أن العنصرية تحط من آدميتهم.. كلام كثير راح مولر يردده على آذان ألبرت مثل ذلك الكلام الذي كان يكتبه في منشورات جمعيته الوهمية حتى أثر عليه في النهاية. أما بالنسبة لي لم يكن هناك فرق، قلت لأبي حتى لو قاطعتني البلدة كلها فإن بلدي هي ألبرت، لا يعني أحد غيره..... كنت صادقة، ولكن أبي كان على حق.<sup>379</sup>

ثم تذكر ما حدث<sup>380</sup> بعد الزواج لم يعد يزورنا في بيتنا حتى هؤلاء الذين كانوا يأتون إلينا من قبل، ولم نحتّم، وفي الجامعة كان الطلاب يسرون خلفنا، في مجموعات لا ينطقون ولكنهم يلا حقوننا في كل مكان بنظرات الكراهية، ولم نحتّم حين ذهبنا إلى المطعم الذي اعتدنا من قبل أن نأكل فيه وقف الجرسون وهو يشبك يديه على صدره وقال إن كل الموائد محجوزة، ورأينا معظم الموائد خالية، ولكننا لم نحتّم، بل ضحكنا، رحنا نذرع شوارع البلدة وهو يحيط كتفي بذراعه، نرد على صفيير من يهزءون بنا بالصفيير مثلهم ونحن نغنى بصوت عال، وحين يقوم من يجلسون بجوارنا في الأتوبيس أو السينما وهم ينظرون نحونا في استنكار وحقد وكنت أرمي معطفي على مقعد وحقبتي على مقعد آخر وأنا أتهد في ارتياح. لم نحتّم"

لكن هذه الأشياء بدأت تؤثر على نفسية "ألبرت أصبح يكره الخروج في الليل.. أصبح يقضي أيام في غرفتنا الصغيرة دون أن يذهب إلى الجامعة،.. بدأ يشرب أكثر".<sup>381</sup>

<sup>379</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 133

<sup>380</sup> نفس المصدر، ص 134

<sup>381</sup> نفس المصدر، ص 134

كان العداء العنصري عميقا إلى حد أنهما لما خرجا يوما للتنزه أخذهما جماعة من الشبان المخمورين من بينهم طالبان من نفس الجامعة، وبدأوا يهتفون من خلفهم بالكلمات البذيئة والأساليب الغليظة حتى اقتربوا منهما وأخذوهما في الحلقة مع رقص بذيء. واحد منهم فك بنطلونه ثم بنطلون ألبرت وسأل 'هل الأفريقي أفضل من هذا.. لماذا تذهبن بعيدا؟ بضاعة النمسا أفضل!' <sup>382</sup> لكم ألبرت واحدا منهم فبدأوا ينهالون عليه بالضرب. ثم دفع واحد منهم بريجيت من خلفها حتى سقطت على الأرض وكانت حينذاك حاملة. ضاعت حملها وبدأت الدماء تخرج من بين فخذيها. فتقول:

"ولكني قد فقدت طفلي، لم أفقد طفلي وحده ولكني فقدت ألبرت، لم أفقد ألبرت وحده ولكني فقدت نفسي". <sup>383</sup> "مع تلك الدماء التي خرجت من بين فخذي في ليلة السبت تلك خرج شيء لم يعد أبدا، ظهرت بريجيت أخرى، لا أعرف بالضبط ما الذي ضاع، ربما كان أول ما لاحظته هو أن الشعر لم يعد يهزني". <sup>384</sup>

تدهور العلاقات بينهما ويتبدل سلوكهما حتى يهوي ألبرت في الإدمان ويصبح نصف مجنون. نهائيا يقع الطلاق بينهما. يرجع ألبرت إلى غينيا. تنكسر بريجيت من الداخل فلا تفيق منها أبدا.

في رواية "واحة الغروب" نجد تصوير الهوية العنصرية. يمثلها هناك خاصة يوزباشي وصفى الذي كان من سلالة الألبانيين. كان يعتبر عرابي وأصحابه من الثائرين. في رأيه كونهم مصريين فلاحين كان عليهم أن لا يثوروا ضد أبناء محمد علي الذي كان ألباني الأصل. كان يوزباشي يفتخر بتاريخه وتاريخ آباءه. كذلك كان الشيخ صابر رئيس الشرقيين والذي كان يعتبر نفسه من سلالة المغريين في ليبيا، وكان يحاول إيقاد الحرب بين أهالي واحة

<sup>382</sup> نفس المصدر، ص 137

<sup>383</sup> طار، بهاء، الحب في المنفى، ص 137

<sup>384</sup> نفس المصدر، ص 139

سيوة الذين كانوا منقسمين بين الشرقيين والغربيين وكلا الجانبين يفتخر من عنصريته. دوما مستعدين فيما بينهم لإثبات فضيلتهم.

يصور الروائي هذا الاتجاه بنبرة منكورة. يرى أن الافتخار بالأعجاب والتاريخ الماضي لا يجلب لهم في الحاضر شيئا ولا يفيدهم أمنا وسلامة، بل يؤدي إلى الصراعات والتقلبات بالاستمرار. لذلك نرى البطل محمود عبدالظاهر ينوي لأثار الفراعنة فيقوم بدمها بقنابل دايناميت، كي لا يرجع الناس إلى الماضي للافتخار بالهوية ولا يناشوا الحروب فيما بينهم من أجله.

الحقيقة أن قضية الهوية شائكة، وخاصة الهوية العنصرية التي نالت تطورا فلسفيا على أيدي الفلاسفة الرومانتيكيين الألمان، والهوية الألمانية هوية عنصرية مقبولة سياسيا.



### منظور الهيمنة والقوة وراء النظريات العلمية الحديثة

في روايتها الأخيرة 'واحة الغروب' التي نالت احتفافا واسعا واهتماما بالغا، نرى بهاء طاهر يغوص أعماقا بقلمه متخذاً من سمات ملغزة مدخلا إلى خلايا الحوادث دخولا متباينا، متسايرا ومتشابكا، مع تمزيح متداخل يتراكم فيه الماضي والحاضر، تتحاور فيه الأسطورة مع التاريخ والتاريخ مع الأسطورة، يتحارب الإنسان البسيط الداخلي مع الإنسان المتكيف المتغير المتعقد الخارجي واحد مع الآخر، يتعقب الإنسان الضبابي الماضي الإنسان الحاضر الذي يركب غابات الماضي و يمرش من خلاله بحثا عن وجوده الذي يتعلق به ويجيا له، يقاتل له فيقتل أو يقتل. ينفذ ببصره إلى أعماق التاريخ فيجده أسطورة، ويسير بين العالم اللغزي الأسطوري فيجدها تاريخا. فماذا لو يرى إلى الإنسان نفسه فيجده أسطورة، وحياته خدعة، وحقيقته هزوا، وسليمه شريرا وشره أسلم. فماذا لو يرى سياسته مأبا للسفسطة، مرصادا للمصرعة، مرسى وموكبا للهيمنة، وتاريخه متاهة للمفسده.

بهاء طاهر يبدو في روايته هذه أغمض إجماء وألطف منهجا، أدق مطلبا، أعمق نفسيا وأقرب إلى الإنسان طبيعة وسلوكا. لا يضع الإنسان وسط الجدلية الخطية، بل نجده يجعل منه محورا للجدليه الكروية التي ليس الإنسان فيه بين سلوك وآخر بل له سلوك متثنى، ومتعانق ومتفارق، يدور سلوك الإنسان فيه من وجهة إلى أخرى ما لا تلائم الجدلية الخطية أي الجدلية الثنائية. نجد روايته هذه تسأل أكثر من أن تجيب، تنير أكثر من أن تهدأ وتتركنا في مدار فكري نخرج منها متضادين حسا وفهما.

وجدت من أبرز ملاحظها كيفية تناول الروائي الأساطير الإسكندرية والإغريقية التي أعطاهما لمسة تاريخية من خلال تشابك الحوادث التاريخية التي يحيا فيها البطل محمود عبد الظاهر من خلال التقارن الإلهامي والإيجائي بينهما، حيث يجد القارئ نفسه في مكان واحد ولو أن الزمان يجعله على مفارق القرون. لا يبدو القارئ يضل المماثلة اللطيفة المديدة عبر الرواية بين اللغز الأسطوري الإسكندري وبين الأسطورة العقلانية الإمبرالية الحديثة. تاريخ

الإمبرالية الحديثة ليس إلا الأساطير العقلانية الجديدة التي يتخذ منها الإمبرالي وسيلة للهيمنة السياسية على الآخرين. وهذا لا يختلف كثيرا مما نطلق عليه الأسطورة الإسكندرية.

يتبين من المسار الروائي أن الإسكندر هو تاريخ وأسطورة. إسكندر نفسه إعتد على إختلاق الأساطير حول شخصيته وكيونته لكي يركب طموحاته وينزل مصائره وينال من مراميه الهيمنية. يخرج يظاً وأتباعه الأرض أقداما وحوافر ويطوي البلاد واحدة بعد أخرى يمينا وشمالا، فيجعل من أراضيها ملكا عظيما ومن رجالها عبادا ومن نسائها سبايا، يمتحنهم خوفا وطمعا، ظلما وودا، فلا يدري الخوف يتحكمهم أو الود يقهرهم. فيرجع إلى نفسه يسأل ما الذي يحبه، أفهو إنسان يجد من الوداد حياة أو ممن يجد من دماء الناس لذة ومن تخوفهم طعما. يقوم مرارا أمام كينوناته المضادة يتساءل في ذهل وبهت فيجد نفسه ينزلق إلى أعماق مظلمة متراكمة ليس له من الخروج من سبيل، كما يقول 'كان هناك آخر هو الذي ينتزعي من الفرح، إسكندر الدم الذي يطرد إسكندر النغم... ظل هناك دائما طوال عمري القصير إسكندر ضد إسكندر... خلقت إسكندر ثالثا يتساءل: أيهما أصلح حياة الإنسان على الأرض-البهجة أو الخوف؟ أيهما أدعى للاستقامة والخير؟ لم أصل في أعماقي إلى جواب لكنني حاولت فرض الجواب... إسكندر صدق وإسكندر أنكر، وأمليت في معجزة على يد آمون تجعل من الإثنين واحدا'.<sup>385</sup>

يجد القارئ نفسه يفرز بين ما ارتطمت من البواعث الأصيلة الخفية وراء اختلاق الأسطورة، وما تتجذر وراء التفلسفات النظرية التي تستند إليها نشأة النفسية الإمبرالية من البذرة إلى الشجرة من خلال نشوء الكينونات الإسكندرية من صبوته إلى شدته من العمر. يجد أن إسكندر يصطنع لنفسه ويستخلص له أسطورة فوق الأسطورة

مهذا لطموحاته، نظرا إلى أهدافه، فيختلق لنفسه سلسلة معجبة من الأساطير، معجبة للقلوب، ولا يزال يلفق من أسطورات مبتكرة خلال مساره العدواني من كونه إبنا للإله آمون-زيوس في طفولته طبقا لاقناع أمه عنه، ثم صيرورته إلى الإله الفرعوني بعد الانتصار على مصر كما يقول: 'زرعت أومي في نفسي اليقين بأني ابن الإله منذ وعيت الدنيا'.<sup>386</sup>

خلف هذه الزراعة المعجبة الملهمة هناك أسطورة أخرى من كون أمه كاهنة في معابد الإله التي تلج إلى العوالم الخفية، ومخازن الأسرار، فكانت تتلقى وحي الأسرار من وسوسة أوراق الشجر، ومن همس النسيم وغناء الطير ووميض النجوم وغيره من الأقاويل الذي لم يراها إسكندر تزلق للزيف والكذب أبدا.

بهذا الطريق وضع إسكندر بناء طموحاته من طفولته، ثم زخرفه أكثر بزينة الأساطير طول مساره البطولي ليحقق طموحاته الإمبرالية. لم يكن لترتوي مجنته الإمبرالية المتعطشة من مداسه الأرض المصرية فحسب، بل كانت نشوته الاستعبادية ترجع إليها بنزواته الجنونية ليقتمحم البلدان الأخرى من الفارسية والهندية شرقا وغربا.

احتاج إلى أن تخضع له أعناق المصريين كي تبقى سيادته مديدا وتحقق أحلامه المستقبلية. يجد المصريين خضعين للتماثيل المخيفة والفرعونية الإلهية التي يخلقها الكهنة لتمديد السلطان. فيختلق لنفسه قصة المعبد، ويتحلى بالحلة الإلهية الفرعونية التي زينها الكهنة زخرفا وتزويرا. فتخضع له قلوب المصريين خضعانا عبديا.

ينطلق أماما إلى الفرس فيدوسهم دوسا، يشنت قوتهم بتا وجمعهم شتا فيروي أرضهم دما بإرافة دمائم سفحا. يجعل من حصن بريسيبوليس حطبا فيشعله كله نارا فيقدم أكبر قربانا لآلهة الفرس. ثم يجعل من أعزة أهلها أذلة، فهل إلى مزيد من الأسطورة يحتاج؟

لم يكن الفرس كالمصريين تحكمهم الأساطير الإلهية والكهنة، بل السفح والعقل. فاخترع قوة فكرية من جديد، لفق بين دروس أرسطو وما درس في مصر- الفكرة والسفح. بدأ يتفوه عن حل المشاكل الإنسانية، وأنه يريد القضاء على أسباب السفح والدماء بين الشعوب يجعله من الإنسان أمة واحدة تحته، كي تعيش نفسه الناعمة في سكينه وهدوء. ولكن كان من أعماق القلب مؤمنا بالإسكندر الآخر السفاح الطموح. كانت الفكرة الإنسانية الواحدة المتساملة قناعا بين إسكندرين- بين إسكندر السفاح وإسكندر الناعم، بين إسكندر المهيمن والشعب المهزوم، بينه وبين أصحابه والجيش.

فأشار على الناس أنه يلون الأرض حمرا لأنبل أهدافه وأصدق أمنياته أن يسود الأرض الأمن ويعيش الناس سلما. فيعمل خطته النبيلة أن يزواج المقدونيين الفرس كي ينشأ منهم شعبا لا يختلف سلالة، دينا، لغة ولونا كما يقول: 'دانت لي الأرض، ضمنت إمبراطورية فارس كلها إلى مقدونيا، ثم انطلقت بجيشي فغزت كل الأرض شرقا. فأصبح الآن علي أن أعود لأفتح الغرب بعد أن فتحت الشرق... لكن ليس من قبل أن أنجح فيما لم ينجح فيه قبلي إنسان ولا إله. سأصنع عالما جديدا على غير مثال، عالم تتحد فيه أجناس البشر، وتتكلم لغة واحدة هي اليونانية أرقى اللغات، لغة الإلياذة، وتتزوج الشعوب فيما بينها، فلا يبقى إلا جنس واحد يعمر الأرض... حلمت أن أملاً الأرض بنسل جديد من سلالة الأوربيين والآسويات، فلا يكون بينهم بعد ذلك ضعينة

ولاحروب، أراد الإسكندر أن يحقق ما عجز عنه الآلهة- أن يخلق عالما لا يكون فيه أشقر وأسمر ولا فرق بين من يعبد زيوس أو نار الفرس أو آلهة الهند<sup>387</sup>

يبوح بما يستر خلف هذه الكلمات النبيلة قائلا 'تساءل إسكندر! هل كان لا بد من أجل هذا الحلم أن أخوض بحرا من الدماء، دماء المهزومين ودماء جنودي؟ ورد إسكندر آخر. نعم، مادام ذلك في النهاية من أجل خيرهم.. لا يفهم أحد حكمة الآلهة فلماذا يتعين أن يفهموا حكمتي أنا؟!...تھامست الحاشية أن الإسكندر أصبح طاغية مثل طغاة الشرق، يلبس ثياب الفرس الأعاجم ويجلس على عرش داريوس ممسكا بصولجانه، لعله نسي حرية اليونانيين فلم يعد يقبل أن يناقشه أحد ويريد أن يجعل العالم كله رعية له'.<sup>388</sup>

هذه النفسية الطاغية المدمنة للهيمنة والإمبرالية لم تكن لتعوقه مناظر المجزرة المهلكة في طريق الهوى، فيجد نفسه تراكم عليها نشوة النصر فوق نشوة الطموح الإمبرالي، النشوة التي ركبت حتى رأس جنوده 'لم يعد بوسعهم بعد أن أدمنوا خمر النصر أن يتراجعوا حتى لو حثتهم أنفسهم بالاستجابة لنداء العقل أو الأسرة أو الأبناء'.<sup>389</sup>

لم يكن إسكندر يصحو من هذا الإدمان إلا في نشوته الخمرية التي يعمه فيها سكرًا. يجهد لينسى الإسكندر الدامي ليصحبه الإسكندر الناغم الرقيق جهدا فاشلا حتى ليفيق منه إسكندر الدامي على إثارة بسيطة. يقتل واحدا من أصحابه كليتوس -الذي أنقذ حياته مرة- حينما سمع وهو في سكرانه الخمري أنه يفضل أباه فيليب

<sup>387</sup> طاهر، بهاء، واحة الغروب، ص 133، 134

<sup>388</sup> طاهر، بهاء، واحة الغروب، ص 134، 135

<sup>389</sup> نفس المصدر، ص 135

عليه وينكر له الأبوة الإلهية. ثم بعد القتل يرجع إليه الإسكندر الآخر المهزوم ويتصارعان، فيرى نفسه 'يقضي الليل كله ممددا إلى جوار الجنة يبكي كليتوس ويبكي مرتاحا من الوحش الذي يسكن تحت جلده الإلهي'.<sup>390</sup>

نرى بهاء طاهر يسليخ من الحوادث سلسلتين من المظاهر من البعد الإمبرالي والبعد الإنساني اللتين تلتويان سيرا وتضاربان ملتقى وتتصادمان موقفا وتتصارعان هيمنة وغلبة فتتجليان في شاكلة متناقضة يعملها الإنسان وحياة متصارعة يحياها وتعاملات متباينة يسلكها.

يبرز من المضي في مجاري المعاني التي يرسمها المسار الروائي فلسفة الحياتين الإمبرالية ووفلسفة الحياة المستعبدة. يجد القارئ الحياتين ليست إلا كزخرفة الأساطير فيجد التفلسفات الإمبرالية ليست إلا أساطير يتخذ منها وسيلة إلى الهيمنة كي ينشر غشاوات الأساطير فوق الأساطير ويهيمن بها على الإنسان من البعد الثاني. فنجد أن التاريخ الإنساني متصارع بين الفساد المطموح والأمن المرغوب ولا يكاد الطريق له يبين، يستعبد الآخرين مرة فيتعبد مرة أخرى.

هذه التناقضات يحياها جنود الإسكندر أيضا. فإن منهم من قدم نفسه للمشنقة من أجل الحرية وقليل ما هم، وكثرتهم تعبدوا أنفسهم - مثالان للاستعبادية والتعبدية. يعمل الإمبرالي وسائل الخوف والقهر فيتعبد له كثرة الناس وكانوا طرائق قديدا، فصدوق منهم وكذوب، أمناء فخوان، مستعبد للخوف فمهتلك للحرية. يرى الإسكندر أن الإمبرالية يتخذ من الخوف أسا لتوسيع الملك وتمديد الحكم فيقول: 'هناك تعلمت أن الخوف لا الحكمة هو أساس الملك، تعلمت أنه لا بد من إخافة العامة دائما بالعقاب والعذاب على الأرض في السماء لكي يعرفوا الطاعة والاستقامة، تعلمت أنه يجب على الحاكم ألا يسمع للعامة أو الحرية أو بالمتعة بل عليه أن يعلمهم أن

يجدوا المتعة في الخوف يجب أن يعبدوني في الخوف وبالخوف هذا هو أثنى درس تعلمته من آمون والمصريين. طبقته فنجح لا في مصر بل في كل مكان . كنت أسمع هتاف المصريين الجنوني المتهدج بالبكاء لفرعونهم الإسكندر في هتافاتهم الأخرى في أرجاء آسيا للإله الفاتح الجديد'.<sup>391</sup>

يستبين منها كيفية المعاملة في الإمبرالية. نجد ما بين هذه الفكرة ومعاملة الإمبرالي البريطاني مع المصريين ومع أهالي سيوة من مماثلة بينة، وما فعله الإنجليز من مجازر مخيفة خلال قمعهم لثورة عرابي- الثورة التي قتل كثير من الناس خلالها. لا يكون الإنجليز يحاربونهم الحرب المعروف بل ينفذون المجزرة التي تلعب في قلوب الناس خوفا وذعرا فيمتد استعباد المصريين لأمد بعيد كما يقول على لسان البطل 'يقول طلعت بصوت محتقن هذه مجزرة وليست حربا... القصف تستمر حتى بعد أن رفعت الطوابي الرأيات البيضاء ولم يبق فيها مدفع واحد يصلح للضرب'.<sup>392</sup> على غراره كان الإنجليز يعاملون مع أهالي سيوة. كلما قتل أهل سيوة عمدة أو مأمورا أرسلوا الجيش وقتلوا عددا كبيرا من رجالهم حتى لا يرجعوا إليه مرة أخرى. بطريق الخوف أرادوا أن يحكموها فأمد حكمهم فيها.

يحاول الراوي ليتعقل لغز الخيانة التي عملها كثيرون من المصريين منهم البطل وزملاءوه والباشا والبكوات وقدموا أنفسهم لطاعة الإنجليز خلال ثورة عرابي. فنجد أنه ضرب لهم مثلا على لسان الإسكندر 'ووجدت بالطبع أولئك القلائل من المتمردين الذين يلمون بالحرية وهؤلاء غالبا يتكفل بهم العامة أنفسهم قبل أن أتكفلهم أنا، يكشفون مؤامراتهم ويفرحون لسقوطهم لأن أولئك الحالمين يريدون أن يسلبوا من العامة نعمة الطمانينة في

<sup>391</sup> نفس المصدر، ص 138

<sup>392</sup> طاهر، بهاء، واحة الغروب، ص 50

الخوف... لم أنس واحدا من هؤلاء المتمردين غلاما في السادسة عشرة من عمره واحدا من أبناء النبلاء المقدونيين .. (يقول الغلام) "تسأل كأنك لا تعرف! تأمرنا عليك لأنك لم تعد تتصرف كملك مع رعاياه أحرارا بل كطاغية مع عبيده... لم تفارقني في عزلي صورة ذلك الغلام الشجاع. أدركت أنه إنما بالحق نطق. نعم بالطبع أنا طاغية مهما سقت لطغياني الأسباب. حكمت الرعية بالخوف فأفرخ الخوف الطاعة كما أردت لكنه أفرخ معها الخيانة خانني أقرب الناس إلي وتأمرؤا علي مرة بعد مرة. لم يجد منهم شجاعة ذلك الصبي ليواجهني بما قاله، ربما لأنهم لم يخونوا مثله من أجل مبدأ وإنما طمعا في أن يرثوا سلطاني، ولكن لماذا خان هذا الصبي زميله ووشى به، هل هو أيضا الخوف أو الطمع؟ فكرت طويلا فلم أعرف نقطة البدء في سلسلة الطغيان والخوف والخيانة أيهما يلد الآخر؟ وهل كنت أنا بالفعل صانعها أو واحدا من ضحاياها".<sup>393</sup>

يجد الناس الذين يمثلهم البطل محمود عبد الظاهر بأنهم في سلسلة من الطغيان والخوف والخيانة والطمع في الحياة. يجد نفسه خائفا من ضياع الحياة وطمعا لها فيخون أهله مرة والإنجليز مرة أخرى. نرى في البطل نفس التقلبات النفسية من العدوان والخوف والخيانة التي تبرز من حكاية الإسكندر وزملاءه. يجد نفسه قائما للحرية وللمبدأ مرة ، وأخرى مقهورا راضيا بالخيانة طامعا في الحياة، هو مشتت في الأشلاء الذي لا يزال يحاول جمعها فيفشل مرارا وتكرارا.

فما الذي جلبه الإمبرالي بالذي ضاعه المستعبد؟ ما كل هذه الأساطير من الخوف والأمن والإنسانية والحرية والصدق والخيانة. يقول على لسان الإسكندر 'في العزلة رافقتني صورة ذلك الغلام القتل واختفت صورة الإسكندر الكثيرة ولم يبق غير إسكندر واحد يدرك انه بلغ نهاية الطريق. جربت كل شيء - النصر والمجد الذين



لم يواتيا أحدا من قبلي، لذة الحكم والسلطان، أعفو كإله وأقتل كإله وجربت نشوة الشعر والموسيقى وامتعة النساء والخمر فلماذا لم أصبح سعيدا... كنت أعرف عندما أنظر إلى عينيه أنه يفهم كل أفعالي المتناقضة ويفهم الحيرة التي تدفعني إليها والتي لم أفهمها أنا أبدا... أذكر أحيانا دروس أرسطو فيجتاحني الشك في نفسي وفيما أفعل. فالآلهة الخالدة لا تنزف جروحها الدم ولا تعرف الألم ولا تقدم على الانتحار ندما ويأسا. قد حاولت أن أنهي حياتي مرتين على الأقل<sup>394</sup>.

إذا ما قارنا بين حياة الإسكندر وحياة البطل نجد كليهما في نفس المطاف وفي نفس النهاية. إمبراليا كان أومستعبدا يحيي نفس الحياة المتناقضة يألم ويجزن يحكم ويحكم، يطغى للحرية فيقهر للخوف. قد أتى بهاء طاهر بهذه الرواية الناضجة فنا ومضمونا سنة 2006م. نرى فيها آثار الهجمة الأمريكية على العراق التي هزت الكيان العربي وذكرهم بأيام الإمبرالية البريطانية. يبدو أن الروائي انتابه نوبة القلب المسجور من الحوادث الأفغانية والعراقية سنة 2001 و2003م وتصيطرت عقله جلوا وخلوا. يحاول إلى ثراء هذه الظاهرة فيخرج منه مأخوفا مبهوتا. أرضية الرواية تتشكل من أيام الاحتلال البريطاني على مصر زمننا ومن واحة سيوة مكانا. يرهق نفسه جاهدا كيف أن الإمبرالية تعمل ولماذا تعمل، وما هو الطريقة التي يخطيها الشعب المستعمر ضد الإمبرالي وكيف أن الهيمنة عريقة في النفس الإنسانية وكيف أن الإنسان يتكرر له أسبابا وزخرفا.

نجد البطل محمود عبد الظاهر قائما على مفرق السبيل، هو مستعمر للواحة واستعمره الإنجليز. المستعمر أيما كان فمعاملته مع الشعب المقهور لا يختلف. عامل الإنجليز مع المصريين معاملة المصريين مع أهل الواحة، وأسياد الواحة يعاملون مثله مع ضعفائهم. كل من هولاء يخرق لنفسه أسطورة التطوير والتحضير أو إخراج المصريين من

<sup>394</sup> طاهر، بهاء، واحة الغروب، ص 140، 141

ظلمة القدامة إلى الحداثة. يتخذ المصريون من القتال المؤبد بين الشرقيين والغربيين عذرا للهيمنة على أهل الواحة. الشرقيون يقومون باختراق أسطورات النبوءات لإشعال نار الحرب كلما يجدوا الفرصة. على يد أخرى المقهورون تسجر أكبادهم غضبا على المستعمر ويلتمسون طرقا للخروج من السيطرة، فيخونون ويتآمرون، يطغون فيطبعون. كل منهم يحفر ماضيه وتاريخه ليصطنع منه معالم تعينه على إيفاء مكانه الطامحة. فالسركشي الممثل في شخصية اليوزباشي يستخدم تاريخ السراكشة ليحرز على مجد أمجاده من جديد. الشرقي الممثل في شخصية الشيخ صابر يحاول الهيمنة على الغربيين فينخرط تاريخه مع الغربيين في ليبيا.

يرى الروائي أن هذه المرجعيات التاريخية ليست إلا أساطير وركبا للنفسيات الدنيئة للإنسانية. كل يأتي بتأريخ ويقاقل من أجله ومجده الماضي فأين من المجد الحاضر.

نرى في قتل شخصية محمود نفسه مع تحطيم المعبد في الواحة توحيد الماضي والحاضر، توحيد التاريخ والأسطورة، كأنه يقول نأت فنقتل التاريخ، نأت فنقتل الماضي، فلنقتل كل التعاقد ليأت السلم من جديد. 'يجب ألا يبقى للمعبد أثر. يجب أن ننتهي من كل قصص الأجداد ليفيق الأحفاد من أوهام الغزاء الكاذب.'<sup>395</sup>

نجد في هذه الرواية تصوير ما يكمن وراء الأفكار والنظريات الحديثة. يبدو منها أن منظور النظريات والمرجعيات التاريخية، والهدف الرئيسي منها ليس تطوير العلم أو خدمة الإنسانية كما يدعون بل دائما يأتيون بها كمبتكرات علمية وفكرية من أجل الهيمنة والسيطرة السياسية على الآخرين.

الباب الثالث: النقد الاجتماعي في روايات بهاء طاهر

### المدخل - تحديد قضية اجتماعية

الإنسان خلق ميول بفطرته إلى الحياة الجموعية ومفروع بحياة انعزالية، وعلى جهة أخرى هو وجود فردي حقيقي لا يمكن أن يتخلى عن فرديته كاملة لميله إلى الجموعية، وبين هذين الحدين الفردية والجموعية نجد فسحة احتكاك الفردية مع الجموعية، فسحة تتولد فيها علاقات بين الأفراد على مستويات مختلفة، فمنها علاقات تغلب عليها الفردية ومنها علاقات تغلب عليها الجموعية، ويمكن لنا تقسيم هذه العلاقات إلى قسمين: أولاً العلاقات التي تتولد من الدم فتتفرع، وتتحدد هذه العلاقات إلى العلاقات الأسرية للفرد. من هذه الناحية القضايا الاجتماعية تشتمل على علاقة الفرد بالآباء والأبناء أو البنات والأزواج من الأوجه التي تتعلق بالفرد من سياسة أو اقتصاد أو الحقوق الفردية والحقوق الاجتماعية.

ثانياً علاقة هذا القسم المتولد من الفرد والمشمول على الأسرة مع أمثالها أي العلاقات بين الأسر في مجتمع ما. وهذه العلاقات من القسم الثاني قد تتوسع إلى العلاقة السياسية حينما يعمل هذا القسم الثاني المتولد من احتكاك أمثال القسم الأول كفرد واحد إزاء حكم أو سلطة للحصول على الحقوق المدنية. من هذه الناحية نطلق هذا القسم الثاني على الوحدة الاجتماعية التي نتصورها إزاء السلطة.

كما ذكرنا في الباب الثاني أن النظريات الجديدة تغير العلاقات الكثيرة من جذورها وتضعها في اضطراب ولم تبق العلاقات الاجتماعية إلا أن تأثرت منها. فبدأت العلاقات تتحدد من جديد بين فرد وفرد، على غرار العلاقات السياسية التي تقلبت فيه منابع قوة الحكم من الحاكم إلى المحكوم. تغيرت العلاقات بين أفراد الأسرة إلى حد ما، فبعد أن كانت الجموعية تحكم في العلاقات بين أفراد الأسرة وتأخذ قوتها من الكبر والرجولية تغيرت أسس العلاقات منها إلى الفردية وأصبحت الفردية محور الحكم في العلاقات الاجتماعية وأصبحت هي الأصل ذات اليد العليا في العلاقات بين أفراد الأسرة، فكان هذا تغيراً جذرياً تولدت منه مبادئ ومعايير أخلاقية مختلفة،

وكان ذلك بداية لاضطراب طويل في المجتمع، ويمكن أن نتفقد جذور الفردية المتطرفة في هذا التغير الجذري. ذلك أيضا أفضى إلى التغيرات الجذرية في العلاقات من القسم الثاني أي العلاقات فيما بين الأسر في مجتمع، وكانت لها آثار متمادية على ما نطلق عليه العلاقة الاجتماعية. لأن الفردية أصبحت غالبية وحاكمة في شبكة العلاقات الحديثة، اشتبكت سلم العلاقات الاجتماعية حتى أصبحت مشوشة وتولد فيها نوع من الخلاء والفراغ الذي تسللت إليها القوة السياسية. فالعلاقات الفردية والأسرية أي العلاقات الاجتماعية عليها أثر عميق للنواحي السياسية، وأن تدخل القوة السياسية أصبحت مهيمنة على العلاقات الاجتماعية. فالتغير في السلطة السياسية والمشروعات والبوليسات التي تأتي بها تمتد آثارها مباشرة على فرد المجتمع، وكذلك الممارسات السياسية من قبل الفرد تؤثر السلطة كما أن الحياة الفردية والأسرية تتأثر من السياسة. ولذا يبدو كثير من القضايا الاجتماعية والسياسية متشابكة.

كان من الصعب جدا تفريد قضية من سياسية إلى اجتماعية أو بالعكس، فحاولت أن أضع القضايا التي تغلب عليها عامة النواحي الفردية الشخصية أو الأسرية ضمن القضايا الاجتماعية وأيضا القضايا التي تبدو سياسية ولكن أثرها شديد في العلاقات ما بين الأفراد والأسر.

وهذا الروائي الكبير بهاء طاهر كما ذكرنا روائي الواقعية أي الواقعية الاجتماعية والسياسية<sup>396</sup> وكل ما يكتب أو يصور من قصص أو روايات يمثل الواقع الاجتماعي والسياسي أو يدعو إلى واقع اجتماعي وسياسي أحسن. وله مواقف اجتماعية أتى بها خلال رواياتها بعضا بنبرة ناقدة حادة وأخرى بنبرة متسامحة مشوشة، وبعض الأخرى بنبرة حيادية بدون إجراء حكم على ما هو الصواب. قد فردت العديد من القضايا الاجتماعية البارزة خلال

<sup>396</sup> قرني، محمود، بهاء طاهر مؤسس تيار الوعي في الرواية المصرية، الروائي المصري بهاء طاهر من الذين استمسكوا بدور الفن ووظيفته كأداة من أدوات تطوير الوعي المجتمعي، صحيفة "العرب" الصادرة من لندن، نُشر في 28/03/2015، العدد: 9870، ص(14)

رواياتها الست وحاولت تحليلها على غرارها مع تعليقات فكرية ونظرية كما صاب لي رأيي فيها. ففردت من بينها قضايا الحب والجنس، وقضايا التربية المتعلقة بالأطفال، وقضايا الاقتصاد، وقضية التسامح الديني.

## الفصل الأول: قضايا الحب والجنس

تصوير الحب والغرام والهيام والعشق مع تنوعاتها شاسع في رواياته. يصوره من خلال خلفيات ونظريات ووجهات عديدة ويترواح بين الحب العقلي-الفكري، ثم الروحي والجسمي والأسري ولذا يتعذر لأحد تناوله من جهة خاصة دون أخرى، فحاولت تحليل القضية من خلال نظرية كما بدت من تحليل أماكن تصوير الحب في رواياته. والمشكلة أنه قضية أثارت توجهات ذوي الفنون والعلوم والفلاسفة ولا يخلو عامة الناس من أحاسيسه وممارسته، فالقصص والحكايات والقصائد والروايات مليئة بذكره. "وكثير من أهل العلم حاولوا فهمه وتفهمه وقدم الفلاسفة تقيمه وتحديده من خلال نظريات فلسفية."<sup>397</sup>

فالحب عند بهاء طاهر عقلي ومادي، وشهواني أو جسمي. والحب عنده أصل لازم للوجود، والوجود ضائع بدونه.

ونراه يفرق بين نوع من حب وآخر ويفضل واحده على الآخر. درجات الحب تبدأ لديه من الحب الجسمي إلى النوع الأسمى منه وهو الحب العقلي وما بينهما درجات. والمرأ لديه كل من هذه الأنواع من الحب. وهذه الأنواع كثيرا ما تتضارب فيضطرب الإنسان بتضاربها، فقد يرقى إلى أسماها أو يهوي إلى أسفلها أو يتردد بين هذه الأنواع فيتشتت فيصبح لقفه كرة لا يدري أين مهواها و أين مهداها.

**نظرية الحب:** الحب أصله يرجع إلى المشاعر وهي إلى الشعور. والشعور يرجع إلى الوجود، فالمشاعر تجعلك تشعر بوجودك، والمشاعر تتعلق بجميع نواحي وجودك، والإحساس بهذه الظاهرة يمكن أن نطلق عليه "الحب". فالحب يتعدد ويتنوع بتعدد نواحي الوجود، وهذه النواحي يمكن أن نقسمه من الأعلى إلى الأسفل من الوجود العقلي

<sup>397</sup> "love" Psychology and mental health ( online edition), Salem Press, 2013

إلى ما دونه، فالحب العقلي يتصل بتعقل الوجود، وشعوره يجعلك تشعر بوجودك وضياعه يجعلك ضائعاً وسدى. نرى تقاحم العقول حول تحديد الوجود والذات من خلال النظريات والأيدولوجيات، فالتصور التجريدي النظري عن وجوده لازم لشعور الوجود ولا غنى لأحد عنه. وذلك يمكن أن يكون بتحديد الوجود عن طريق الدين والأيدولوجيات الحديثة من أمثال الوطنية والقومية والعروبة والعنصرية وغير ذلك، والاحتفاظ على ذلك أصبح لازماً للوجود، وهو صراخ مدوي من قبل العقلاء والمثقفين في زماننا. وحينما يتعلق الحب بهذه الناحية يمكن أن نقول إنه حب عقلي. فالحب العقلي ينحصر على الوجود الذي يتركب من المبادئ والأفكار والأيدولوجيات.

وثانياً الوجود المادي وذلك أن الإنسان مادي متركب من المادة يحتاج إلى جلبها ليسري حياتها، والحب المتعلق به يطلق عليه الحب المادي أو حب النعمة والترف والمال والتفرج، وثالثاً الوجود الشهواني وذلك أن الإنسان له وجود اجتماعي وهذا يتمركز حول الوجود الجنسي فيمكن أن نطلق عليه الحب الجنسي أو الجسمي ووضع بعض العلماء والفلاسفة هذا النوع من الحب على أسفل درجات الحب، والروائي هذا يبدو يسير في هذا المسار الفكري.

وهناك نوع آخر من الوجود وهو الوجود ذاته، الوجود نفسه وهذه مسألة شائكة ونزاعية إلا أن نحتاج إلى ذكره لأن الحب المتعلق به يقال عليه الحب الروحي أو الحب الوجودي أي حب الوجود نفسه، وبدا لي خلال مضبي عبر رواياته أنه لم يعالج هذا النوع من الحب مباشرة إلا أنه يبرز منها من خلال الحيرة المندهشة والطارئة على شخصيات والأبطال في رواياتها حينما يتفكرون ما هو وجودهم وما أهمية هذا الوجود. فكل واحد من الشخصيات في رواياته يتدرج من هذا النوع إلى الأنواع الثلاثة الباقية ليجد الملجأ والملاذ فيها ويتشبث بأي



واحدة منها ليحي الحياة ولا يضيع في البحث عن حقيقة وجوده الذي يستحيل بل يلجأ إلى الأخرى ليجد السلوى فيه.

في رواية "شرق النخيل" نجد الروائي يدعو إلى الحب العقلي. زميل البطل سمير ينقذ نفسه من الحب الغرامي والجسمي إلى الحب العقلي فيبدأ يتفكر لقضية الوطنية والعروبة والحرية وخاصة قضية الفلسطينيين، كما يصور الروائي رحلة تغيير سمير إلى الحب العقلي على لسان ليلي صديقة سمير - "سمير؟ سمير أول من تغير. كيف.. سمير؟ .. في السياسة؟".<sup>398</sup>.... "يكلمني .... عن السياسة واليهود وسيناء، وفلسطين وأحيانا يبكي. سمير. سمير الذي لم يكن يعرف غير الضحك والفرح بعض ساعات يبكي وأنا... أنا خائفة عليه...".<sup>399</sup> ويصور الروائي على لسان ليلي أن سمير أصبح نشيطا في السياسة وبدأ يكتب ويخرج جرائد الحائط مع كتابات مستفزة تجاه التوعية السياسية بين الطلاب فيكتب عن فلسطين وثورة عرابي وجمال عبد الناصر والشهداء، ويقوم بتنظيم المظاهرات حول القضايا الوطنية والعروبة، وههنا مشهد من جريد الحائط "وجرت عيني على بقية العناوين "شعبان العطار يتفقد الجبهة ويوزع مربة البقر الأصلية على جنودنا البواسل. كرباح تجري حديثا خطيرا مع شعبان". و "الهجرة في زمن الحرب، لا دموع للجناء" و "أبطال مصر: محمد عبيد" و "ماذا تعلم عن شهداء الجامعة في 1935م؟" وتحت كل واحد منه اسم لطالب أو طالبة لا أعرفه بالطبع وفوق كل ذلك اسم سمير، هل أعرفه؟.. كنت لا أزال أمسك بيدي الكتاب الذي التقطته أول ما دخلت. ونظرت فيه كان عنوانه "تاريخ الثورات الفلسطينية" وعلى المكتب أمام عيني "أحمد عرابي المفترى عليه" و "الميثاق" و "خطب جمال عبد الناصر".<sup>400</sup>

<sup>398</sup> طاهر، بهاء، شرق النخيل، ص 246

<sup>399</sup> نفس المصدر، ص 247

<sup>400</sup> نفس المصدر، ص 278

فمتى تغير سمير؟ تغير بعد أن قرأ في صحيفة يوما خبرا عن شهادة عصام، وكان زميله في الغرفة. في تلك الأيام كان سمير لا يبالي بالقضايا الوطنية والعروبة وفلسطين، ولا يفكر كثيرا في هذه الأمور بل كان يهزأ بعصام عن فلسطين وتاريخ فلسطين. لكن بعد استشهاد عصام بدأ يقرأ ويكتب وتغير. كما يقول- "نعم كان هذا هو السبب. لكي أكتب عن عصام، قرأت شيئا عن فلسطين وعن حلحول. ثم وجدتي أقرأ غير ذلك فرأيت حلحول في مصر ومصر في فلسطين وآلآفا من أجدادي ماتوا مثل جد عصام وآلآفا من آبائنا ماتوا كأبيه وأن المصيبة واحدة والهـم واحد.<sup>401</sup> في رؤية الروائي كانت هناك شائعات كذبة بين الطلاب من أن ضياع فلسطين كان بسبب الفلسطينيين و الكوارث الدائرة هناك من حصائدهم، ولا يكونون يرون أنهم أصبحوا ضحايا مكائد الصهيونية. من خلال هذه الرواية يحاول الروائي تثقيف القراء وإخبارهم عن حقيقة الأمر بتقديم السؤال على لسان واحد من الشخصيات أن "ولكن مع ذلك فهناك فلسطينيون، غير جد عصام وأبيه، باعوا أرضهم، أليس كذلك؟" ثم يقوم بإجابة مفصلة على لسان عصام "عندما احتل الانجليز مصر وزعوا أرضا على الذين أعانوهم على احتلال مصر وكانوا عشرات، لكنهم وضعوا في السجون ثلاثين ألفا من الذين ثاروا مع عرابي غير من ماتوا في الحرب. فمن هم المصريون حقا؟ وعندما جاء اليهود باع لهم بعض الفلسطينيين أرضا وكانوا عشرات. لكن آلآفا ماتوا في الثورات على اليهود وفي الحرب معهم. فمن هم الفلسطينيون حقا؟ يا صديقي في داخل كل شعب جماعة تنبح وراء من يلقي لها العظمة. وهل تريد ما هو أكثر؟ في داخل كل إنسان ذلك الكلب الذي ينبح والمهم أن نخرسه".<sup>402</sup>

---

<sup>401</sup> نفس المصدر، ص 298

<sup>402</sup> نفس المصدر، ص 298

كما أن البطل يغرق في همومه التي لحقته لفشله في القيام للمبادئ حين احتاج إليه أخوه من عمه لتقصي النزاع بينهم وبين أولاد الحاج صادق بما يتعلق بأراضيهم. الأرض قد عمرها جد البطل وادعى عليها أولاد الحاج صادق. استنجد عم البطل أخاه أن يقوم حذوه ضد الأعداء ويناصره في الأمر إلا أن أخاه ينكر بذلك. وحسين ابن عم البطل أراد من البطل أن يقوم حذوه إن لم يقيم لهم أبوه. لكن البطل أيضا لا يقوم لهم ويغادر للدراسة بالجامعة ثم يقع حدث شهادة حسين وأبيه بطلقات نارية من أولاد الحاج صادق. منذ ذلك اليوم ينكسر البطل من داخله وينسحب من الحياة، يبدأ يقضي حياته ضائعا مضروبا بالهموم، ولا يكاد يفيق منه أبدا. كأنه يقتل نفسه أسفا على أنه لم يقيم حين احتاجه أخوه. وفي ذلك مثل لما يجب على المصريين من مناصرة إخوانهم الفلسطينيين. ولا يبقى لديه للحب وللحياة معنى بعد انهزامه في مجال الحب العقلي، والروائي يدعو من خلال تصويره إلى أن البطل لا بد له أن يخرج من همومه الانهزامية ويخطو خطوة أخرى، إن أصابته هزيمة مرة من أجل اللامبالاة فله مجال أوسع وأرفع لممارسة الحب في الحياة وهو حب الأفكار الوطنية وما يقوم له الوطن والعروبة وما تقوم لها ، الرواية تقدم تصوير الابن والأب المقتولين في سبيل القيام على الحق والثبات تصويرا نموذجيا يقتدى به "وانكفأ الابن يحضن الأب والأب يحضن الابن والدم يجري مع الدم. رجع دم الابن إلى أبيه ورجعا معا لتراب الأرض متوضئين مصليين طاهرين".

ومن خلال هذه النماذج يستطرد إلى الوقائع الأخرى في الرواية مع التركيز الأصلي على علاقة جميع الحوادث الأخرى فيها من هذا النموذج، فتولد منه فكر معنوي لحب المبادئ والأفكار وأنه يلزم تقديم الحياة تضحية لها لو أن للحياة معنى وأهمية.

"اليوم عرفت شيئاً من هؤلاء الذين يجلسون هناك. شيئاً أهم منك ومني ومن الحب. شيئاً يستحق أن تتعذب من أجله. هل تعرف ما هو؟".<sup>403</sup>..... ووجدت يدي تشتبك مع يد ليلي ومع يد طالب لا أعرفه وبدأت ليلي تغني معهم بصوتها المبحوح بلادي بلادي. وهز الطالب الذي إلى يساري يده المرفوعة وقال لا تسكت. لا تخف، غن بصوت عال. فغنيت بلادي.. أغلى درة.. مصرحة.. يا بلادي.. عيشى حرى.. يا بلادي".<sup>404</sup>

في النهاية نجد أن البطل شارك في التظاهرات وحتى تحمل ضربات العصي البوليسية من أجل الوطن. يرسم الروائي أن كل واحد من سمير وليلي والبطل نهائياً خرجوا من أعناق الحب الفردي وتحولوا إلى الحب العقلي من الوطن وفلسطين.

وفي رواية "قالت ضحى" يقدم الروائي حبكة الأحداث والوقائع تأتي فيها أوضاع نفسية تصور مسيرة الحب من الأعلى إلى الأسفل ثم يدعو إلى أن الإنسان عليه أن يفيق من جديد وينقذ نفسه إلى الحب الأعلى. البطل في هذه الرواية كان من المتحمسين والنشطاء في السياسة وكان يشارك في التظاهرات، وكان يقوم لمبادئه وما يحبه حبا عقليا.

فجأة يسقط البطل في قعر اليئوسية بعد أن استوجد في نفسه ضعف الجبان أمام القيام للمبادئ فلم يكن يرى للحياة معنى من بعد، وذلك خلال محاكمته في السجن. اعتقلت الشرطة المتظاهرين مرة من بينهم البطل وصديقه حاتم. كان أصحاب الشرطة يضربون المعتقلين ويدلونهم ويسألونهم عن قادة المظاهرة. لم يكن واحد منهم يقر بذلك. لما رأى البطل أنه سوف يقدم للضرب والسؤال، خاف على وظيفته الحكومية وظن أنه لو أقر بما يسألون عنه فسوف يصون الوظيفة. سرّ عن أسماء المنظمين للمظاهرة لواحد من الشرطة الذي لأمه لما ذا يخون أصدقائه

<sup>403</sup> نفس المصدر، ص 303

<sup>404</sup> نفس المصدر، ص 304

ولماذا لا يصمت مثل أصدقائه. منذ ذلك اليوم لم يغفر البطل نفسه لهذه اللحظة المذلة واعتقد أن ليس فيه من الكفاية للقيام على المبادئ والتضحية لها. ينسحب إلى داخله ويتخلى عن النشاطات السياسية.

الروائي يصور أن البطل يفيق ويقوم للمبادئ مرة أخرى. يحاول مرة أخرى إنقاذ نفسه من قعر القنوطية ويجعل يساعد سيد القناوي في اهتماماته ضد الفساد في النيابة، ويتضح من مسار الرواية أن شخصية القناوي شخصية نموذجية للاقتداء وهو الذي ركب الحياة المليئة بالخطر من أجل حب المبادئ والأفكار التي وضعها طيات في قلبه.

وحاتم الذي كان نشيطا يوما ما لحب المبادئ والأفكار أيضا يهوي في القنوطية فلا يرى في إنقاذ نفسه منها ولا في إخطار حياته من أجل المبادئ معنى. فليس له إلا الحب الميؤوس، أن لا يمس حياته خطرا ما يلقيه في ماضيه الفقيرة.

وضحى نراها شخصية هاوية في الحب الجسدي بل يبدو أنها تعذب نفسها تعذبا ذليلا لفشلها في الحب العقلي، لا ترى الإنقاذ من سعتها فتتحول إلى النفسية الأسطورية وتحاول أن تجد الحب الأعلى في الشخصيات الأسطورية كي تتحقق للحياة معنى وللقلب سلوى وللعقل نجاة ولكن لا تنجو، بل تصبح نائمة لا تفرق بين الجليل من الأمر والذليل، فنرى أن حياتها ضاعت من أجل أنها لم تجد حبا، الحب الذي يمكن أن تحيا لها "سأحكي لك عن أقرب إنسان أعرفه، عن زوجي. عندما تزوجنا كان يملك كل شيء. الشباب والثروة والمجد. كان عضوا بارزا في الحزب وفي الحكومة، مدير مكتب الوزير أو شيئا من هذا النوع. كانت كل خيوط الوزارة التي يعمل فيها بيده. وعندما جاءت الثورة وأخذوا أرضه وأرضى لهم يهتم بذلك. قال ما بقى يكفيننا. ولكنهم عندما أخرجوه من الوزارة بعدها إلى المعاش مع من أخرجوهم وقتها لم يصدق ما حدث. أظن أنه حتى الآن لا

يصدق. من يومها بدأ يقامر. ما زال حتى الآن يقامر. أظن أنه يريد كل مال الدنيا لكي يعوض ما خسره عندما طردوه من الوزارة ولكنه لا يريح أبدا. وبالمناسبة هل سمعت عن أحد ربح حقيقة من القمار؟ قلت له مرة إنه يحاول أن يسترد بالحظ ما ضيعه التاريخ لكنه لم يفهم. ضاعت كل الأرض وضاع كل ما يملك لكنه لم يفهم".<sup>405</sup>

"وقال لي ذلك الرجل في الأقصر لكن أنت .. كيف عرفتك؟ فتركته. اختفى واختفى معه الزوار وبقية البشر وتلك الأحجار والأخشاب. كنت أقف هناك، وحدي. كنت وحدي في قلب الأشياء اشهد بداية الأشياء. في الأول كنت في الظلام ولم يكن غير الظلمة والصمت شيء، ثم تجمع وسط الظلام ماء واشتاقت الظلمة للنور فأشرقت شمس رع، ولما كان النور تاللاً الماء وطفت من ألقه جزر صغيرة وكان يعتلى كل جزيرة إله، وكنت أنا هنا في ذلك المكان وكان أوسير هناك وكان بيننا ماء، لكن أوسير مد لي يده فمددت له يدي والتفت في ذلك السديم جزيرتانا معا وتعانقنا وبالحب صرنا واحد".<sup>406</sup>

"ولكن أظن أنني طول عمرى أكره القهر. قهر الانسان بالفقر وقهره بالخوف، وأهم من ذلك قهره بالجهل أن يعيش الانسان ويموت دون أن يعرف أن في الدنيا علما فاته وجمالا فاته وحياة لم يعيشها أبدا....".<sup>407</sup>

تحاول ضحى أن تبحث عن وجودها فتقوم لحبه ولكن لا تجد. حبها الذاتي ضاع مع ضياع زوجه في المقامرة. لم يكن لديها مجال ممارسة الحب العقلي. فلم تبق إلا أن تحاول تجمع نفسها بطريق ما، فقد ترجع إلى الأسطورة ثم ترجع إلى الشهوة وتحبى حياة ضائعة.

<sup>405</sup> نفس المصدر، ص 318

<sup>406</sup> نفس المصدر، ص 359

<sup>407</sup> نفس المصدر، ص 362

وفي رواية "الحب في المنفى" نجد معظم شخصياتها من البطل وزوجته منار، وإبراهيم وعشيقته شادية، وبريجيت وأدبرت، وأبو بريجيت ويوسف كلهم كان أول حبهم هو الحب العقلي، والهزيمة فيه ألقتهم في الحب الجنسي أو دمار الحياة، كان البطل رجلاً نشيطاً للمبادئ السياسية والاجتماعية من العدالة والحرية والمساواة وكذلك كانت منار، وهذا الحب العقلي هو الذي جمعهما، والهزيمة فيه فرقتها هي و البطل "لكم كانت الأمور تصبح سهلة ومفهومة! تقول البحث عن الكمال؟ ولكننا عشنا معاً سنين طويلة وقبلنا الحياة كما هي، لم تتوقع منها أن تعطينا ما تعجز عنه، ومع ذلك فإن النهاية في ذهني ضباب كامل الغام تنفجر في الظلام، مشاجرات تتكرر كل يوم وإهانات متبادلة وصلح مؤقت وعتاب على ما حدث في الماضي وتعهيدات للمستقبل قبل أن ينفجر لغم جديد ويرجع كل شيء إلى أوله".<sup>408</sup>

"قلت ربما كان لذلك كله علاقة بما حدث لي في العمل، لم يكن تفضلي غير خطوة عن رئاسة التحرير، ثم جاءت السادات فضاع كل شيء وأصبح المستشار الذي لا تستشيريه أحد، ولكن منار لم تكن بهذا الضعف تتخلي عني لذلك السبب".<sup>409</sup>

"كانت لها مبادئ، المال لم يكن شيئاً مهماً في حياتها منذ البدء، حين تزوجنا لم يكن لدينا شيء لم تشك قط ولا تغيرت بعد ذلك حين زادت دخلنا".<sup>410</sup>

"لم تكن لها مطالب بل كنت أنا الذي أعوضهما أيام الحرمان الطويل".<sup>411</sup>

<sup>408</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص: 31

<sup>409</sup> نفس المصدر، ص 31

<sup>410</sup> نفس المصدر، ص 32

<sup>411</sup> نفس المصدر، ص 32

"هل كنا نحن أيضا رغم المبادئ والشعارات، نقدر النجاح والوصول مثل كل الآخرين معنا في الصحيفة وفي خارج الصحيفة؟ فلتعترف، فتعترف بأنك وقد ملأتك الهزيمة والغضب أصبحت نافذ الصبر، ومستعدا للشجار لأهون السبب مع منار ومع غير منار، لم لا تكون هي أيضا قد نفذت صبرها وامتألت بحياة الأمل".<sup>412</sup>

"أدرك الآن - أدرك لصفاء كامل- أن تشبهي بجم عبد الناصر أيامها لم يكن مجردا إيمان بالمبدأ الذي عشت مقتنعا به، بل كان أيضا تشبها بجملي الشخصي، بأيام المجد والنجاح والوصول، وأفهم الآن أن منار التي جمدوا وضعها في الصحيفة مثلي وبسببي قد اعتبرت عبد الناصر خصما شخصيا لها، فبعد أن اختزلوا باب المرأة إلى ربع حجمه تذكرت أنه سبب النكسة بالمعتقلات وكل تلك الأشياء التي كثر الحديث عنها بعد أن مات، نسيت منار تماما دموعها الغزيرة حين أعلن التنحي بعد الهزيمة وصرختها المتناعة (هل كانت تنقصنا هذه المصيبة بعد سيناء) نسيت فرحتها بعد ما رجع بعد التنحي ونسيت إغماءتها وانهايارها الطويل بعد موته، أصبح هجومها على عبد الناصر ودفاعي المستميت عنه حيلة لتنفيس توترنا لا أكثر".<sup>413</sup>

لم ينس البطل الهزائم النفسية والمذلات الطفولية أصابته من أجل أن أباه كان فراشا في المدرسة، كان يحزن لذلك الماضي ويخاف منه لورد إليه مرة أخرى، بدأ يعوض نفسه ما فات عنه في الطفولة ويطلب الأموال مخافة أن لا يزل إلى ماضيه، وهذا كان التقهقر من الحب العقلي إلى الحب المادي ومنار كانت تتفرس كل ذلك. لم يكن في وسعها أن ترى هذا الانحطاط أمام عينيها. اعتبرت هذه السيرة في حياة إبراهيم خديعة لما قامت به وقام بها فتنكسر من داخلها و أيضا تزلق إلى الحب المادي ثم يفترقان بالطلاق وينسحبان من الحياة المتسمة بالحب العقلي. ونهايا يصل حياتهما على جرف هار لولا الإسلام أخذها بساعدها، ولولا أن حدثت حادثة لبنان

<sup>412</sup> نفس المصدر، ص 31-32

<sup>413</sup> نفس المصدر، ص 32-33



خلال أواخر سنوات البطل في المنفى. تقوم إسرائيل بالغارات على مخيمات صبرا وشاتيلا التي يسكنها اللاجئون الفلسطينيون. يحاول الرجوع إلى الحب العقلي، فينشط للقضية ويتابع الأخبار ويرسل التقارير في الصحف ويشارك في المظاهرات ويحاول محاولة صادقة ليفيق من حياته النائمة ويستخدمها للحب العقلي. ولكن كثيرا كان ضاع منهما، والبطل يحاول تحقيق معنى الحياة في حب بريجيت ويعوض نفسه عن كل ما فات عنه بعد الطلاق في حياته "لماذا غابت صورة منار وأصبح وجه بريجيت هو الذي يلازمي في ليالي الأرق؟ ..... رغم ذلك لم يكن الحب المكبوت الذي حدسه إبراهيم هو كل شيء، أردت أنا المكشوف الجراح، أنا أحميها وكأني أكفر عن ذنب ما غير أنني لا أعرف ما هو".<sup>414</sup> "ولكي أطمئن نفسي أن هذا الذي يحدث بيننا ليس هو الحب كنت أردد في داخلي أشياء كثيرة، إن ما يجمعنا هو حبنا للشعر في وقت لم يعد فيه للشعر مكان، إنني في وحدتي البعيدة اتخذها بديلا عن أولادي .... إنني أشفق عليها بسبب ما جرى لنا..... إننا برغم فارق العمر صديقان جمعتهما الغربة، فلم لا؟ ولكن شيئا قلنا في داخلي كان يسخر من هذا كله".<sup>415</sup> "وكننت أسأل نفسي: ومن أنا لأستحق كل هذا الحب؟ أليس عارا أن أفرج كل هذا الفرح، في هذا العمر وفي تلك الأيام وسط تلك الحرب".<sup>416</sup>

"لم يكن عدلا أن ألقاك وأن أحبك، ولا أفهم ما تقصدين بالضبط ولكني أكمل لم يكن هذا عدلا أن ألقاك في هذا العمر وأن يأتيني كل هذا الحب، ولكننا مع ذلك كنا نضحك، كنا مدهوشين وكنا سعيدين".<sup>417</sup> "كنت أهرب من كل ما يذكرني بالصراعات القديمة وبنفس القديمة، قبلت أيضا أنني أب مهزوم يجب أن لا يحارب لكي يسترد ما فقدته بالفعل فلم هذه الحيرة الآن؟ لماذا كان يجب أن يظهر هذا الأمير؟ هل أصارع - أنا أيضا - خيلا

---

<sup>414</sup> نفس المصدر، ص 127

<sup>415</sup> نفس المصدر، ص 143

<sup>416</sup> نفس المصدر، ص 174

<sup>417</sup> نفس المصدر، ص 175

من فوارسها الدهر، من فوارسها الأمير حامد ودافيديان خيلا عربية حقا".<sup>418</sup> "وكنت أسأل نفسي في دهشة هل مازلت بالفعل صحفيا له حاسة الصحفي؟ بعد كل السنين التي مارست فيها البطالة في هذه المدينة الأوربية أنقل الأخبار الرديئة لصحيفة رديئة؟ ما الذي أزال عن نفسي فجأة ذلك الصدا رغم تحذير الطبيب وتحذير بريجيت بالألا أرفع السلاح مرة أخرى في وجه العالم الذي هزمتنا ..... شئ أقوى مني كان يدفعني أيامها لأن أكون الصحفي الذي مات من قبل ودفنته، شئ يدفعني إلى أن أبحث وإلى أن أعرف ولم يكن أمامي سوى أن أطيع".<sup>419</sup> نجد البطل يتقلب بين الحب العقلي والحب الجنسي بعد أن ألقته الأوضاع بعيدا عن ممارسة الحب العقلي. قد يلجأ إلى بريجيت ويحاول استرداد نفسه من خلال هذا الحب ثم يفيق من إغماءته فينشط لحادثة لبنان ويبدأ يعمل كل ما في وسعه كصحفي ويكتب عن الجرائم اللاإنسانية التي ترتكبها إسرائيل.

ويرى الكاتب أن هناك ضعف في الإنسان أو مواقف شائكة يستسلم له الإنسان. وهذا ما يلعب دورا كبيرا في تعيين الدرجة التي يكون فيه الإنسان من مدارج الحب. هذا الضعف أصاب إبراهيم (الحب في المنفى) أيضا ولو أنه حاول أن يقضي حياته حتى إلى الموت للحب العقلي إلا أنه قد انكسر في داخله لذلك الضعف. لا شيء عوضه عن حب شادية، الحب الذي لم يكن الحب والغرام الجسمي بل أيضا كان حبا عقليا. ولذا لم يجد سلوى في الأحداث الغرامية مع النساء الأخريات ولم يزل يبحث عن حب شادية المستحيل. كان إبراهيم شيوعي النزعة في أيام جمال عبد الناصر وكان ممن أعتقلوا من أجل انتمائهم اليساري. يقضي سنوات طويلة في السجن تتغير نفسيته كثيرا خلالها ويضطرب سلوكه. أثرت هذه التغيرات على حبه الذاتي حتى تضيق منه حبيته ويضيع شخصيته المتحمسة أيضا. فبعد الخروج من السجن هو لا يبقى الشخص الذي كان قبل دخول السجن. يقول

<sup>418</sup> نفس المصدر، ص 212

<sup>419</sup> نفس المصدر، ص 202

على لسان البطل "ظلت شادية وفيه له في سنوات الاعتقال وصدت محاولات كثيرة للتقرب منها، بل قبلت كل الاضطهاد الذي أصابها في الصحيفة باعتبارها صديقة لأحد (أعداء الثورة) كما كان يقال أيامها ولكن فور خروج إبراهيم من المعتقل انقطعت العلاقة بينهما ..... تزوجت بعد ذلك بقليل من صراف الصحيفة الذي كنا نسميه (عم عبد اللطيف) بسبب الوقار المبالغ فيه وبطأ حركاته وإشاراته .... ثم أدهشتنا مرة أخرى حين طلبت نقلها من التحرير إلى الإدارة وعملت موظفة في قسم الحسابات. بعدها تلاشت شادية التي نعرفها، تهرلت لم تعد تهتم بمظهرها بالمرة .... هي نفسها تلك المحررة التي كانت تجلس على مكتبها هادئة معظم الوقت ولكنها تشتغل بالانفعال وهي تتحدث عن حركة للتحرير في إفريقيا أو عن تطور الهجرة إلى إسرائيل أو عن معجزة الاقتصاد في اليابان، بدا أنها نسيت هذه الأشياء تماما وظللت أتساءل إن كانت هزيمة في الحب يمكن أن تفعل ذلك بالانسان؟".<sup>420</sup> ولما يسأل البطل إبراهيم عن سبب الافتراق من شادية، يقول: "نعم كنت أحبها حقاً، ولم أحب في حياتي واحدة مثلها أحببتها، ولما طالت سنوات الاعتقال كتبت لها من السجن أنني أحررها من الارتباط بي، وإلي هنا فكم يكن هنا بأس، ولكنني كتبت لها أيضاً أنها إن أرادت انتظاري فهي حرة في أن تسلي نفسها بالخروج مع من تشاء من الرجال".<sup>421</sup>

"قلت مبهوتاً، لا يقول الرجل شيئاً مثل هذا لامرأة في بلدنا يا إبراهيم .... ولكن هذا ما هو حدث، لو سألتني الآن لماذا كتبت تلك العبارة المشئومة فأرد عليك بأنني لما أعرف هل كنت أريد بالفعل أن أحررها من الارتباط بشخص لا مستقبل له؟ ربما، وربما كان هناك سبب آخر، يتغير الانسان في السجن، العواطف المشبوبة في خارجه تنطفئ داخل أسواره، كانت رسائلها إلي على قصرها، ملتعبة بالشوق والحب، وكانت السطور التي

<sup>420</sup> نفس المصدر، ص 40-41

<sup>421</sup> نفس المصدر، ص 42

أكتبها إليها خابية كالرماد، فاترة كأداء واجب ثقيل، لا بد أنها فهمت بالتدرج أن حيي لها قد مات، كانت شجاعة وأصيلة حين ظلت متمسكة بي كل هذه السنين، ربما راودها الأمل أيضا أن الأمور ستتغير بعد الخروج من السجن، لكنها بعد الغفران وبعد الانتظار الطويل رأت شخصا آخر غير حبيبها القديم، رأت بالفعل كاتب تلك السطور الفاترة".<sup>422</sup>

"ماذا تسألني عن شادية وحدها؟ ما حدث معها نكرها مع غيرها، لم أنجح في الارتباط بأية امرأة، عرفت في حياتي بعضا من النساء وحين كنت أعرف فتاة متحررة ومنتقفة كنت أجد نفسي دون أن أدري أشعر بحنين للسذاجة والبراءة، وحين ألتقي بفتاة بسيطة ينتابني بعد فترة الضيق وعدم الاقتناع، أجد أحتاج أيضا إلى عقل أتجاوز معه وهكذا أظن أنني ضيعت عمري أبحث عن واحدة تجمع بين كل المتناقضات ولم تخلق بعد".<sup>423</sup>

وكذلك كانت بريجيت وألبرت لم يكن في وسعها أداء ثمن الحب العقلي، لما واجهتهما المتاعب في هذا السبيل انكسرا، وانسحبا من الحياة، حتى لم يكن يهم لهما من بعد ما يحدث مع الآخرين، كما تقول بريجيت، "ولكني قد فقدت طفلي، لم أفقد طفلي وحده ولكني فقدت ألبرت، لم أفقد ألبرت وحده ولكني فقدت نفسي".<sup>424</sup>... "كنت قد بدأت استرد نفسي، غلط، لم استرد نفسي أبدا، مع تلك الدماء التي خرجت من بين فخذي في ليلة السبت، تلك خرج شيء لم يعد أبدا، ظهرت بريجيت أخرى، لا أعرف بالضبط ما الذي ضاع، ربما كان أول ما لاحظته هو أن الشعر لم يعد يهزني".<sup>425</sup>

<sup>422</sup> نفس المصدر، ص 42-43

<sup>423</sup> نفس المصدر، ص 43

<sup>424</sup> نفس المصدر، ص 137

<sup>425</sup> نفس المصدر، ص 139

ولم يكن حال يوسف يختلف عنها إلا أنه لجأ إلى صيانة حياته بأي حيلة يمكن احتياله، والصورة التي تبرز من مواقف الحب في هذه الأحداث هي أن الحب العقلي ليس سهل المراس والمضاعف النفسية ربما تسبب الانحطاط من الدرجة العليا إلى المدارج الأدنى منها.

والحب المادي كما صوره الروائي في رواية "خالتي صفية والدير" كان قد وصل لدى صفية إلى درجة الحب العقلي، لم يكن حربي مصدر الحب الجسمي لديها فحسب بل كان لها هدف الحياة لعلها من صغر سنها في تلك البيئة المنعزلة لم يوجد مجال الحب العقلي فأخذ هذا الحب مكانه، ولما لم تفرز به دمرت حياتها وحياة حبيبها. لم يبق للحياة معنى بدون حب حربي، كانت تحب حربي من أعماق قلبها ولكن حربي أتى بخبطة لعمه الباشا ودهمتها هذه كمفجأة قاضية على حبتها، وكأن ذلك قضى على حياتها، لم يبق لديها للحياة معنى بعد أن ضاع منها حربي، فتلقى نفسها ونفس حربي في التهلكة حتى يموتان في مبكر عمرهما.

### الحب والجنسية في رواية "نقطة النور":

الدكتور عظيم كان رجلاً ناجحاً و زوجته امرأة ناضجة ميسورة مثلاً يمثل وأحب كل منهما الآخر هوىً بهواية. ولكن هذا الحب المادي لم يكن ليكتمل بدون المادة الجنسية والتي ينقصها الدكتور عظيم أبو لبني. لم تكن زوجته تطمئن لأدائه وكان هرعا يفرغ من المضاجعة قبل أن تنطفئ شهيتها الغريزية. هذا الضعف الكامن قضى على حبهما. لم يكن في حياتها معنى للحب العقلي حيث كانت تنتمي إلى أسرة أرستقراطية، ولم تكن تنتمي إلى أي أيديولوجية ثورية، وكل ما كان يعنى لها هو حب الحياة والجنس وحب الشهوات، ولم يكن لحياتها معنى لو ينقصها حتى هذا. وفي كل من هذا الأحداث لعل الروائي يحاول الإيحاء بأن الحب جذري لوجود الحياة من أي درجة كان. فضياعه ضياع الحياة وإن لم يجد الحب في جميع مدارجه يلزم أن يجد في إحدى مدارجه وإلا لينتحر الإنسان لوفشل في كل واحد من مدارجه.



## قضية الجنسية والزواج في الشيخوخة

أثار الروائي قضية الشيخوخة ومشاكلها وأتى بتصويرها تصويراً ملحوظاً في روايتين "الحب في المنفى" و "نقطة النور"، الشيخوخة نفسها مشكلة تزداد حدتها عندما يجد الإنسان نفسه وحيداً، والإنسان مفزوع بعزلته دائماً، وأقل ما يعوضه عنها وجود امرأة أو زوجة في الحياة.

في "الحب في المنفى" البطل بعيد عن أسرته وعن زوجته بعد الطلاق يقضى حياته في المنفى في كل معناه، نفى عن أسرته وعن عائلته، نفى عن وطنه وبيئته التي تربى فيها، فهو مقلوع مجتث ما له من قرار. تحمل بطريق ما عبأ النفي الوطني والبيئي ولكن لم يكن ليتحمل النفي الذاتي، فهو دائماً في البحث عن شيء يملأ هذا الفراغ. إن لم تكن له أسرة فعلى الأقل امرأة. يجد بريجيت بمفاجأة ويجبها لعلها تملأ من فراغه، تنفى عنه وحدته، ترجع إليه قراره، يقضى معه ليالي الحب الساخن وأيامه الحميمة، يحاول تعويض الفراغ العائلي والوطني، يحسبها أسرة ووطناً يخاف من ضياعها، يحرص على احتفاظها.

ولكن يحس بالذنب لسببين: الأول من أجل فارق العمر بينهما والثاني من أجل كونها علاقة لا يقبلها مجتمعه وخاصة أولاده لو علموا. أثار قضية فارق العمر في هذه الرواية ويرى أنه لا حرج في العلاقات مثله لو كان مدعوها بالحب، كل ما يهم هو وجود الحب الذي لازم للحياة. وفارق العمر لا أهمية له لولم ينقصه الحب والقوة الجنسية اللازمة للحب المادي أو الجسمي. يذكر البطل أن الحب بينهما كان حبا متصاعداً يشرب واحد من الآخر حتى الثمالة يحسب كأن شبابه قد عاد شديداً ليرتوي من الحب مدداً.

وفي رواية "نقطة النور" نجد أن الباشكاتب أصبح وحيداً بعد وفاة زوجته. لم يمض وقت طويل على موتها حتى يجد نفسه لا يسع الوحدة ولا يتحمل الفوران الجنسي. يبدأ يبحث عما يملأ الفراغ، فراغ ذاته وجنسيته، يحاول

كبح جنسيته من خلال صور إباحية التي وضعها مخفية في غرفته ولكن لا يقدر على ضبط نفسه، يجد أرملة الهانم نازلي والتي أيضا كانت تبحث عنم يملأ فراغ شيخوختها، يتفقان معا على الزواج سرا مع تشريط أنه لا تكون أي علاقة إرث بينهما، في هذه الحكاية آثار الروائي أولا سلبية المجتمع تجاه الزواج في الشيخوخة للرجل والمرأة على السواء حيث لا يرى المجتمع بالاستحسان إلى الزواج في السن المنكوس ويرى الروائي أن مسألة الإرث إحدى عراقلها في هذه العلاقة لأن الأولاد يستنكرون من يشاركهم في تقسيم الإرث ولعله يدعو المجتمع إلى أن يأخذ هذه المسئلة بتسامح واستحسان حيث أن الشيخ لا يجب أن تنطفئ غزيرته وطلبتة الجنسية مع تصاعد في العمر وكذلك لا يمكن أن يعوض الأولاد والأحفاد عن وحدته في الحياة، فلو تغير سلوك المجتمع في هذا الاتجاه فسوف يجد الشيخ أحسن الأوضاع لقضاء حياته.

وفي رواية "خالتي صفية والدير" يرى الروائي أن فشل الحياة بين صفية وزوجها كان من أجل فقدان الحب بينهما. كانت صفية تحب حربي ولكن لما لم تفز به فتفسد حياتها وتدمرها على نفسها تدميرا. فالزواج هناك أيضا كان مع فارق السن الكبير. كان البيك القنصل جاوز الستين من عمره وهي بالكاد في السادسة عشر من عمرها. لا نجد أي نبرة ناقدة أو مشوشة في تصوير هذا المظهر في الرواية. رؤية الروائي حيادي فيه بل يبدو أنه يرى إليه باستحسان لولا فقدان الحب في العلاقات مثلها. لا ينسب دمار الحياة ودمار حياة صفية إلى فارق العمر، بل يقدم تصويرا واضحا أن سبب تدمير حياة صفية كان ضياع حب حربي منها.

نرى النبرة تتوتر تجاه هذه الظاهرة في آخر رواياته "واحة الغروب". يهب عمدة الواحة مليكة للشيخ الفاني من الشرقيين كزوجة وهي بالكاد بلغت سن رشدها، وعلى الرغم من مخالفة شديدة من قبل مليكة. تصبح مليكة ضحية الصراعات بين الشرقيين والغربيين في واحة سيوة. كان زواجها من الشيخ الفاني نوعا من الصلح بين



الشرقيين والغربيين، واختار الشرقيون مليكة لهذا. ولو أن الغربيين خالفوا ذلك لرحلت منه نخوة الغربيين ثم تنشب الصراعات بين الشرقيين والغربيين.

تترمل مليكة فوراً بعد الزواج وبدون أن تزف من أن الشيخ الفاني كانت تنقصه الرجولة. ثم تصبح ضحية الخرافات الاعتقادية للمجتمع من شؤون الغولة. يحدث أن تخرج مليكة من بيتها في عدة الحداد. مليكة لم تكن تعتبر نفسها أرملة حيث أنها لم تزف، وتخرج من البيت. ينشر أناس الواحة شائعات عما نزلت من الكوارث من خروج الغولة. توجد مليكة مقتولة في غرفتها من بعد. يبدو أن الروائي لا يخالف الزواج في الشيخوخة، ولكنه يغضب على استخدام الزواج كوسيلة الصلح أو الصراع.

## الفصل الثاني: قضية التربية والبيئة للطفولة

أثار الروائي قضية الطفولة من نواحي التربية والبيئة الأسرية والخلفيات المتعلقة بها التي تجعل بصماتها غائرة في نفسية الطفل خلال حياتها والتي تلعب دورا كبيرا في توجيه سلوكه وتعيين مواقفه وبناء شخصيته في كل مدارج عمره. اهتم بها الروائي في روايات "نقطة النور" و "الحب في المنفى" و "قالت ضحى" ولا تخلو رواياته الأخرى من التصوير الضئيل عن مواقف الطفولة.

ويبدو أن الروائي يسلك سلوك الفلاسفة التجريبيين في طريق معالجته لهذه القضية من أن الإنسان يمكن أن يجد علم الأشياء من خلال الحواس في الأذهان وعن طريق الصور، اعتبارا أن الأشياء من حيث هي هي لا من حيث جزء للميتافيزيقية، لها وجود يمكن للحواس أن تنزع عنها شيعية، مستطردا منه إلى أن ذهن الإنسان يمثل لوحا صافيا خاليا عن أي كتابة أو رمز. الحواس تملأها من صور الأشياء. يرى الروائي أن تجارب الطفولة وما يمضى بها الطفل خلال سنواته الساذجية تؤثر أثرا عريقا في أذهانه وتركب صور وأشياء فيها من حيث لا يمكن محوه منها طوال الحياة وتعمل كبنية لسلوكه الذاتي والاجتماعي والسياسي. يأخذ بتوجه القارئ إلى حقيقة أن البيئة التي سترى الطفل فيها يلزم أن تكون بيئة صالحة لإعطاء تجارب إيجابية وصور ملائمة لسلوكيات إيجابية في الحياة القادمة. مثل الروائي تصاوير طفولية للبطل وزميله إبراهيم، ولبريجيت في رواية "الحب في المنفى" ولسليم ولبنى في رواية "نقطة النور" ولضحى، وسيد القناوي في رواية "قالت ضحى".

البطل في "الحب في المنفى" قضى طفولة شقية حيث أن أباه كان فراشا في المدرسة التي كان يدرس فيها، فلما تحرس وتيقظ في عمره الطفولي بدأ يحسب لتجاربه التي تمر منها من قبل أساتذته وزملاءه فيما يتعلق عن وضع أبيه الاجتماعي "كم كان فخورا يومها وقد ارتدى البذلة لأول مرة وأبوه يصحبه معه ليذهب إلى المدرسة البعيدة

في المدينة، يتذكر كيف كان في أيامه الأولى يفرح عندما يقول له أحد المدرسين أن يخرج من الفصل ويطلب من أيه أن يحضر بعض الطباشير أو حبرا للأقلام أو أن يحمل له إحدى الخرائط الكبيرة التي يضعونها على السبورة، بل وأفرح عندما يطلب مني أبي أن أساعده في نهاية الأسبوع بعد أن يخرج كل التلاميذ والمدرسين فيشمر جلابه ويربطه في وسطه ويرفع كميته حتى كتفيه بينما أحمل له جرادل الماء ونمر على الفصول كلها، وهو ينتقل من فصل إلى آخر يمسح الأرض بحرقته المبللة مقرصا في الأرض، ومتى بدأت أشعر بالعار؟ عندما كبرت قليلا؟ عندما شخط في وجهي أحد المدرسين وهو ينظر في ساعته قائلا: "لماذا لم يضرب أبوك المسطول الجرس يا ولد؟ أخرج صحيه!" عندما كان التلاميذ يعيرونني إن ما تشاجرنا في الفسحة؟ .... أيامها كنا نحن الفقراء حفنة صغيرة في المدرسة وسط أبناء ملاك الأرض وأبناء الموظفين في المدينة، يجدون في إهانتنا متعة وفخرا ويزيد العداة لو تفوقنا في الدراسة، نجح البعض في ستر فقرهم، أما أنا فكيف كنت أستطيع؟ .... وكيف كنت أملك أن أخفي درجاتي العالية في كل المواد؟ ولكن حتى بعد أن خرج أبي إلى المعاش وأنا مازلت في المدرسة الابتدائية ظل لقي متوارثا لدى أجيال المدرسين، عندما يأتي مدرس جديد ويبدأ كالعادة في قراءة أسماء التلاميذ ثم يسأل ذلك السؤال الذي لا مفر منه "ما هي مهنة الوالد؟" يتطوع أكثر من تلميذ في الفصل قبل أن أرد "كان فراش المدرسة" فيعرف المدرس وأعرف أنا أنه لن يجد سببا يمنعه من أن يسبني ومن أن ينزل بي كل العقاب الذي يخاف أن يصيب به أبناء الآخرين، كم مرة تشاجرت مع التلاميذ الذين أهانوني بسبب أبي؟ ..... كم مرة ضربتهم وضربوني وأسلت دماءهم وأسألوا دمي دون أن أجسر مرة واحدة أن أبوح لأبي بسبب جروحي؟ وكم بالغت في الفخر به بعد ذلك في الصحيفة وفي الاتحاد الاشتراكي وأمام منار أول ما تعارفنا! أحكي للجميع عن أبي فراش المدرسة الذي قتر على نفسه وادخر الملايم والقروش لكي يعلمني في الجامعة، ولكن هل شفت تلك الخطب الكبيرة الجروح الأولى؟ هل أزال المهانة؟ ربما .... عندما كان الرئيس واحدا منا، نحن أبناء الفقراء، وعندما انحاز إلينا،

عندما لم يكن الفقر عارا، ولكن ألم أشعر بالعار القديم نفسه عندما كان على أن أملاً "كشف الأسرة" وأن أذكر مهنة الأب والجد يوم فكر خالد بعد الثانوية العامة أن يدخل الكلية الحربية؟ ... فما الداعي إذن إلى التظاهر؟ ... ما الداعي إلى الكذب؟ انتهت جنة الفقراء، لم توجد يوماً جنة للفقراء، كانت تلك أيضاً كذبة يجب أن ننساها..... أتلذذ بإهانة نفسي حقاً يا إبراهيم! ولكن إبراهيم معه حق!.. كيف يمكن أن يأتي النوم وأنت تعذب نفسك بهذه الأفكار؟ لا لتذكر بدلاً من ذلك الأشياء الحسنة التي فعلتها.... لم لا تفكر مثلاً في أنك صممت على أن تعلن فقرك وعلى أن تقهر في داخلك إحساس المهانة بسبب هذا الفقر؟... لم تفعل مثل آخرين تعرفهم يقضون عمرهم في محاولة الهرب من أسرهم الفقيرة وفي إخفاء نشاطهم المتواضعة".<sup>426</sup> بما أن الفراش كان ينظر عليه بنظرة دنيئة وخسيسة والأساتذة والزملاء كانوا يستهزؤون بوضعه ويهجونه بأبيه، كل من هذه التجارب المرة والهزوات الدنيئة والهجمات المقفورة جرحت نفسيها بغوران لم يخرج من عقدتها خلال حياته. تلك الجرحة لم تشفيها الحقيقة أن الرئيس المصري يأتي من طبقة اجتماعية مثله وأنه على الرغم من كونه ابناً لفراش أصبح مثقفاً وصحفيًا، وأن بيئة العدالة الاجتماعية طلبت ومنحت المساواة والكرامة للطبقات العاملة في المجتمع، يقول البطل إن ذلك الطفل لا يزال يطارده حتى في شيخوخته كلما رجع إلى طفولته يرى ذلك الجرح الغائر لما يندمل، وطارده أيام نجاحه في الشباب - أيام حياته مع زوجته منار التي كانت تنتمي إلى أسرة من طبقة ميسورة، لم يدر متى خلقت تلك البيئة الطفولية وهذه البيئة للعدالة الاجتماعية إزدواجية في نفسيته وفي سلوكه في الحياة. كان يحاول مرة الافتخار بأبيه في هذه البيئة الجديدة ومرة يسجر قلبه بذلة لتذكاراته المرة في تلك البيئة النائية. كان يعتز بوضعه الثقافي الجديد إذاً يشب إلى عقله تذليل طفولته الشقية، لم يقدر أن ينسى ماضيه الدنيئة. لما أصبح ميسوراً في شبابه حاول أن يهرب من ذلك الطفل المطارد بجلب أسباب الحياة المترفة وبسلوك يشبه سلوك

<sup>426</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 81-82

الخواجة الذي يميزه من الطبقة العاملة- السلوك الذي يبغضه إذا حاسب له من وجهة حياته الطفولية، ويجاول يماثل نفسه به كي يهرب من ذلك الطفل. لم يكن في سعته أن يرى ذلك الوضع الطفولي مساويا للوضع الذي وصل إليه. لا يرى للمساواة معنى حقيقيا بل كآلة قوية اتخذ منها سبيلا للوصول إلى المكانة التي وصل إليها من استهزؤا به وهو طفل. وزوجته منار كانت تنفوس هذه الازدواجية المعقدة والتغير السلوكي في حياته ولم تكذ تتفق مع هذا السلوك الجديد لأنها كانت هي التي فضلت حياة مبتذلة على حياة ميسورة ترفة تولدت وتربت فيها. كانت بأعماق قلبها اتخذت من العدالة الاجتماعية والمساواة مسلكا لها في الحياة الواقعية ولم تكذ تتحمل هذه الخديعة بالمبادئ التي ضحت لها نفسها. تولد تعقيدات فكرية في عقلها والتي تجسمت في سلسلة جدال ونزاع أسرية كل يوم والتي انتهت في الطلاق.

من جهة أخرى، شخصية إبراهيم الطفولية تركبت من بيئة غير بيئة البطل، وأثرت على نفسه عكس ما أثرت على البطل. كان ينتمي إلى أسرة إقطاعية تملك إقطاعا ملحوظا يعمل فيه عمال فقراء يبخس أبوه في حقهم وينقص من حسابهم ولا يكيل لهم بالقسط. هذا شاهد إبراهيم في طفولته واستحقر الظلم والبخس الذي عمله أبوه. ولما عثر على الفلسفة الماركسية الاقتصادية ورأى فيها حقيقة التجربة التي شهدها، ركبت الفلسفة عقله واشرأبت في قلبه، فكان يرى في الإقطاعيين أمثالا للظلم والبخس الذي يلزم للمجتمع أن ينجو منه، لم يرض ما قام به الحكم الجديد في عهد الرئيس عبد الناصر من إجراءات تجاه تحقيق العدالة الاجتماعية بل كان يحلم بثورة العمال والطبقة البخسية ضد الإقطاعيين الظالمين حتى تتحقق العدالة الاجتماعية الحقيقية. ولم يكن لهذا الحلم أن يتحقق إلا أنه بقى طول حياته ماركسيا شيوعيا يفكر كيف يمكن تنظيم العمال في العالم وكيف يمكن التخلص من الإقطاع الذي لديه شعار للظلم والغصب. أخذ عليه لفكره اليساري ونفى عن وطنه. ولكن لم يرد ذلك عن فكرته وما زال يعمل للمظلومين خاصة المسلمين تحت الغضب الإسرائيلي خلال حياته في لبنان. يسترد

آخر أنفاسه كي يفعل شيئاً للطبقة المكبوتة. تلك التجربة الطفولية واكبته طول حياته، لم تفسح له مجالاً ليعتدل في نظرتة وينسحب من فكرة إقامة ثورة عالمية ضد الإقطاع. "عاد ينظر نحوي أخيراً ويكرر سؤاله بصوت خافت، لماذا؟ الآن أسأل نفسي: متى بدأت همومي، هل كانت أمي هي السبب؟..... لا لا اقصد أي أم! لا تحدثني من فضلك عن أوديب وعن فرويد ومن هذا الهراء. ما كان يشقيني هو الظلم لا العقد الوهمية، ما أشقاني مع أمي هو نفسه ما عذبني حين كنت أرى أبي ورجاله يسرقون الفلاحين في وزن القطن وفي عمليات الحساب الصغيرة، كنت في آخر أيام المدرسة الابتدائية أو أول أيام المدرسة الثانوية، من أيامها بدأت أقرأ وأفهم، وبدأت الأسئلة تدور في رأسي، تلك الأسئلة التي عذبتني بعد ذلك طول العمر".<sup>427</sup>

وفي رواية "نقطة النور"،<sup>428</sup> تناول الروائي قضية الطفولة من وجهة تربية تتعلق بنقائص سلبية تؤثر على بناء الشخصية المتطورة. سليم حفيد الباشكاتب، و لبنى ابنة الدكتور عظيم يمثلانها. ترى سليم من طفولته إلى رشده في بيئة معوقة محدودة. ترى على يد جده بعيداً عن شفقة أبوية من أبيه. كان أبوه قد منعه من اللعب مع ولدان الجيران حتى لا يصبغ بصبغتهم ما كان يعتبر أبوه أنه لا يلائم لمثل ابنه من طبقة مثله. لم يكن أبوه يقضي أوقاتاً مع أولاده. كان دائماً منكبا على نفسه صامتا في بلاهته حتى ماتت زوجته في بكيرة سنها لقلة المبالاة منه. لم يبق لسليم إلا عالم جده. لما بدأ الذهاب إلى المدرسة منعه أبوه من الاحتكاك بالطلبة الآخرين لأنه كان جميلاً كالبنات وكان يخاف عليه أن يصيبه سوء. ففضى سنوات مدرسته بدون أن يتخذ من زملائه خليلاً. ولم يزل يواجه صعوبات خلال حياته في اختيار الأصدقاء و الأخلاء. أصبح منطويا على نفسه ولكنه كان فطينا وذا مشاعر لطيفة تتأثر كثيراً من البيئة. ومن ثم كانت تطراً عليه كيفية الهلوسة، وهذا طبيعي في الأطفال الذين

<sup>427</sup> طاهر، بهاء، الحب في المنفى، ص 115

<sup>428</sup> طاهر، بهاء، نقطة النور

لا يجدون بيئة يمارسون فيها الفضول ويتعقلوا ويشعروا بوجود الأشياء في صورها المختلفة. ولما لا تواتيه البيئة الملائمة للاستطلاع من خلال الاحتكاك والتجربة تتراكم الأسئلة في عقله وتؤدي إلى المرض النفسي. كان سليم تطراً عليه كيفية نفسية ينهال بالسباب إذاً على أفراد أسرته على غير وعي. لما يفيق منه يجد في نفسه صعوبة على استرداد ما حدث معه. يبدو أن الروائي ينتقد على هذا السلوك من تربية الأطفال التي تكون الأسرة فيه أكثر احتفاظاً على طفله حتى لا تترك مجالاً للطفل أن يتفسح ويتفرج، إذاً يصبح مقلوعاً عن المجتمع حوله ولا يتعلم طرق المعاملة مع المجتمع وحتى لا يفهم ما معنى الحب والمجتمع والوطن. يتعامل كطفل بريء في سن رشيد والمرجو منه عرفاً أن يتعامل كفرد رشيد. نجد سليم أنه لا يدرك كيف يتفاعل في معاملات الحب ولا يدري ما يعني له الحب والجنس إلا أنه يحس بذلك كطفل فيشعر ولا يتعقل. كان جده علق آمالاً طائلة عليه ويرى أنه لم يهن من مسؤوليته في تربية ابن ابنه بعد أن أدرك أن أبا سليم لا يعتني لابنه بالاهتمام المعروف إلا أنه لا يجد في سليم ذلك الرجل الرشيد الذي تمناه.

على يد أخرى نجد لبنى قد تربت في أسرة مفروقة بالطلاق بين أبويها. كل واحد منهما منشغل في تحسس همومه وتنفيس كروبه غير مبال بوضع الابنة. تتربى لبنى في بيئة متوترة يتخاصم فيها أبويها وهي لا تدري السبب ولم تكن لتدري في ذلك السن من حياتها. بقي لها أمر الطلاق أحجية في الحياة. ولكن المساليب التي تعرضتها من أجل الطلاق الإثنان منها كانت جرحتهما غائرة. الأول، التربية بدون شفقة الأبوين حق الشفقة، والثاني الليالي الطفولية مضروبة الانعزال والتي كانت تقضيها في وحشة الوحدة.

فلما كبرت، كبرت معها عقدتا النفسية - عدم الثقة بأحد والتشكك في أي علاقة فردية أو اجتماعية. الثاني بحث المتبادل عن الوحدة التي كانت تمر بها في البيت الذي لم يكن لها صديق غير الكتب. كانت تبحث عن

الصدقة في زملائها في الجامعة ولكن لم تكن لتثق بهم وترى في سليم الوحيد في فطرته مثيلا لها وتنجذب إليه وتجده بريئا مثلها وتظن أنه يمكن الثقة به. لكن سليم لكونه بريئا وجاهلا عن تعقيدات العلاقات ومن أجل نفسيته الهلوسية يعامل معها بطريق تفسد العلاقات بينهما حتى تبتعد عنها لمدة طويلة إلى إسبانيا. وهنا نجد كيف تؤثر التعقيدات النفسية على العلاقات سلبيا.

شخصيتها المنعزلة بدون شخص تحاوره وتشاركه في أمور وتسرع إليه خواطرها وخوالجها، وخاصة بدون الأم التي كانت يمكن أن ترجع إليها في حل تعقيدات النفسية خلال تقدمها في العمر جعلتها لقية المخاطر في حياتها المبكرة. هي لا تدري كيف تدفع عن نفسها مدرستها الخاص الذي استغلها جنسيا في غرفتها، هي لم تدرك ما حدث معها. لو كانت لها أما تبطن إليها أسئلتها عن الأمور الجنسية لكانت تقدر على صيانة نفسها من هذا الدهاء. حينما تعبر عند أمها عن المقاهر التي مرت بها تجد أمها تتأسف كثيرا إلا بعد فوات الأوان. يمكن لأحد أن يتعقل أن العلاقات بين الزوجين لا يدور بين حقوق الزوج أو الزوجة بل هناك وجود ثالث- الوجود الذي يصبح طحينا في خضم المساواة والحقوق الفردية، فمن هو المسؤول عن دمار حياة نفس زكية؟ هناك دعوة التدبر والتعقل عن المناقشات حول الحقوق الفردية، فالأفراد الذين لهم سعة وقوة المخاصمة يمكن أن يصونوا أنفسهم، لكن ماذا عن هذا الفرد الضعيف والطفل البريء؟ الذي أصبح أكبر مظلوم لهذه المخاصمة. يلزم أن يكون هناك التصالح بين الحقوق الفردية والحقوق الجموعية.

في رواية 'الحب في المنفى' نجد في شخصية بريجيت مرة أخرى طفلة بريئة في بيئة معقدة وتسبب معها تعقيدات في الحياة وتنتهي في حياتها إلى حد لا ترى للحياة معنى فتحي ملفوظة مدحورة. بيدي أبوه انشغاله الكدود واهتمامه المستهلك عن حقوق المظلومين غافلا عن مسؤوليتها كزوج وأب تجاه زوجته وابنته بريجيت. تجد بريجيت



أمها منذ براءة عمرها دائمة العلة. يزور عمها مولر أمها لاستخبار علتها بذلك الدوام، يسألها كيف مرضها  
 آخذا بيديها بين أيديه ثم يتطرق إلى عنقها فصدرها فينغلقتان في غرفة لأمد قصير. تبدأ بريجيت تتعقل مدى  
 علاقتهما مع تقدمها في العمر، وتواجه عمها يوما منهالة عليه لكزا وصرخا. لا يزور عمها البيت بعدئذ إلا أن  
 خروج أمها خارج البيت تتكثر، وكانت بريجيت تنفرس كل ذلك. لا تجد بريجيت أسوة تقتدي بها في البيت  
 فتبحث عن قدوتها في الخارج. وتريد أن تكون غير أمها، تبحث عن رجل وثيق يثق بها وتثق به، وأن لا تعامل  
 كمعاملة أمها مع أبيها من الخيانة. تعلق بألبرت الأسود من غينيا. تجاهد بكل قوتها أن تكون أمينة له إلا أن  
 العنصرية تقضي على حبها قضاء ينكسران به داخلهما وينغلقتان على نفسيهما وتبعدهما الفجوة إلى مبادئ لا  
 يدر أحد عن الآخر شيئا. ثم تنزلق في حياتها الجنسية إلى أسوء مما كانت أمها عليه.

من هو المسؤول عن هذه البيئة الكدرية في بيتها يمكن أن يكون أمرا منازعا فيه، إلا أن البيئة القدرية خلقت في  
 نفس بريجيت تعقيدات نفسية وصراعات داخلية عن العلاقات في الأسرة وعن العلاقات الاجتماعية.

خارج البيت تجد بريجيت المجتمع حولها مفككة متبثرة منثورة كل شئ فيها على غير نظم صالح. كل واحد فيه  
 مستهلك في همومه أو متفرج على آلامه أو متفقد في طمأنينته، أو منحسر على المظالم حوله. ومن يحاول في  
 حلها وتحليلها فينتهي إلى أن يجد نفسه قد حلت، وعضدها قد ملت، وعزائمها قد فلت، وأهدافها قد ضلت،  
 فيخوي على نفسه. تجد بريجيت في هذه المعالم فردية مفروضة مقسورة لا خيار فيها للفرد، فتجد كل من يتعذب  
 يتعذب نفسه وحده. لا ترى أحدا ظالما أو مظلوما. تغفر لكل من ظنته مجرما أو مظلما صغيرا أو كبيرا، تنفسح  
 بصدرها لكل من يواتيها، فتغفر لعمها لما فعل هو معها أو مع أمها. تلقي نفسها بين أيدي الراوي في 'الحب  
 في المنفى' وكذلك تنحسر أمام إبراهيم صديق الراوي. لا ترى لشيء ما في الحياة معنى، صدرها لكل من أتاها

بقلب سليم أولئيم. هذه الفردية المتبصرة ركبت رأسها من أبكر عمرها، وجدت أباهما في فردية مقسورة وأمها في جنسية مقهورة ونفسها كطفلة مقلوعة ملفوظة لا تستقر قرارا. تصوير بريجيت على هذا الغرار نقد لاذع على المجتمع الأفصح في العالم وخاصة العالم الأوربي، وعلى ما هوى إليه المجتمع بدون إدراك المخاطر التي يمر بها أفراد المجتمع.

في نفس الرواية يأتي الروائي بذكر أولاده خصوصا ابنه. الراوي يفترق هو وزوجته فيروم إلى أوربا لكي ينسى ذكرى الألم الذي كان يمر به خلال أيام الطلاق وبعده. لكن ابنه خالد وابنته هنادي يقيان مع أمهما، تتربيان تحت شفقة الأم فحسب بدون الأب. في أواخر عمره، عندما يشب خالد يرى البطل في ابنه تغيرات كان على خيفة منها دائما. يرى أن خالد يتربى على المنهج المتطرف تجاه الدين. بدأ يحكم في الحلال والحرام حتى لا يترك لأخته هنادي أن تمارس فهمها للدين نفسها بل يفرض عليها ما يلبس وحيث تخرج وأنى تذهب ومع من تذهب. يترك المقابلة الشطرنجية لحرمتها. البطل كونه ليبرالي النزعة أقلقه الأمور بشدة إذ تطرقت الأمور إلى حد لا توجد فسحة الاختلاف فيه.

لا يقلق الراوي لتدينه بل لالتزامه الشديد بالمبادي والمعمولات الدينية في مبكر عمره ويرى فيه نفس التطرف الذي دمر حياته. يقلق أن خالد يرى أن رأيه هو حق وما دونه باطل. يقلق من أجل هذه الشدة وفي هذا السن المبكر. يتأسف كثيرا ويظن أنه لو كان تربى في رعاية أبيه هو نفسه لكان حاور معه وجعله يأخذ الأمور على أفسح المفاهيم ويقبل الاختلاف بأرحب الصدر ويعتدل في مبادئه ومعمولاته حتى تكون حياته مزيجا حسنا من الدين والدنيا، ولا يكون رفض الدنيا مطلقا كما هو أصبح الآن بدون رعاية أبيه. يحتسب الراوي أن غيبوبته من الأسرة أصبحت غياب الأمثلة الرجولية التي يقتدي به الابن من خلال الأب، حيث أن الأب يكون أول رجل

يرى الولد إلى الأشياء من منظوره، وعندما لا يجد هذه القدوة الأولية يبدأ يبحث عنه في غيره، فيجد ذلك في شخص آخر مثالي. ولعله يميل أكثر إلى أمثولة لا يمثل أباه. بعد الراوي من الأسرة سلب عنه هذه الأمثولية في ذهن الأولاد.

نرى أن الوالد يتأسف كثيرا في أواخر عمره على ما آلت إليه الأمور في بيته ويرى في بعده عنهم سببا أساسيا للتغيرات. لم يكن لديه خيار. حاول بكل قوة أن لا يفترق من زوجته. يغوص ويهوي في الحيرة والاضطراب في أواخر أيامه، وجد الحياة ولم يسع زمامها.

## الفصل الثالث: قضية الاقتصاد

لقد أثار الروائي القضايا المتعلقة بالاقتصاد في روايته 'قالت ضحى' و 'نقطة النور' من خلال تصوير الآثار المترامية للسياسات الاقتصادية على عدة الطبقات والإطار المتكون من التفاعل بينها.

في روايته 'قالت ضحى' يصور الروائي الأوضاع المتغيرة من أجل السياسة الاقتصادية التي حلت مع توجيه الاقتصاد إلى الاقتصاد الاشتراكي. وذلك بنبرة إما حيادية أو مبررة علاوة على تصوير النتائج السلبية التي تأتت من تغييرات في المشروعات السياسية. هذه الرواية تبدو ترسم للإطار الاجتماعي في عهد الرئيس جمال عبد الناصر. أما رواية 'نقطة النور' فتبدو ترسم للوضع الاقتصادي في عهد الرئيس أنور السادات. فإن سياسته الاقتصادية كانت قد أدت إلى صعوبات في حياة العامة وإلى الفساد المالي الشائعة بين الناس وبين الموظفين الحكوميين. وهذه الروائي تبلور موقفه الوطني المقدم في رفضه للكثير من سياسات السادات، لا سيما سياسة الانفتاح الاقتصادي التي قلبت المعايير المجتمعية، ومثلت إساءة كبيرة كان مقصودا منها العودة بالطبقة الوسطى إلى مصاف الرعاع والدهماء كما كانوا قبل يوليو 1952م<sup>429</sup>.

في رواية 'قالت ضحى' يصور الروائي الإطار الحشن الذي سوف يحل سوق السمسار بعد تأميم البورصات. شخصية سيد القناوي شخصية مركزية تصور الرواية من خلاله التغييرات. ومن خلال المقارنة بين خلفية حاتم وخلفية ضحى يصور التغييرات التي أثرت مختلفا على اختلاف الطبقات.

<sup>429</sup> قرني، محمود، بهاء طاهر مؤسس تيار الوعي في الرواية المصرية، الروائي المصري بهاء طاهر من الذين استمسكوا بدور الفن ووظيفته كأداة من أدوات تطوير الوعي المجتمعي، صحيفة "العرب" الصادرة من لندن، نُشر في 28/03/2015، العدد: 9870، ص(14)

سيد القناوي ينتمي إلى أسرة كانت تعمل كأجير في القرية. صفع الإقطاعي الذي كان أبوه عاملاً أجيراً له في وجه سيد القناوي وهو طفل صغير يمتطي الحمار. لم يكن حاتم ليتعقل أنه يلزم أن الأجير وأولاده ينزلوا من المركب على منظر الإقطاعي. الصفعة في وجهه كان عقاباً لسوء أدبه. يحس القناوي أبو سيد القناوي بالإهانة البالغة ويهجر القرية للمدينة من أنه لا يريد أن يتربى ولده في هذا الإطار المذل.

لما ينزل هو وأبوه المدينة لم تكن الأوضاع ليتيسر لهم. يشغل سيد في العمل منذ صغره ويعمل للسماسة يجري خلف عرباتهم. لا تزال المذلة تعقبه حتى هنا في المدينة، ولا يجد عيشة كريمة. بعد التأميم تتغير الأوضاع. ضاع من سيد القناوي عمله ولكن بوساطة البطل يجد وظيفة الساعي في النيابة. ثم يرتقي من خلال المشاركة في الانتخابات التي تعقد في النيابة لتمثيل العمال ويفوز فيه، ففتحسن وضعه. ثم إنه يسافر إلى اليمن كعسكري خلال الحرب الأهلية. هناك يضيع أحد قدميه. بعد الرجوع من هنا هو يتحمس ضد الفساد المالي الذي يتلوث فيه معظم الكبار في النيابة حتى تتحقق التهمة ضدهم.

ههنا شخصية سيد من الطبقة المتخلفة الذي تيسر له الأوضاع من أجل هذه السياسة الاقتصادية وسياسة الانتخابات التي أكدت تمثيل العمال. بهذا الطريق هو يرتقي من الوضع المهين إلى الوضع الكريم في حياته.

على يد أخرى هناك شخصية ضحى وزوجها الذي يأتي ذكره في الرواية من خلال حوار البطل وضحى. ضحى وزوجها ينتميان إلى أسرة إقطاعية كانت تمتلك الأراضي علاوة على كون زوجها ناشطاً سياسياً وملتحقاً بالوزارة. تتغير الأوضاع سريعاً بعد تقليص امتلاك الأراضي ونهائياً بعد أن يتم منع الساسة القدماء من المشاركة في الانتخابات.<sup>430</sup> تتدهور الأوضاع لزوجة ضحى فتغرق هي أيضاً في الدمار تلوا به. تقول ضحى "سأحكي لك

<sup>430</sup> نفس الرسالة، الباب الأول

عن أقرب إنسان أعرفه، عن زوجي. عندما تزوجنا كان يملك كل شيء، الشباب والثروة والمجد. كان عضوا بارزا في الحزب وفي الحكومة. مدير مكتب الوزير أو شيئا من هذا النوع. كانت كل خيوط الوزارة التي يعمل فيه بيده . وعندما جاءت الثورة أخذوا أرضه وأرضي لم يهتم بذلك. قال ما بقي يكفيننا. ولكنهم عندما أخرجوه من الوزارة بعدها إلى المعاش مع من أخرجوهم وقتها لم يصدق ما حدث . أظن أنه حتى الآن لا يصدق. من يومها بدأ يقامر. مازال حتى الآن يقامر. أظن أنه يريد كل مال الدنيا لكي يعوض ما خسره عندما طردوه من الوزارة ولكنه لا يريح أبدا.<sup>431</sup> تصبح العيشة لهما عيشة ضنكا وتدخل حياتهما في التوتر الذي لم يخرجنا منه أبدا. تجد ضحى وظيفة في قطاع الإعلام. ويبدو أنه تم توظيفها من خلال الوساطات المسنودة. تبدأ ضحى تملك نفسها بعد أن ساءت الأوضاع لزوجها. من البداية كان زوجها تعود على علاقات مع عديد من النساء. ولكن بعد أن أخذوا منه الأرض والوضع وأخرجوه من الوزارة بدأ يقامر. تتعدى آثارها في البيت والتي تسببت لتفكك الأسرة فككا. تتوتر العلاقات بين الزوجين وتجتثم بيعة خانقة في البيت. مهربا من ذلك الإطار المضني تغادر لروما مع البطل زميله في العمل. هناك تنغمس في الجنس مع البطل لفحا، وتتشقق من الغرام روحة، كي تعوض نفسها للحرمان السلمي وتمحق عن نفسها غشاوة التوتر. فكما أن زوجه يحاول تنفيس همه من خلال الانغماس في المقامرات، تحاول هي تنفيس نفسها من خلال المغامرات حتى تنحط بخلقها نكدا وتزداد بها سوءا. هذا الجانب من الخراب والدمار قد صور الروائي بحيث تتبين أن التغير في الوضع الاقتصادي والسياسي قد هوى بهما بعيدا إلى مقاعر السفلة والهلكة.

---

<sup>431</sup> طاهر، بهاء، قالت ضحى، ص 318

ولكن الروائي لا يبدو يصور هذه التغيرات بنبرة ناقدة. قد أجرى الكلام على لسان ضحى أنها مع الثورة وأن المشروع الاقتصادي الجديد خير في أصلاته. ولو أن بعض الناس تعرضوا لمسايبه إلا أنهم يدعمونه فكريا. بل أن الروائي صور ضحى وزوجها بنبرة ناكرة بما تحولوا إليه من الأعمال المستنكرة. نعم، إنه صور التغيير في المشروعات السياسية بنبرة حادة.

من خلال شخصية سميرة أخت البطل وأختها الكبير سعاد يأتي ذكر التغيرات أيضا. تلجأ إلى توظيف أنفسهما كي يتحملان عبأ التكاليف الاقتصادية حتى أن زوج سميرة يتورط في الفساد المالي في النيابة.

السياسة الاقتصادية الجديدة كانت أيضا تسببت للفساد الشائع في القطاعات الحكومية. يصور الروائي الفساد الشائع في النيابة حتى أن وكيل الوزارة في النيابة يتورط فيه. كما ذكرنا في الباب الأول أن الواقع يساند وقوع مثل هذه الأحداث وخاصة في الوزارات.

الروائي لا يبدو يرى إلى هذه الأحداث من الفساد المالي كعواقب تسببت من أجل السياسات والمشروعات الاقتصادية والسياسية بل يرى إليها كوهن وقصر من قبل الشعب تجاه التزامهم السياسي كما يقول على لسان سيد "الدولة تتظاهر بأنها تريد وهي لا تريد، والشعب يتظاهر بأنه يريد وهو لا يريد. فماذا يمكن أن يفعل عبد الناصر، وماذا يمكن أن أفعل أنا الصغير؟ أنا تعبت"<sup>432</sup>

ويرى أن الفساد والاستغلال يبقى دواما هنا في المجتمع وأنه يمكن أن تتغير الوجوه ولكن الفساد يدوم ثباتا كما يقول "ولكني اكتشف أن الظلم .. لا يبديد .. ما الحل. أن تحدث ثورة على الظلم. نعم تحدث تلك الثورة .. يغضب الناس فيقودهم ثوار يعدون الناس بالعدل وبالعصر الذهبي. ويبدأون كما قال سيد: يقطعون رأس الحية

<sup>432</sup> طاهر، بهاء، قالت ضحى، ص 408

.. ولكن سواء كان هذا الرأس اسمه لويس السادس عشر أو فاروق الأول أو نوري السعيد فإن جسم الحية، على عكس الشائع، لا يموت، يظل هناك، تحت الأرض، يتخفى يلد عشرين رأسا بدلا من الرأس الذي ضاع، ثم يطلع من جديد. واحد من هذه الرؤوس اسمه حماية الثورة من أعدائها. وسواء كان اسم هذا الرأس روبسير أو بيريا فهو لا يقضى، بالضبط، إلا على أصدقاء الثورة. ورأس آخر اسمه الاستقرار، وباسم الاستقرار يجب أن يعود كل شيء كما كان قبل الثورة ذاتها. تلد الحية رأسا جديدا. وسواء كان اسم هذا الرمز يزيد ابن معاوية أو نابليون بونابرت أو ستالين فهو يتوج الظلم من جديد باسم مصلحة الشعب. يصبح لذلك اسم جديد، الضرورة المرحلية .. الظلم المؤقت إلى حين تحقيق رسالة الثورة. وفي هذه الظروف يصبح لطالب العدل اسم جديد يصبح يساريا أو يمينا أو كافرا أو عدوا للشعب حسب الظروف.

ثم نظر إلي حاتم بعينين محتقتين وقال: كنت أظن أنه يكفى لإصلاح حال أسرتي أن ينصلح حال البلد فاكتشفت أنه لا بد أن ينصلح حال العالم، وأن ذلك مستحيل، قل لسيد القناوي أن يتعلم هذا الدرس المهم جدا. لا تموت الحية أبدا".<sup>433</sup>

هناك أيضا إشارة إلى الأحداث التهريبية في التجارة من أجل قلة البضائع في السوق كما كان التهريب في عمولة الدولار يتزايد . يبدو من المسار الروائي أن النشاطات مثلها كانت على تزايد في عهد الاقتصاد الاشتراكي أيضا كما أصبح الحال فيما بعد في عهد أنور السادات.

في رواية 'نقطة النور' أثار الروائي قضية الصعوبات الاقتصادية بنبرة ناقدة حادة موجهة إلى وضع الاقتصاد الرأسمالي من خلال سياسات الانفتاح. وقد فصلناه بالذكر في الباب الأول.

<sup>433</sup> قالت ضحى، ص: 408-409



القضية تتمحور حول البطل الباشكاتب الذي يتربص بنقطة النور التي سوف تبرز وتعود بها الأشياء إلى أصلحها. الروائي قد رسم الإطار الخانق مع غموض يمكن للقارئ أن يكشف عن خطوط التفاصيل الممتدة فيه حيث أن الانتظار يدوم من بداية الرواية إلى نهايتها ولا يكاد الانتظار ينتهي بتحقيق المرام. البطل يرجع إلى نفسه مرة وأخرى يتساءل ويبحث ألى سبب النور ومتى تنجلي له الحقائق ومتى سينحسر الظلام. عندما يزداد لديه الأمر تعقدا وتعجدا يجد نفسه في حضرة أبو خطوة الصوفي صاحب الكرامات والذي لا يجب إلا بكلام قضيب وعبرة مغموضة مع الإيجاء الدائم أنه كل ما يبذله هو من المحاولات لا بد له أن لا يمسه الإنهاك بل أن يثبت بمحاولاته بالدوام.

هناك سلسلتان من الظلمة والعقدة- الداخلي النفسي، والخارجي الاقتصادي. هما يتسايران معا في الرواية مع إيجاء مماثل يبدو يتحدان منتهى.

شخصية الباشكاتب تمثل الحقبة الأولى من الثورة المصرية التي حلت والآمال والمطامح علقه بها. ابنه شعبان يمثل الحقبة الراهنة التي تمر من الخلل الاقتصادي والبلادة والركود مع تصاعد الصعوبات المالية والفساد. الوضع المتطور من الاقتصاد مثله كمثل ابنه. كان علق آمالا طائلة وأجهد كل محاولاته أن يبلغ من الثقافة والتعقل رشدا إلا أنه يجد أن ابنه بليد بعقله كسول في محاولاته وخزول من المجتمع حوله. فيسنده يدا وعقلا فيهيئ له عملا في دكان جده كي يسع الحياة كريما. لا يجده ينجح حتى في هذا الشغل. لا يرى الباشكاتب من نور يأمل به ويتربص من حياة ابنه. من خلال السرد المسامر حاول الروائي تصوير إحباط الآمال واليؤوسية من الحقبة الحاضرة للباشكاتب الذي يجد نفسه يبحث عن شئي يعلق به آماله فيعلقها في المستقبل الذي يمثله حفيده سليم. يتربص به من نقطة النور الذي سيكشف لهم ويزيح الغم. وهناك أبو خطوة دائما يدل إلى أن نقطة النور سوف يأتي وأنه لا

بد للباشكاتب أن يصطبر رصدا لها. يجد الباشكاتب في حفيده كفاية من الفطنة والتعقل ويرى أنه هو نقطة النور التي وعد بها أبو خطوة أن به تضيئ السبل وتنور الأفق وتسنى له الأطر.

الباشكاتب ههنا رمز للمصريين الذين لا يزالون ينتظرون بمواعيد الثورة إيفاء وبأمالها تحققا وأنوارها طلوعا. هم لا يزالون يحدقون أماما متى أن الحرية تتحقق والكرامة ترتج والفقر يفتت والظلمة تتبدد. لا يسعون صدرا أن يقبلوا أن الثورة فشلت وأن الآمال حبطت و أنه كان هناك خطأ من الأصل من البداية أو في الفكرة نفسها.

كانت هناك ثورة فنزوة ثم نكسة فتلتها هبطة- هبوط الإيقان والوثاق. يبدو أن الروائي من خلاله يدعو إلى الحساسية الجديدة التي تدعو إلى ألا يتركوا من الثورة أملا ولا يهبطوا بها يأسا ولا يولون لها ظهرا، بل عليهم أن يصحوا من الإغماء نشطا ومن الهزيمة ثباتا ويأملون من المستقبل نورا وخيرا مثل الباشكاتب الذي لم ينهزم أمام الصعوبات ولم يهن من المجهودات ولم ينس من الآمال ولا يزال الباشكاتب يستيقن حتى في آخر أنفاسه في النور الذي سوف يبرز على الرغم من الزلزال الذي داهمهم. ينكر الباشكاتب بمغادرة الشرفة التي يسكن فيها مظهرا إيقانه فيما يعتقد من أن النور لازم أن ينبثق، ونهائيا يصور الروائي أن المنزل لا ينهدم على الرغم من أن الكساء الجديدة من الترميم الجديد خرت منها إلا أن البناء الأصيل لا يزال يستقيم بدون أذى. لعل الروائي يقوم بإجاء أنه لم يكن هناك خطأ في الأصل وأن الثورة أسسها قومية قوية وإن جعلتها الأوضاع الرديئة تبدو منهكا على وشك الانقراض. يصور الروائي خلال الرواية أنه على الرغم من أن المستقبل المأمول أصابته الفتور من أجل الأوضاع الراهنة إلا أنه سوف ينجلي ويأتي المستقبل البريق.

صور الروائي مشاهد بأسلوب ناقد وبنبرة مضطربة عن حصيلات سياسة الانفتاح. رمزيا توحى الرواية إلى أن سياسات سلبية في المجالات السياسية والاقتصادية هي التي حولت الأوضاع إلى الخراب والدمار في أعقاب الثورة،

والثورة بريئة منها. هذه السياسة الاقتصادية في عهد أنور السادات أفضت إلى الفساد في السوق إلى الخدعة والتهريب وتسلسل الفساد عميقا في المقاطع الحكومية. بعد مجيئه في الحكم قام أنور السادات بتوجيه الاقتصاد إلى الرأسمالية عن طريق مشروعات الانفتاح. هو أمل أن الاستثمارات الاقتصادية بما سوف تنحدر سيلا وزيدا يروي الاقتصاد الذي يزداد به ازدهارا كما يبدو من هذا القول على لسان شخصية فراج زوج فوزية حفيدة الباشكاتب "إن هذه الشركة جديدة ومستقبلها كبير، تكون الترقيات فيها أسرع من غيرها بل هناك احتمال عن سفري في بعثة إلى ألمانيا الشرقية، لأننا بعد أن انتصرنا في حرب أكتوبر بحمد الله ستلتفت الحكومة أكثر إلى الاقتصاد وستركز على الصناعة بالذات.<sup>434</sup>

ولكن الاقتصاد لم تزدهر ولم يأت ما كان يرجوه من الترقيات والسفر "لم تأت بعثة ألمانيا الشرقية وازدهار الصناعة بسرعة كما توقع فراج"<sup>435</sup>

والعيشة للعامة لم تكن إلا أن تزداد نكدا. تأتت تغييرات هائلة في السوق الذي ازدادت حمة بارتفاع الأسعار وتغير بها سلوك الناس فجعلوا يتقاهمون على كل ما توفرت لهم من حيلة إلى جلب الأموال والبضائع. فبرزت بين الناس خلق سيئة لم يكونوا يألفونها من قبل. حتى بدأت العلاقات تتغير وتصل إلى وشك الانفكاك بعد أن قامت على عزة الحب والوثاق. أيضا يزداد الفساد بين الأنايس وبين العمال الحكوميين وبدأت أحداث التهريب تعم في البضائع والدولارات، يقول على لسان جابر "يتغيرون بسرعة! الزبائن القدامى اختفوا، يأتيني الآن في المساء شباب وعواجيز لا يتحدثون إلا عن السفر إلى بيروت وتمير البضاعة من الجمرك وتغيير الدولارات. حتى

<sup>434</sup> طاهر، بهاء، نقطة النور، ص 33

<sup>435</sup> نفس المصدر، ص 35

زبائن زمان المحترمون مثل حضرتك بعضهم الآن يشتغلون تجارة شنطة. يسبسون شعورهم ويلبسون نظارات سوداء في عز الليل ولا أعرف لماذا! والكل الآن يشتري أرضا ويبنى بيوتا، متر الأرض الذي كان بسعر التراب في حوارى السيدة أصبح الآن يباع بالشيء الفلاني." <sup>436</sup> ... قل لي يا حضرة الباشكاتب بالأمس أخبرني أحد الزبائن أن الحكومة تسمح الآن بتغيير الدولارات في السوق السوداء، فهل هذا صحيح؟ الزبون يريد أن أعمل معه في تغيير الدولارات ويعطيني عمولة" <sup>437</sup>.

تمثل هذه العبارات إلى الوضع الاقتصادي وتفسر عن الاقتصاد الذي دخلت فيه الاستثمارات والأموال من الخارج ولكنها لم تتوجه إلى القطاعات الصناعية والانتاجية. فترت الصناعة وتقلت البضائع في السوق، فلجأ الناس إلى البضائع المهربة وازداد استهلاكها، وارتفعت الأسعار بسرعة غير مسبقة فسار الناس إلى حفظ أموالهم في ممتلكات مصنونة من تدهور الاقتصاد فاستثمروا في الأراضي ولجأوا إلى ادخار الدولار كبضاعة أضمن. بدأت أسعار الأراضي ترتفع صاروخيا، وأصبحت عمولة الدولة تتقلص قيمة إزاء الدولار ما أدى إلى ارتفاع أسعار البضائع العامة. كل هذا آل إلى الناس يجعل المعيشة أعلى من كلفتهم فازدادت الأمور خرابا في الخارج وفي البيت. "كل الناس يفكرون في طريقة تزيد من دخلهم أو في مشروع يجلب مالا.... ما هذا الغلاء يا حضرة الباشكاتب؟ كيف تكفي المرتبات الناس مع هذا الغلاء؟" <sup>438</sup> ثم يصور كيف أن ارتفاع الأسعار غيرت سلوك فراج زوج فوزية في البيت "كيف يمكن أن تحكي له التغيير السريع الذي أصاب زوجها خلال سنة واحدة؟ غاضت الابتسامة من وجهه وأصبح عصيبا يثور لأتفه شيء ويختلق شجارا في البيت. وحين تحاول تهدئته وتقول

<sup>436</sup> طاهر، بهاء، نقطة النور، ص 68

<sup>437</sup> نفس المصدر، ص 69

<sup>438</sup> نفس المصدر، ص 84

له إنها لا تقصر في واجبها... مع ذلك هي تعرف سبب ذلك كله، فراج لم يصبح سيئا لكنه يرهق نفسه أكثر من اللازم. كل الأشياء الذي توقعها لم تحدث: لا البعثة ولا المكافأة التشجيعية ولا الوقت الذي يسمح بالدراسة العليا التي حلم بها. والمرتب الذي كان يكفي تماما قبل سنتين أصبح الآن يتبخر قبل آخر الشهر بكثير، رغم كل ما تفعله لتجبير أمور المعيشة في البيت ورغم ما يعطيه لها جدها.<sup>439</sup>

يصور الروائي ولعله يعتقد أيضا أن التغيرات في النفسيات والسلوك فيما بين الناس قد سببها الوضع الاقتصادي الراهن الذي جعل من الناس بشرا قلقا مضطربا حتى ضل عنهم سلوك يليق وأخلاق سوي كما يظهر من هذه العبارة، "قرأ في حياته وسمع الكثير عن أسباب الجرائم والانحرافات، قرأ عن الفقر وتفكك الأسر والأمراض النفسية والجشع والميول الإجرامية الغريزية وكثير غير ذلك. ولكن أي شيء من هذه الدوافع للجريمة كلها يجعل رجلا مشهودا له بالطيبة في الحي الذي يسكنه يقتل جارا له لأن ابنه البالغ خمس سنين من العمر تشاجر مع ابن جاره الطفل؟ ولماذا يقدم صراف معروف بالأمانة لعشرات السنين على اختلاس خزينة الحكومة ليقضي أسبوعا في الاسكندرية يعرف أنه سيقضي بعده سنوات في السجن؟ ولماذا يقتل زوج زوجته التي عاش معها سنوات طويلة لأن طعام العشاء لم تعجبه... كلها جرائم ليس لأصحابها تاريخ سابق في الإجرام."<sup>440</sup>

أشار الروائي أيضا إلى تفكك المجتمع المصري والتغيرات السلبية التي حلت به قائلا "تغضبهم التغيرات العجيبة التي تحدث في البلد: تجار التهريب وتجار العملة والغلاء البشع وبداءة الأغنياء الجدد وفقدان الكرامة وغياب فكرة الوطن ونسيان تضحيات الحرب القريبة وظهور نساء في السياسة يستعرضن جماهمن وأزياءهن على شاشات

<sup>439</sup> نفس المصدر، ص 129

<sup>440</sup> طاهر، بهاء، نقطة النور، ص 88

التلفزيون ويتاجرن بظهورهن مع مشوهي الحرب على مقاعدهم المتحركة. وذلك في الوقت الذي ظهر في الجامعة عشرات من الطلبة بجلايب بيضاء ولحي يمزقون مجلات الحائط التي تكتب هذا الكلام ويضربون زملاءهم.<sup>441</sup>

كما أن الشعب المصري كانت تعاني من التغييرات في البلد والمجتمع حوله لم تكن أسرة الباشكاتب على صيانة منها. تسللت الأوضاع حتى إلى بيته. على الرغم من أن الباشكاتب كان موظفا حكوميا لم تلوث يده في الرشوة والفساد المالي. كان مرتبه يكفيه وبقي لديه مبلغا مدخرا. لم تكن مكاسب ابنه شعبان الآن تكفي الأسرة التي لم تزد على أربعة نسيمات على إضافة ما ينفقه الباشكاتب من مدخراته للأسرة. بدأ وضع فراج الاقتصادي يتقهقر يوما بعد يوم ولم يكن مرتبه الآن يكفي حتى لنصف الشهر بعد أن كان يكفيه لكامل الشهر. نهايا يلجأ شعبان ابن الباشكاتب إلى إيجار زاوية من مكانه لبائع السجائر المهربة عل ذلك يزيد من الدخل للأسرة وتيسر لهم النفقة. مع المسار الروائي نجد أن سليم حفيد الباشكاتب ترغمه الأوضاع إلى أن يعمل ويكسب ويترك رحلته التعليمية على الثانوية فحسب على الرغم من أنه كان جهودا وطينا وكان أمكن أن يرتقي في الحياة "اعتقد شعبان أن المبلغ الكبير الذي حصل عليه مقابل تأجير الزاوية لبائع السجائر سيكفي إلى جانب القليل الذي يدره من محل القماش ليعيشوا حياة معقولة، وتفاءل كثيرا واعتقد بإمكان عودته أيام الرخاء القديم، غير أنه اكتشف بعد قليل أن الغلاء يسبق أي مبلغ يمكن تديره وبعد أن ضاعت مدخرات الباشكاتب أصبح دخله يكفي بالكاد لعلاجه. نشأت مشكلة حقيقية في تغطية مصاريف البيت، وهكذا فقد اضطر أن يجدوا وظيفة لسالم في مطعم أمريكي."<sup>442</sup>

<sup>441</sup> نفس المصدر، ص 115

<sup>442</sup> طاهر، بهاء، نقطة النور، ص 228-229

سليم يخضم من مرتبه ويعطيه لأخته التي خربت علاقتها مع زوجها من قلة المال وتساعد الخلافات في البيت باهتمامها أن فوزية لا تعمل وأنه لو كانت تعمل لذهبت عنهم العسرة. ردا على ذلك يعد سليم بأن يعطي نصف مرتبه لأخته حتى لا يختلق لها فراج مشاكل من هذه الناحية. "قال سالم بهدوء... بما أن فوزية لا تشغل فينبغي أن يكون لها دخل كل شهر. أنا سأعطيها نصف مرتبي"<sup>443</sup> فقد كان مفهوما أن مرتبه لا يعد يكفي مصاريف البيت حتى منتصف الشهر وأن الديون التي تراكمت عليه كان سببا مستمرا في اتهامه لزوجته بالإسراف وعدم التدبير. كانت في كل مرة تحسبها له بالورقة والقلم وهي تبكي ولم يقتنع"<sup>444</sup> "يقول فراج إنه ظلم فوزية بالفعل عندما اتهمها بالتبذير وإن مرتبه لا يكفي بالفعل ليغطي مصارف الشهر."<sup>445</sup>

يشير أيضا إلى الفساد الذي عم فيما بين الموظفين الحكوميين "وأحيانا يشكو فراج من ظروف العمل، يقول إن كل الشغل فوق رأسه ولكن لا أحد يقدر، وإن من يحصلون على المكافآت والعلاوات هم محاسب رئيس مجلس الإدارة الذين يعطلون الانتاج لأنهم لا يفعلون شيئا للشركة ويقومون بأعمال خارجها.... شرح له أن الدنيا تغيرت وأن هؤلاء الموظفين يدبرون أمورهم، يدفعون المعلوم ويقدمون الهدايا للرؤوساء ليسمحوا لهم بالتفرغ لأعمالهم الخارجية ولإرسالهم أيضا في إعارات للبلاد العربية"<sup>446</sup>....رأت لبني في زوج عمتهما الدبلوماسي تجار الانفتاح الذين كانت تسمع عنهم. اعتاد أن يدعوهم للعشاء وبعد أن يأكلوا ويشربوا عدة كؤوس من الويسكي يفلت عيارهم وتنطلق ألسنتهم. يتبادلون الخبرات عن كيفية تهريب الشحنات من الجمرك وعن أماكن شراء

---

<sup>443</sup> نفس المصدر، ص 240

<sup>444</sup> نفس المصدر، ص 228

<sup>445</sup> نفس المصدر، ص 240

<sup>446</sup> نفس المصدر، ص 238

البضائع 'المضروبة' من إيطاليا وتميرها على أنها بضائع صالحة وعن أضمن الطريق لتهديب العملات ومن الذي يجب أن يدفعوا له في البلاد... كانوا يتباهون أيهم أشطر من غيره ويتكلمون بصراحة تدهشها... ولكن ما أدهشها أكثر أن زوج عمتهما الدبلوماسي المثقف يصبر على سماع أحاديث هؤلاء اللصوص الذين كانوا بلا استثناء حفنة من الجهلة... لم يمض وقت طويل حتى اكتشفت أنه شريك يتبادل المصالح معهم." 447



### الحوار مع النظريات الاقتصادية: الرأسمالية، الاشتراكية، الماركسية.

في العبارات المذكورة من قبل رأينا ما فيه من الحوارات والنقد السياسي لسياسة الانفتاح أو الاقتصاد الرأسمالي. علاوة على تصوير هذا النوع من الاقتصاد نجده يأتي بذكرى الاقتصادات الأخرى.

الدكتورة صفاء تنتمي إلى أسرة أرستقراطية ولا تزال هي تعتقد في الاقتصاد الرأسمالي. زوجها الدكتور شعبان أيضا تحول إلى الأرستقراطية. يريان إلى جمال عبد الناصر رؤية النكران والكراهة "أحبت لبنى زملاؤها الغاضبين الذين يحنون إلى أيام لم يكن فيها شيء من ذلك (الفساد والغلاء) وحنون إلى الزعيم الذي أحبت صورته وصوته وهي طفلة، وكانت تغضب عندما تسمع أباه وأمه يسبانه كلما أطلت صورته وصوته من شاشة التلفزيون. وجدت نفسها بين هؤلاء الطلبة الممتلئين بالحماس... شاركت في اجتماعاتهم وفي كتابة المقالات لمجلات الحائط. عندما عرف أبوها ذات مرة انها تكتب مقالا عن الرجل الذي يكرهه من كل قلبه غضب بشدة واتهمها بالسذاجة وبأنها لاتفهم شيئا عن 'الطاغية' الذي ضيع البلاد."<sup>448</sup>

كان الدكتور شعبان يوما ما في شبابه متحمسا للشيوعية وكان يظن أن بها يمكن حل المشاكل الإنسانية من الفقر واللامساواة، لكن آراءه بدأت تتغير فيما بعد أن تحسنت أوضاعه من كونه طبيبا ناجحا، يقول شعبان "فليعترف أنه كان ساذجا مثلها في شبابه. ولكن عقله عاد إليه منذ زمن طويل. أصحابه وزملاؤه الذين يعيشون بالمبادئ لا يعرفون غير السجن والفقر، يخرجون من السجن ليدخلوها مرة من جديد. أما الفقر الوطني العام الذي كانوا يلحون بتغييره فمازال كما هو وسيظل كما هو. هكذا كانت الدنيا وهكذا سوف تبقى. لم يفهم

هذا جيدا في شبابه. كان يصدق خرافة المساواة بين الناس. ولكنه فكر كثيرا وهو في السجن واكتشف الحقيقة، الناس يتفاوتون في الذكاء ومن الطبيعي أن تتفاوت قدرتهم فيما يحصلون عليه من الدنيا. بعد ذلك عندما سافر للخارج، أدرك في رحلاته أن الفقر موجود في كل مكان، في البلاد التي ترفع الشعارات والبلاد التي تعيش بلا شعارات، الفقر هنا وهناك على السواء، والفرق في الدرجة لا أكثر. ومع ذلك فقد استمر هو بنفسه يكرر الشعارات القديمة لفترة حتى بعد أن ترك التنظيم. كانت صفاء هانم الأرسطراطية تستفزه بأفكارها المتخلفة، لكنه كف عن ذلك مع الوقت أيضا.... لن ينفع فقراء العالم أن يضاف إليهم فقير آخر، ولكن الأنسة لبنى وأصحابها يريدون أن يستمر الفقر للجميع."449

نجد الدكتور شعبان يتخلى عن موقفه القديم من أن الماركسية إن تأت فسوف تقضي على الفقر، يقول "رأى عبر الواجهة الزجاجية المستقبلين يتكدسون في صالة الانتظار معظمهم يلبسون الجلابيب وينتظرون أقاربهم العائدين من الخليج. يا عمال العالم اتحدوا! أهلا وسهلا! ترى كيف يتحد عمال الخليج مع إخوانهم من الفلاحين والصعايدة؟ بالصرم القديمة! رأهم هنا في إحدى المطارات يقرفصون على الأرض في صفوف وأمامهم شرطي يمسك عصا ليمنع أي واحد من النهوض أو الحركة... لم يأت الأخ ماركس إلى هنا ليرى ويتعلم! كان سيقول شيئا مختلفا بالتأكيد؟ مثلا يا عمال العالم انتحروا! هذا هو الحل الناجح بالفعل، الطريقة الوحيدة للقضاء على الفقر هي القضاء على الفقراء، لا مشكلة... بالطبع الزملاء الذين يدخلون السجن ويخرجون منه كالمكوك

يعتبروني خائنا لوسمعو هذا الكلام. هم يعتبروني خائنا دون أن يسمعو! ليكن: أترك لهم بكل ارتياح السجن والفقر وتغيير التاريخ بدوي. "450

ثم يصور على لسان لبني كيف أن أفكار الدكتور تغيرت، ولم يكن لديه معني لهذه الغوايات الفكرية على الرغم من أنه يوما ما كان يتعلق بالطبقة البروليتارية ولكن بعد أن أصبح ميسور الحال زلت عنه كل مبادئه "لم تعد لدينا في البيت إمبرالية ولا بروليتارية! بيتنا الآن مليء بلوحات غالية وتحف غالية يشتريها بابا لأنها غالية؟"451

نجد ذكر الرأسمالية خلال النزاعات داخل البيت بين شعبان وزوجته الأرستقراطية عن الإمبرالية والبروليتارية. ولو أنها كانت تبغي منها وسيلة إلى أن تقول أن يتعد عنها حيث أن ليس له كفاءة جنسية تشبع بها. ولكن النزاعات مثل هذه ترسم لنا الصور عن تعدد الأفكار على عدة الطبقات. فالأرستقراطي يخالف البروليتارية، والذي ينتمي إلى البروليتارية يحاول هدم الإمبرالية المؤسسة على الرأسمالية.

في هذه الرواية التصوير يختلف قليلا عما نجده في رواية 'قالت ضحى'. فإن ضحى فيها على الرغم من انتماءها إلى الطبقة الأرستقراطية تدافع عن الثورة والمشروعات الاقتصادية التي تلتها. نجد الروائي في 'قالت ضحى' رجائيا ينظر أماما إلى المستقبل من وجهة إيجابية. لكن في هذه الرواية يبدو أن رأيه تغير، ولو أن الباشكاتب في رواية 'نقطة النور' لم يهبط هبوطا كاملا في القنوطية ولا يزال ينتظر النور الذي سوف يبرز.

450 نفس المصدر، ص 244

451 نفس المصدر، ص 108

## الفصل الرابع: قضية التسامح الديني

أثار الروائي قضية التسامح الديني بين المسلمين والمسيحيين في خلفية تصاعد الاشتباكات الطائفية في مصر منذ مجيء السادات فصاعدا. تبني السادات سياسة تشجيع الإسلاموية السياسية وخاصة حركة الإخوان المسلمين حتى يقدر على تهميش اليساريين، علاوة على نوع جديد من الإسلام ما حمله المصريون وخاصة الصعايدة حينما رجعوا من السعودية العربية التي سافروا إليها خلال الاقتصاد البترولي الذي استهلكت عددا كبيرا من العمال من الدول المجاورة في السبعينات من القرن الماضي، حسب تعبير جورجيت كاليني الذي عينه حسني مبارك مرتين في اللجنة العامة، هو يعتقد أيضا أن المشاكل الطائفية لم تبرز إلا قبل ثلاثين عاما من قبل (مشيرا إلى السبعينات).<sup>452</sup>

المجاورة المسلمة في الأسكندرية التي شاهدت الهجمات على الكنائس قد أصبحت - منذ وقت طويل - مركز الإسلام الذي تبناه السعودية.<sup>453</sup> يعتبر الروائي أن مصر تفتخر بتاريخ مصر عريق في الماضي ما عاش فيه أصحاب الديانات المختلفة حدوا بحذو في إطار الأمن والمواخاة. اتخذ الروائي ما كان أقوى في يده من سلاح القصة ليذكر المصريين ما نسوه من تأريخهم المليء بالمجد. صور الروائي هذه القضية في روايته 'خالتي صفية والدير' التي تم طبعها سنة 1991م ثم ترجمت إلى عديد من اللغات العالمية وحتى أن المسلسلات التلفزيونية خرجت من نفس الاسم مع القصة المأخوذة من هذه الرواية.

<sup>452</sup>Bradley, John R, Inside Egypt- The Land of Pharaohs on the Brink of a Revolution, p 95, Palgrave Macmillan, New York, 2008

<sup>453</sup> Ibid, p 96

تصور الرواية أن الدير كان أصبح من أهم الأجزاء في المجتمع المصري القروي وكان المسلمون والمسيحيون يشاركون سواء في جميع الأفراح والأعياد و يتعابشون فيما بينهم هما ومآتما ويتعاونون فيما بينهم سراء وضراء.<sup>454</sup>

يقول البطل "كنا باعتبارنا أقرب البيوت إلى الدير جيرانا بمعنى ما. كانوا يهدوننا في المواسم بلحا مسكرا صغير النوى لا تطرحه في بلدنا سوى النخلات الموجودة في مزرعة الدير. واعتاد أبي في طفولتي منذ أكثر من ثلاثين سنة أن يصحبني معه في إحدى السعف وعيد 7 يناير لكي نعيد على الرهبان. وفي عيدنا الصغير كانت أمي تكلفني بأن أحمل من جملة العلب التي تعبئها بالكعك 'علبة الدير'.<sup>455</sup>

وليس فقط أن المسيحيين والمسلمين كانوا يتبادلون الهدايا والأعياد بل كان الاحتكاك بينهم شاملا وعاما حتى أن أهل الدير كانوا يتلاقون مع أهل القرية وأهل القرية يذهبون إلى الدير. يقول البطل "وعندما أصل إلى بوابة الدير كان يفتح لي المقدس بشاي البوابة... وهو يحيني متهللا: ((أهلا بالتلميذ النجيب، أهلا بابن الحاج الطيب.. أهلا بجيران الخير)). ولم تكن حفاوته بالحمار تقل عن ترحيبه بي إن لم ترد. "<sup>456</sup>.... "كان المقدس بشاي أشهر الدير في القرية... يعرف الجميع ويعرفه الجميع... كان هو الذي يذهب إلى الأقصر مرة كل أسبوع... وكثيرا ما كان يستوقفه في الطريق فلاحون وسط الحقول يستشيرونه في زراعاتهم أو يتوقف هو من تلقاء نفسه ليقول رأيته ونصائحته. "<sup>457</sup>

<sup>454</sup> نصر، محمد، بهاء طاهر في حوار له "البوابة": مصر غير مؤهلة لتطبيق الديمقراطية، البوابة نيوز، البوابة نيوز - المركز العربي للدراسات السياسية، 57ش.مصدق، الدقي، الجيزة، الجيزة، مصر 12626 ، 27من شهر سبتمبر 2015 ، <http://www.albawabhnews.com/1519024>

<sup>455</sup> طاهر، بهاء، خالتي صافية والدير، ص 37

<sup>456</sup> طاهر، بهاء، خالتي صافية والدير، ص 38

<sup>457</sup> طاهر، بهاء، خالتي صافية والدير، ص 39-40

ثم يقول البطل أن أحسن الوقت له كان يوم العيد "فكان مسموحا لي بكل شيء... كان مسموحا أن أتجول على حريتي في الدير الذي يشبه قرينتنا إلى حدما بطرقاته المتعرجة وبيوته أو قلاياته المبنية... وكان مسموحا لي أن أذهب مع المقدس بشاي إلى مزرعة الدير التي تمتد من القلايات وحتى الجبل... كنت أستمتع بأدوار الشاي الثقيل التي يقدمها لي كوبا وراء الآخر وهو يحكي حكاياته التي لا تنتهي عن الأشياء التي رآها في البلد منذ جاء إلى الدير شابا صغيرا قبل أربعين عاما." 458

كان الناس جميعا في القرية وحتى المطايرد يعتبرون للدير أمنا ويحفلون به احتراما. ولا أحد كان يتعرض للدير في أي حالة. نرى الروائي يصور هذه العادة من خلال شخصية حربي. كان حربي قد قتل البيك القنصل زوجة صافية دفاعا عن نفسه لما تعرض منه التعذيب المهلك. كان أتهم أن حربي يريد قتل حسان بن صافية. ركب الاتهام رأس القنصل. كاد رجال البيك يقضون عليه لولا أنه نهائيا أخرج نفسه من قبضة رجالهم. ثم في فوران الغضب أطلق رصاصات في جسد البيك حتى لقي حتفه. بعد ذلك تمت عليه المحاكمة في جناية القتل و حكم عليه "بالسجن لخمسة عشر عاما مع الشغل، وفي القاهر أقنع المحامي المحكمة أنه كان يدافع عن حياته وقدم شهادات أطباء كبار من الجامعة تثبت أن ما حدث عند النخلة كان يمكن أن يقضي عليه... لما أعيدت المحاكمة خفض الحكم إلى عشر سنوات مع الشغل." 459

لم يكن ليكفي ذلك، فإن صافية أعلنت أنه لا يريد قلبها إلا بالتأثر قتلا بقتل "قل للجميع لا مأتّم ولا عزاء... المأتّم سيكون في السراي عندما يثار حسان لأبيه.

---

458 نفس المصدر، ص 42

459 نفس المصدر، ص 74

لهذا السلوك من قبل صفية كانت لها خلفية. كانت صفية تحت رعاية أبي البطل وقد فقدت أبويها في صغرها فأخذتها عمته أم البطل في رعايتها. كان الأهل يعتبرونها كواحد من بناته. كانت صفية فائقة الجمال وكبرت وهي تحب حربي الشاب الجميل له صوت جميل يسخر بغناؤه أهل القرية. كانت تحبه من أعماق قلبها. كانت تأمل أن حربي سوف يقدم خطبة للزواج منها. لكنها فوجئت لما جاء حربي بخطبة البيك القنصل لصفية. كان البيك قد جاوز الستين وهي بالكاد في ستة عشر من عمرها. يومها "تضرج وجهها لما حمل أبي إليها الخبر وسألته بصوت خافت (حربي قال ذلك) فرد أبي مستسلما وهو يزفر نعم يا بنتي حربي قال ذلك) تقول أختي إن صفية رفعت بعد ذلك رأسها وكانت عينها نصف وجهها وكان فيها البريق الغريب وقالت بحدوء أنا موافقة."<sup>460</sup>

حبها له بعد الزواج تبدل في نيران الكره والنقمة منه. اختلقت حكاية مؤامرة قتل حسان ووجهتها إلى حربي ثم حدث ما حدث. إلا أنه يتم سراح حربي من السجن قبل الموعد من أجل تدهور صحته. لم تكن النقمة من صفية نقصت ولا قسماتها للثأر تقللت بل ازدادت إشعالا لما سمعت عن سراحه وبدأت تدير الحيل لقتله.

في هذه الأوضاع اعتبر أبو البطل أنه لا يوجد أي مكان أكثر أمنا من الدير. فإن الدير لا يتعرض أحد إكراما له. ينقل حربي من السجن إلى الدير. والدير يقبله برحابة الصدر "سنقابل حربي في القطار الذي سيأتي من مصر وسنوصله إلى الدير. كلمت الراهب جرجس ليستأذن رئيس الدير فوافق على أن يبقى هناك. يمكن أن يعيش في مزرعه من الدير. لن تستطيع صفية أن تمسه ولن يستطيع أحد أن يمد عليه يده."<sup>461</sup> ولما وصل حربي

<sup>460</sup> طاهر، بهاء، خالتي صفية والدير، ص 60

<sup>461</sup> نفس المصدر، ص 93

إلى الدير "جاء المقدس بشاي بالفعل، فتح الباب وأدخل أبي وحري وهو يقول في لهجة: مرحبا بالحاج والحاج... كنا نعرف..... أننا قد نجحنا وأنقذنا حربي."<sup>462</sup>

ولما حاولت صفيية في مجنتها قتل حربي "سمعنا أنها أصدرت لهما أمرا بأن يذهبا إلى حربي في الدير وأن يقتلاه- قال الرجلان: يا ست صفيية، إن خرج حربي من الدير فقتلناه ولكننا لا نستطيع أن نقتله في الدير- حتى المجرمون والمطاريد لا يفعلون ذلك"<sup>463</sup> ثم يصور الروائي أنه لم يكن أي نوع من التفريق في المأكل والمشرب في الدير "كانا يفرشان للأكل هو والمقدس بشاي تحت النخلات فيما بين خصيها ويزوقان لقيمات يغمسانها بأي شئ ثم يستغرقان في الحديث"<sup>464</sup>

عندما وصل فارس- صاحب لحربي وصديقه في السجن- واحد من المطاريد مع جماعته إلى الدير ليلتقي منه قام المقدس بشاي في وجوههم بكل صرامة ظنا أنهم أتوا لقتل حربي "يقول المقدس بشاي إنه في تلك اللحظة طرأ على ذهنه عصر الشهداء فجاءته الشجاعة وقال ((لا نسلمه، لا نسلم ضيفنا))."<sup>465</sup>

كان المطاريد يأتون حيناً وآخر للقاء حربي ولا يكونوا يدخلون الدير بل كان حربي يخرج إليهم وراء أسوار الدير "وهكذا اعتاد المطاريد أن يأتوا إلى قريتنا دون موعد. أحيانا مرة كل شهر وأحيانا في كل أسبوع مرة."<sup>466</sup>

<sup>462</sup> نفس المصدر، ص 95

<sup>463</sup> نفس المصدر، ص 98

<sup>464</sup> نفس المصدر، ص 99

<sup>465</sup> طاهر، بهاء، خالتي صفيية والدير، ص 101

<sup>466</sup> نفس المصدر، ص 105



ثم يذكر أن التسامح والمؤاخاة لم تكن تعم فقط بين الأناس المسلمين في القرية بل بين المطاريد أيضا ولم يكن هناك فرق بين مسيحي ومسلم "وكان هناك بعض المسيحيين من بين رجال فارس فكان هؤلاء يدسون نقودهم في يد المقدس بشاي ويطلبون منه أن يضعها في صندوق الدير وأن يوقد لهم شموعا في كنيسة" <sup>467</sup> ولم يكن الأمر يستوقف على هذا، بل إن معاملة الدير مع المطاريد لم يكن أقل إكراما واحتفافا، "وكان البشاي الوحيد الذي ينضم إلى حربي والمطاريد في يوم الزيارة. اعتاد أن يحمل إليهم الشاي من داخل الدير وكلوبا مضاء إذا ما ليّل الليل وهم جالسون على الرمل خارج الأسوار." <sup>468</sup>

وكان احترام الدير بينهم إلى حد أن المطاريد كانوا لا يتحملون حتى أدنى مزاح يتفوه بالسوء عن الدير. فلما قال الحنين واحد من المطاريد المسيحي "على فكرة يا معلم أنا سمعت أن هذا الدير مملوء بالذهب... كان طلق نارى قد دوى وكان حنين ينطح على الأرض وهو يصرخ، وكان المعلم فارس واقفا وهو يصيح ملوحا بمسدسه: أنا إسمي فارس يا كلب! فارس لا يخون يا خائن" <sup>469</sup>... لما اطمأن حنين جلس وهو يتأوه ويقول: ترميني بالنار على نكتة يا معلم؟ فقال فارس بصوت جريح عاجز عن السيطرة على نفسه: تريد يا حنين أن أعتدي على الرهبان الذين أوصى عليهم ربنا سبحانه وتعالى في القرآن؟" <sup>470</sup> بعد هذا الحدث يطرد فارس الحنين عن جماعته.

---

<sup>467</sup> نفس المصدر، ص 106

<sup>468</sup> نفس المصدر، ص 107

<sup>469</sup> نفس المصدر، ص 112

<sup>470</sup> طاهر، بهاء، خالتي صفيّة والدير، ص 113

حاول الحنين يوماً أن يقوم بقتل حربي وهو في الدير" يقول حربي إن بشاي تركه فجأة وجرى نحو الجبل وهو يفر ذراعيه على امتدادها كأنه سيمنع الحصان الأسود والفارس المثلث الذي ظهر من خلف الصخرة. يقول إنه صرخ بصوت رده الجبل- إبعده يا حنين... يقول حربي إن تلك الصرخة أنقذت حياته." 471

مع مرور الأيام تردت صحة حربي ويوماً "فوجئنا في الصباح بصوت يصيح من بعيد...ولما خرجنا أنا وأبي مذعورين رأينا المقدس بشاي يجري دون الحزام الذي يربط وسطه، فتهدل ثوبه وتهدل جسمه كله واختلط لهاته ببكائه-إسرع يا حاج، الرب يسترد الوديعة...لما لقنه الشهادتين وأسبل عينه انحنى يحضنه ويكي...المقدس بشاي وجد دموعه وكان نشيجه يجاوب نحبي ونشيج أبي الذي ظل منكفأ على الجسد الميت." 472

وكان أهل القرية يحبون أهل الدير مثلاً بمثل. فلما أصاب المقدس الوهن وسأل الراهب جرجس أبا البطل أن يعينه في نقل المقدس بشاي إلى المستشفى رضي له بكل ترحيب. ولكن خبر مرضه نشر في القرية سريعاً مع أن الراهب لم يكن قد كلم أحداً غير أبي فإن الأخبار في قريتنا يستحيل إخفاؤها، بعد قليل كنت أقف مع جميع أهل بلدتنا، اصطفوا عند أول الطريق الرملي بالقرب من بيتنا ورحنا نرقب العربة الآتية تتأرجح من بعيد...تحرك واحد المزارعين الواقفين وكان يمسك عصاً أو فأساً، لا أذكر، فرفعها ولوح بها وقال بصوت متهدج ((مع السلامة يا بشاي-مع السلامة يا مجدس))..نظر بشاي نحونا... لوح لي وهو يتسم... جرأت وراء العربة أنا أهتف أيضاً، مع السلامة يا مجدس، مع السلامة." 473

471 نفس المصدر، ص 127

472 نفس المصدر، ص 131

473 نفس المصدر، ص 140

ثم يصور الروائي أن البطل كان قد غادر قريته للعمل في الخارج. بعد مر السنين هو يسترجع ماضيه وتلك الأوضاع في القرية ويقول "أسأل نفسي إن كان مازال هناك طفل يحمل الكعك إلى الدير في علبة بيضاء من الكرتون؟ وأسأل نفسي إن كانوا ما زالوا يهدون إلى جيرانهم ذلك البلح المسكر الصغير النوى؟

أسأل نفسي....

أسألها كثيرا....."474

## الباب الرابع: إسهامات بهاء طاهر في المجتمع والأدب العربي

المدخل: هذا الباب يتناول ويحتوي على ما هو الإسهامات التي قدمها الروائي للمجتمع من خلال شخصيته وأعماله وأفكاره أولاً، وثانياً كيف أن أعماله وخاصة أعماله الأدبية عملت لصالح المجتمع وما هي العوامل الفكرية والأدبية التي أدت إلى تغيير ما في المجتمع وما هو مدها.

فإن هذا الكاتب مثقف ومؤمن إيماناً شديداً بالثقافة وبدورها في المجتمع في تسييره وتطويره وترحيله إلى المجتمع الأحسن والأفضل. ويرى أن الأدب عامة وللأدب القصصي خاصة صلاحية لأن تكون وسيلة مهمة في نشر الرسالة الاجتماعية، وبما أنه كاتب بالنزعة الواقعية، المرجو من كتاباته أنها أدت فريضتها من هذه الرسالة وأن الروائي بذل أجدد محاولاته تجاه تحسين هذه المهمة وهذه الفريضة. فما هذه المحاولات والوسائل الأدبية من الأساليب والتقنيات والفنيات التي جعلت الأديب هذا قادراً إلى إرسال أو إحياء الرسالة التي رامها، وما هو المدى الذي نجح الأديب الوصول إليه.

في هذا الباب أحاول أن أقدم أفكار الروائي. فإن هذه الأفكار هي التي تحدد المسار العملي له وتهيئ له الإطار التي يجول في طيفه والحدود التي لا يكاد يخرج عن نطاقها، وأحاول في ذلك أن أذكر ههنا ما هو في منالي من المصادر العديدة من الكتب والصحف والجرائد.

ثم نقدم كيف كان مساره العملي من الذاتي والأدبي تجاه هذه الأفكار وتنفيذها في المجتمع. وذلك من خلال تقديم آراء وتقييمات قام بها معاصروه من الكتاب والنقاد والمثقفين. ثم على لسان هذه النخبة المتنورين أحاول أن أقدم مدى بلوغ الروائي مرامه وأهدافه التي تنبأها من خلال أفكاره. ليس لي من الكفاءة أن أقدم تقييم هذه الروائي الشهير الذي جاوز الثمانين من عمره ويحفونه الناس والقراء بالكرامة وأنا لست إلا طالبا باحثا. فإن كل

ما أقوله أحاول إما أن يكون من أقوال الكبار المثقفين والأدباء من معاصريه وممن كتبوا عن شخصيته وأفكاره وأعماله أو يكون مستمداً من تلك الآراء والأقوال المنشورة في عديد من المصادر.

على غرار ذلك أقدم تقييمه الأدبي من خلال تحليل الوسائل التي استخدمها في أعماله الأدبية، إلى أي مدى تبلغ هذه الوسائل الأدبية من الأساليب والتقنيات والفنيات من الجودة والحسن وإلى أي مدى عاونته هذه الوسائل في تبليغ الرسالة الفكرية الأدبية. مرة أخرى لابد لي أن أقول إنني لست ممن له كفاءة التحليل الأدبي، فإنه ليس إلا للأدباء والنقاد الذين تركزوا له وتذوقوا من المناهل الأدبية المختلفة فتطورت أذواقهم بالذوق التمييزي وبذلك يحملون الكفاءة من تذوق الأعمال الأدبية وتقرير الحكم عليها من الجودة والحسن والقبح. في هذا الصدد أحصر نفسي إلى تقييم الأدباء له بدون محاولة مقارنة ما مع الأدباء الآخرين من معاصريه ومن جيله أو من أكابريه، فإن ذلك أدق المشاكل ويحتاج إلى رسالة بحث مستقلة.

## الفصل الأول: آراء بهاء طاهر عن المجتمع والثقافة والسياسة والكتابة

يحمل هذا الكاتب أفكارا يؤمن بها من أن التعليم هو أساس الثقافة والثقافة هي بناء الكتابة، والثقافة مع شركاء الكتابة وسيلة إلى توجيه المجتمع إلى الأحسن. وكلتا من الثقافة والكتابة تحتاجان إلى الإطار الحر والديمقراطي-الإطار الذي تكون فيه العقول حرة والأقلام سارية بدون إعاقه، والأصابع ناطقة بدون الحصر والتقييد. بهذا يلج الكاتب إلى عالم السياسة، العالم الذي يحب الولوج فيه من خلال الكتابة أدبية كانت أو علمية، وتحت لافتات الحركات المدنية. لكنه لا يتورط في السياسة مباشرة ولا يجب أن يكون جزءا من النظام السياسي مخافة أن تتلوث فيه شخصيته وتتقدر به سمعته أو أنه كمبرغ إجتماعي لا يريد حيازا ما تجاه النظام السياسي بل يريد أن يكون المجتمع له وهو للمجتمع بدون أي حياز سياسي وأيدولوجي كي تكون رسالته أشمل وأقرب إلى قلوب الناس وأنعم إلى آذانهم. ولا يعني ذلك أنه ليس لهذا الكاتب أي حياز أيدولوجي. له حياز أيدولوجي ما نسميه بالليبرالية التي لا يمكن تحديدها حيث أنها فكرة لا تلتزم شيئا ولا تلغي شيئا بل هو دائم التغير في كثرة مواقفه أو هو مسير لكل ما نسميه من الأفكار البديعة. على الرغم من ذلك هناك بعض علامات يمكن لأحد أن ينسب إليها، فالديمقراطية المطلقة والحرية والعلمنة والعروبة والوطنية والعدالة الإجتماعية هي من الحيازات التي يتبناه هذا الروائي كما ينجلي مع المرور عبر هذا الباب.

يقول بهاء طاهر: عندما نتحدث عن ((الثقافة)) هنا لا نقصر الحديث على الآداب والفنون كما هو الشائع، وإنما نتجه إلى المنبع، أي منبع القيم التي تتمثل في الآداب والفنون كما تتمثل في نظم التعليم والعلاقات الاجتماعية ونظم الحكم<sup>475</sup>... وأن ثقافتها (المجتمعات) تنبع من ظروف بيئتها ومعيشتها وأن هذه الثقافة غالبا ما تكون

<sup>475</sup> طاهر، بهاء، أبناء رفاة، ص 29، دار الشروق، مصر، 2011

وسيلة للحفاظ على المجتمع والنهوض به فترات تماسكة، فهي تتطور مع تطوره، والعكس صحيح أيضا بمعنى أنها تنحدر مع انحداره. وأهم من ذلك أن القيم الثقافية هي قيم مترابطة بمعنى أنها يكمل بعضها بعضا.<sup>476</sup> ويعتقد بهاء طاهر أنه كان للمثقفين دور رئيسي في تطوير المجتمع المدني تلو النهضة التي حلت مع ولاء محمد علي على الحكم. ولو أن الفضل في ذلك يرجع إلى القيادة الحكومية حينذاك أيضا إلا أنه لولا المثقفون لما تأتى لنا مجتمعنا الذي تطور مع الإصلاحات وإلى الوضع الذي نحن فيه اليوم.<sup>477</sup>

يقول بهاء طاهر عن الكتابة والحلم المصري وحلمه " رؤيتي الخاصة بالنسبة لمستقبل الكتابة .. هذا موضوع كبير جدا ويحتاج للحديث فيه وقت طويل لأن الحديث عنه وأي إجابة عنه سوف تكون إجابة قاصرة ولكني حددت في كتابي "أبناء رفاة" أن هناك ما أسميته بالحلم المصري .. هذا الحلم المصري موجودا منذ أيام رفاة الطهطاوي مروراً بالثورة العربية .. ومرورا بمصطفى كامل والكفاح ضد الاحتلال الإنجليزي وثورة 1919 وثورة يوليو، هذا هو الحلم المصري الذي يتمثل في تصوري كما استقرت الواقع والتطور التاريخي .. حق التعليم للجميع، المعركة التي خاضها طه حسين حينما قال "التعليم كالماء والهواء" والمعركة التي خاضها من قبله عبد الله النديم وقاسم أمين .. نقطة البداية لابد وأن تكون التعليم .. على هذا الأساس فالتنمية الثقافية تكون أهم من التنمية الاقتصادية .. العدالة الاجتماعية .. المهم المصري منذ رفاة الطهطاوي إلى يوسف إدريس .. إلى كل الكتاب الذين عايشوا هذه الفترات .. العدالة للمرأة هي حق المرأة في أن تعيش في مجتمع يكفل لها حقوقها مثلما تؤدي واجباتها .. الوحدة الوطنية التي حارب من أجلها المثقفون جميعا .. أن نعيش في مجتمع واحد وأن يكون لكل

<sup>476</sup> نفس المصدر، ص 31

<sup>477</sup> Kassab, Elizabeth Suzanne, Critics and Rebels: Older Arab Intellectuals Reflect on the Uprisings, British Journal of Middle Eastern Studies, p 18, Routledge, Published online on 19 March 2014,



منا نفس الحقوق والواجبات .. هذه هي ملامح الحلم المصري الذي ناضل من أجله المثقفون على مدى أكثر من قرن ونصف القرن من الزمان وشهد هذا الحلم لحظات من المجد ولحظات انكسار ولكنه مازال في تصوري بخطوطه العريضة هو المسعى الذي تصب فيه كل جهود المفكرين والمثقفين المصريين .. وأهم من هذا كله الديمقراطية .. فيلي أي حد سوف نتخلى عنه .. إذا كنا سوف نواصل التثبيت بهذا الحلم والكفاح من أجله والدفاع عنه سوف يكون مستقبلنا إيجابيا لأن كل مراحل المجتمع المصري قطعت خطوات في سبيل تجسيد هذا الحلم .. أما إذا تخيلنا عن هذا الحلم فلن يكون لهذا المجتمع مستقبل على الإطلاق.<sup>478</sup> يجعل بهاء طاهر في المقدمة حق التعليم للجميع، والعدالة الاجتماعية، والعدالة للمرأة، والوحدة الوطنية العلمانية، والديمقراطية. هو متأثر إلى حد كبير من أفكار رواد النهضة المصرية من رفاة طهطاوي، وعبد الله النديم، محمد عبده، وقاسم أمين وطه حسين. فيقول: إنني أذكر باستمرار في هذه الدراسات أسماء الطهطاوي ومحمد عبده وقاسم أمين وطه حسين باعتبارهم طلائع كوكبة التنوير في ثقافتنا الحديثة. ولكن هذه الأسماء بالذات تتعرض الآن لهجوم ضار من خصوم النهضة باعتبار أصحابها رواد العلمانية في ثقافتنا الحديثة.<sup>479</sup> ويرى أن للحصول على ذلك نحتاج إلى تطوير وصيانة الثقافة وإلى الأخذ بهذه المهمة إلى القدام جيلا بعد جيل، كما يقول: "تأثير الكلمة داخل الإنسان ودور الثقافة في المجتمع في اعتقادي هو تأثير أساسي .. لأن كل ما تحقق في هذا المجتمع من تغيير تحقق بفضل الثقافة وبفضل كفاح المثقفين الذي سجله كتاب "مستقبل الثقافة" لطفه حسين وأيضاً كتابي "أبناء رفاة" الذي رصدت فيه ما قام به المثقفون من جهد لإحداث تغيير اجتماعي .. إذا احتضن المثقف المعاصر رسالة

<sup>478</sup> طائل، أحمد، بهاء طاهر الحلم المصري وابتداء رفاة حوار: أحمد طائل ، صحيفة "دنيا الوطن" رام الله، فلسطين، تاريخ النشر 11/12/2006، حسب الزيارة في 4 يوليو 2017 <http://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2006/12/11/66397.html> حسب الزيارة في 4 يوليو 2017

<sup>479</sup> طاهر، بهاء، أبناء رفاة، ص 13

أسلافه في إحداث النقلة الاجتماعية وفي التمسك بالحلم المصري الذي دفعنا إزاءه دماء كثيرة وثمنا باهظا سوف تكون للكلمة تأثيرها الإيجابي." 480

ويعتقد أن على عواتق المثقفين المسؤولية لأن يقوموا بهذه المهمة، ولكنهم يحتاجون أن تقوم لهم الدولة ويقدر لهم الشعب، وأنه لا غنى للمجتمع من الثقة في المثقفين، فإنهم الذين يصوبون الطرق والسبل للدولة في مجالات التعليم وإزاهاء أفكار الشبان للوحدة الوطنية، فيقول: "لا شك أن الدولة والقائمين على حال الثقافة في مصر، يتحملون المسؤولية الكبرى، والذنب الأكبر عن تلك الحالة المتردية، فالمجتمع والسلطة قررا الاستغناء عن الأدباء والمثقفين ووضعهم على الهامش، ليحل محلهم من لا يستحق، ما ينذر بكارثة كبيرة، فلا نهضة أو تقدم لأمة دون ثقافة أو أدب..... ثم يقول "على الدولة أن تمد يد العون لنهضة الأدب والثقافة في مصر، وأن تجعلهم شركاء في صنع القرار، علاوة على ضرورة الاعتماد عليهم بشكل كامل من أجل النهوض بالبلاد، ولكن ذلك لا يحدث في الفترة الحالية، رغم أن الأدباء والمثقفين يمثلون نواة الحضارة والبناء في كافة دول العالم، ولولاهم لا تشهد الأمم نهضة أو حضارة تذكر..... لا بد في المقام الأول إسناد دور كبير للأدباء والمثقفين، كي يتصدروا المشهد ليقودوا عملية التنوير والتثقيف، علاوة على دور الأزهر الشريف والكنيسة، اللذين لا بد أن يقوموا بدورهما بشكل رئيسي في تلك القضية، كما أن تطبيق استراتيجية الحفاظ على ترابط النسيج الوطني، لا يمكن أن تتم بعيداً عن التعليم في المدارس والنشأة منذ الطفولة، فلا بد أن تحتوى المناهج التعليمية على مواد ترسخ الوحدة الوطنية لدى الطلبة، لأنهم ذخيرة الغد وأساس الأجيال القادمة، وهذا ما نحتاجه حالياً ولكنه ليس متوافراً،

فالتعليم المصرى أصبح قائماً على التلقين لا الفهم، وأصبح التعليم وسيلة من وسائل التفكك الاجتماعي " 481 بل نجد بهاء طاهر يجعل أمر الثقافة أمراً أساسياً وبنائياً للمجتمع والدولة حيث أنها هي الثقافة التي تحكم سلوك البشر، فهو أنه تتقدم التنمية الثقافية على أي تنميات أخرى " بدون التنمية الثقافية لا توجد تنمية اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية. الثقافة بمعنى القيم التي تحكم سلوكك كبشر، مثل التعامل بصدق مع البشر. الثقافة تشمل السلوكيات، وتشمل القيم، وتشمل طرق التعامل بين البشر. إذا كانت ثقافتنا مريضة فلا بد أن تكون التنمية في أى مجال من المجالات مريضة. 482

و نجد محمد عبد الله يلقي ضوءاً شاملاً على ما للمثقفة والمثقفين دور في المجتمع عند بهاء طاهر قائلاً: يعبر بهاء طاهر عامه السبعين، دون أن يتخلى عن إيمانه القاطع بدور الثقافة، وحاجة المجتمع إليها. الثقافة عنده بصورها وفعاليتها المختلفة، أداة كبرى للتغيير والتنوير، سمها ما شئت: رسالة أو قضية أو التزاماً، لكنها ليست مجانية ولا عبثية. يلاحظ بهاء ما حلّ بالثقافة والمثقفين من كوارث وأزمات، وهو نفسه عايش منتصف السبعينات تجربة إقصائية، كانت جزءاً من إقصاء السلطة للمثقف، لكنه رغم كل شيء يشدد في إبداعاته وكتاباتاته على دور الثقافة في فهم المجتمع وفي تحليله وفي صيانتها، لأن الثقافة مرادفة للحرية وللوعي وللعطاء النبيل. ولا يمكن للثقافة أن تنهض ببعض ذلك دون أن يكون المثقف نفسه مستقلاً صلباً بعيداً عن الأشكال المعروفة من شراء الذمم وفسادها. بهاء من أولئك الصادقين الأحرار الذين اختاروا الثقافة أفقاً للحرية وسبيلاً رجباً نحو الكبرياء، ولعل

481 نصر، محمد، بهاء طاهر في حوار له "البوابة": مصر غير مؤهلة لتطبيق الديمقراطية، البوابة نيوز، لبوابة نيوز - المركز العربي للدراسات السياسية، 57ش.مصدق، الدقي، الجيزة، الجيزة، مصر 12626 ، 27من شهر سبتمبر 2015 ، حسب الزيارة في 4 يوليو

2017، <http://www.albawabhnews.com/1519024>

482 نفس المصدر

كتاب بهاء طاهر المسمّى (أبناء رفاة: الثقافة والحريّة) من أبلغ الكتب العربية في التدليل على مكانة الثقافة والدفاع عن دورها وعن استقلالها وحريتها. "483

### عن الوطنية والديمقراطية والعلمانية

كلما نلتقيه في حواراته أو نقرأ في أعماله ومقالاته نجده كثيراً ما يركز على هذه الأفكار بالخصوص، وكيف لا وهي بناء العقلية البهائية التي تربى عليه منذ وعيه على عالم الأفكار. يقول في كتابه "أبناء رفاة": مع إنجازات محمد علي الكبيرة انتبه الطهطاوي إلى أن هذا الوطن يستحق أكثر بكثير مما آل إليه تحت الحكم العثماني. وبدأ يرجع إلى التاريخ ويحدث المصريين عما كانت عليه بلادهم في عصورها الزاهرة... إنها بقيت سبعين قرناً حافظة لمرتبها العليا. وخلص من ذلك إلى نتيجة محددة هي أن حب الأوطان فضيلة جليّة، لا سيما إذا كان المواطن منبت العز والسعادة والفخر كديار مصر، فهي أعز الأوطان لبنيتها وهي مستحقة برها منهم بالسعي لبلوغ أمانها وذلك من ناحيتين: أنها أم لساكنتها، وبر الوالدين واجب عقلاً وشرعاً على كل إنسان، والثانية أنهاء ودودة وبارة بهم.... من المنطلق الديني يوجه (الطهطاوي) ضربه إلى واحد من المفاهيم المتخلفة في المنظومة العثمانية الباغية ((فَرَّقَ تسد)). إذن وحدة الوطن تعني بالضرورة وحدة أبنائه والمساواة بينهم أياً كان الدين الذي يعتنقونه، فهو يرى أن حكمة الله قد اقتضت أن يكون أبناء الوطن متحدين في اللغة وفي العيش في مكان واحد وهذا يعني أنه سبحانه وتعالى قد أعدهم للتعاون على إصلاح وطنهم وعلى أن يكون بعضهم بالنسبة إلى بعض كأعضاء العائلة الواحدة.... كلمات ومفاهيم جديدة تدخل في الثقافة السياسية... الوطن، الأخوة الوطنية،

483 عبيد الله، محمد، عالم بهاء طاهر، "ديوان العرب" ١ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٥،  
<http://www.diwanalarab.com/spip.php?article2543> حسب الزيارة في 4 يوليو 2017

والحرية والمساواة.<sup>484</sup> هو يقوم في هذا الكتاب بتقديم ما لديه من دلائل علمية وفكرية ودينية وتاريخية لإثبات موقفه.

ولا يخفى على أحد فداحة الاستدلال في السطور السابقة. فمن أين ثبت أن الأرض هي الأم. ويقول الله عز وجل إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا. وكيف عرف الطهطاوي أن حكمة الله اقتضت أن يكون أبناء الوطن متحدين؟ وليست الوطنية إلا جنينة الرأسمالية التي حملت الأوطان بها إما من خلال الهوية الليبرالية أو الهوية الرومانسية. وبما أن محمد عبده يتميز بسمعة عالية بين الأوساط العلمية الدينية نراه يستند إلى ما استدلل به لإثبات موقفه من العلمنة ناقلا من قوله عندما كون "الحزب الوطني المصري": الحزب الوطني حزب سياسي... فإنه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذهب وجميع النصارى واليهود، وكل من يجرث أرض مصر ويتكلم لغتها منضم إليه، لأنه ينظر إلى اختلاف المعتقدات ويعلم أن الجميع إخوان وأن حقوقهم في السياسة والشرائع متساوية.<sup>485</sup>

وأحب وأهم ما في فكرته عن الحياة والمجتمع هو الديمقراطية، فهو من هذه الناحية يتبنى فكرة الحدائين الذين يعتقدون أن الديمقراطية هي السبيل الوحيد للحكم القائم بالعدل ولو أننا نجد أنه يؤيد الحكم العسكري كما أنه قام بتأييد حكم عبد الفتاح السيسي ضد حكم مرسي الذي رقى إلى الحكم عن طريق الديمقراطية، فيقول: "الديمقراطية والحرية قد يكونان من أكثر الأمور خطورة على مستقبل الأوطان، فالديمقراطية قادرة على ترشيد

<sup>484</sup> طاهر ، بهاء، أبناء رفاة، ص 35-36

<sup>485</sup> طاهر، بهاء، أبناء رفاة، ص 37-38

تجاوزات الحرية وهي عمود الحياة السياسية، ودونها تتحول الحياة إلى فوضى<sup>486</sup> وأن "العلمانية تحقق الوعي العام للمجتمع، وأن الديمقراطية أعظم سلاح ضد الإرهاب، وافتنا إلى أن المشروع الثقافي القومي أهم من خطة الحكومة للنهوض بالاقتصاد.. الديمقراطية أعظم سلاح ضد الإرهاب، والسبب الرئيسي في حرمان الشعب منها يكمن في عدم وجود مؤسسات قوية تعبر عن المجتمع المدني، والموجودة على الساحة ضعيفة وهشة لا تستطيع تحقيق خططها وأهدافها وفرض رؤيتها من خلال قيادات فكرية منوطة بإحداث التغيير، لذلك شعبنا محروم من العدالة، لأنها لن تأتي إلا بتحقيق الديمقراطية أولاً.... وأن العلمانية تكفل للمجتمع تحقيق الوعي العام والديمقراطية، ونفتقدتها في مصر لأن قوى المعارضة أقوى وأكبر بكثير، وتستخدم أساليب قريبة من الإرهاب، وأقول للجميع لن تتقدم خطواتنا إلا بتطبيق مبادئ العلمانية.... وهو أيضا يذكر الهند، زرت الهند مرات عديدة، ووجدت شعبها يتمتع بقدر عال من الديمقراطية رغم الفقر والامية، وأحوالهم أفضل من مصر بكثير، وهنا أؤكد أن الامية ليست عائقا أمام تحقيق الديمقراطية، وهذا ما أسس له نهر وغاندي، فحزب المؤتمر الهندي رسخ للديمقراطية رغم الفقر والامية، ومازالت الهند تضرب مثلا رائعا في تحقيق الديمقراطية التي سهلت تطبيق العدالة"<sup>487</sup> موقفه من الديمقراطية يبتني على أساس العلمنة. فهو لا يرى معنى للديمقراطية إن تحققت بتوحيد الدين والسياسة. في هذه المواقف هو يفضل العلمنة على الديمقراطية، وفي هذا يمكن أن نجد تأويل موقفه من حكم السيسي. بعد ثورة يناير 2011م كانت وزارة الثقافة عرضت عليه إلا أنه رفض بقبول المنصب اعتبارا من أن الجيل الشاب أحق بها. لكن حينما سئل عما كان قد قام به لو تولى الوزارة قال: إنه لقد كان قام بتنفيذ

486 كرم، محمد،- الظنيني، داليا، بهاء طاهر في حوار له "البوابة": عندما أنظر إلى أحوال سوريا أقول الحمد لله أننا في مصر.. والمنتقون بلا تأثير أو مشروع ولا وجود لهم في الشارع.. والمشهد السياسي يفتقر إلى الديمقراطية، البوابة نيوز، لأربعاء 11-05-2016 ، <http://www.albawabhnews.com/1925838> حسب الزيارة في 4 يوليو 2017

487 عبدالشافى، هيثم، الأديب الكبير بهاء طاهر: «باريت مصر تصبّح على الغلابة بساندويتش فول» (حوار)، صحيفة "المصري اليوم" 2016-04-03، <http://www.almasryalyoum.com/news/details/922109>

نفس المبادئ التي قدمها طه حسين في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" على مقتضيات الوضع الراهن، أهمها التعليم للجميع من أجل الديمقراطية.<sup>488</sup>

فهو يعتقد في مبدأ الفصل بين السياسة والدين، ويرى إلى تدخل الدين في السياسة كنوع من القناع الكاذب على اسم الدين، بل يرى إلى الحكم الديني كنوع من الاستعمار ويطلق عليه الاستعمار الديني ويرى في الحكم العثماني مثالا للاستعمار الديني. وهو يخالف شديدا تصاعد الإخوان إلى الحكم بعد ثورة يناير 2011م، وشارك في التظاهرات ضد حكم الرئيس مرسي. من قبل قد أبدى قلقه الشديد على تقوية حركة الإخوان سياسيا ويرى إلى بروز السياسة الدينية بتبرم شديد. فإنه قدم مقالا عنه كما يقول في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه "أبناء رفاة الثقافة والحرية": الفصل المعنون "كيف وصلنا إلى الإخوان" الذي نشرته بعد تقدمهم الملحوظ في الانتخابات البرلمانية لعام 2005م، بدا لي ذلك الحدث - بحق - خلاصة ونتيجة لكل التطورات التي رصدها هذا الكتاب. كان إعلانا واضحا على ترشح الدولة المدنية تحت وطأة الضربات المتلاحقة لدعاة الدولة الدينية وأنصارها.<sup>489</sup> في هذا الفصل من كتابه هو يشير إلى سياسات السادات خاصة أنها لعبت دورا بارزا في تهميش المتقنين وتقديم المتدينين على الساحة الثقافية والسياسية. وإن إضعاف الدولة المدنية وفسادها قد سهلا للإخوان تنفيذ مشروعهم في السيطرة على المجتمع. ومن بعد ذلك كتتحصيل حاصل السيطرة على الحكم في الوقت الملائم. ويقول أيضا: بدأ الأمر بإقصاء المتقنين من أنصار الدولة المدنية وتهميشهم، حتى لا يكون لهم أي تأثير على الرأي العام - وما زال هذا مستمرا إلى اليوم - وحل محلهم في منابر الإعلام وعاظ يؤسسون للسلطة الدينية، وفي التعليم والنقابات

Kassab, Elizabeth Suzanne, Critics and Rebels: Older Arab Intellectuals Reflect on the Uprisings, British <sup>488</sup> p 18, Routledge, Published online on 19 March 2014, Journal of Middle Eastern Studies,

<http://www.tandfonline.com/loi/cbjm20>

<sup>489</sup> طاهر، بهاء، أبناء رفاة، ص 8

دعاة من الإخوان يمهّدون لقيام الدولة الدينية- وما زال مستمرا-، ولم تظهر أي قوة جديدة تحمل مشروعا قويا ومقنعا يتصدى للمشروع الإخواني، حاربت الدولة الفكر اليساري والوسطي والليبرالي على حد سواء بكفاءة عالية، فلم يبق لها إلا الإخوان!<sup>490</sup>

يبدو يرتضي لحكم ما يساريا كان أو وسطيا أو ليبراليا، أي كل أنواع الحكم التي تقوم على بناء الفصل بين الدين والسياسة. فهو تلميذ منصاع للحدائثة وللليبرالية الحدائثة التي لا ترى في توحيد الدين والسياسة إلا شرا.



## الفصل الثاني: مدي إسهاماته في المسار الأدبي والمجتمع

على تقييم محمد عبد الله بدوره في تطوير السرد العربي الحديث من أن رواياته وقصصه تتحاور مع الحياة العربية، والشاهد على ذلك من أعماله رواية "شرق النخيل" ورواية "قالت ضحى". بل لا يمكن أن نجد أي عمل له لا يتحاور مع الحياة العربية وخاصة الحياة العربية، ولكن يمتاز بلونه الخاص في قدرته وبراعته في رسم السيناريو وتقديم الحوار بأساليب شتى، يقول محمد عبده الله " قدم بهاء طاهر مع مجاليه من أبناء جيل الستينات إسهامات أساسية في القصة القصيرة والرواية، كان لها دور جليّ في تطوير السرد العربي الحديث، وفي محاوراته الثرية مع الحياة العربية في النصف الثاني من القرن العشرين، إنه واحد ممن أكدوا حضور السرد ومركزته، رغم أن القطاع الثقافي كلّه، قد تعرض لمحاولات متواصلة من الإقصاء والتهميش في الحقبة العربية المعاصرة. ولكن الانتماء إلى جيل لا يكفي لفهم التجربة الفريدة لهذا المبدع، الذي يصحّ أن نصفه بالتعبير العربي القديم، فنقول إن بهاء طاهر "نسيج وحده" بمعنى تحقيق الذات ومنحها سمات فارقة رغم السياقات الجماعية التي يتشكّل فيها المبدعون. إنه ابن زمانه ومكانه، ابن المؤثرات الكبرى التي شكّلت جيله، لكنه فتش عن سبل الاختلاف والمغايرة ليؤسس معالم خصوصيته وهويته الإبداعية، ويطوّر رؤيته استناداً إلى مشروعية الإبداع الفردي الذي قد يصبّ في السياق العام، لكنه يظل رافداً له لونه الخاص ومذاقه المختلف. مما تأثرت به ترجمته الإبداعية خبرته الدرامية والإذاعية، في البرنامج الثاني، وأسهم أثناء عمله بتقديم الأعمال الروائية والقصصية في شكل الدراما الإذاعية، وأتقن فنون كتابة السيناريو، وعلم ضمن التجربة نفسها مادة (الدراما) في قسم السيناريو بمعهد السينما. هذه الخبرات لم تذهب عبثاً، ومن يدقق في قصصه ورواياته سيلاحظ أنه من أكثر الكتاب تميزاً في تقنية "الحوار"، حتى يغدو عنده عنصراً أساسياً لا تستغني

القصة عنه. حوارات أشبه بالسيناريو حتى وهي موجزة، تنبض بالحياة وتسمح للشخصية بتقديم نفسها، وتمنح القارئ متعة خاصة في الاقتراب من أنفاس الشخصية ومن تدرج منطقتها.<sup>491</sup>

ونجد إيهاب الملاح يتفق معي فيما وصلت في البابين الثاني والثالث من هذه الرسالة أن مهمات الأمور في أعماله هي الوطنية والقومية والعروبة والأوضاع السياسية والاجتماعية الاقتصادية المقلقة، ومنها يلج إلى عالم الإنسان لاستكشاف الإنسانية، وهذا واضح لدى من قرأ روايته "واحة الغروب". فيقول "إن انشغالاته الأصيلة وأسئلته الجوهرية تدور حول تيمات وموضوعات إنسانية عامة تحوى في طبقاتها وتكويناتها أهم الوطنى والقومى والعروبى أيضا.... وأن الإشكاليات التي تعرضها له "إشكاليات تبلورت حول التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي ضربت المجتمع المصرى وانعكاساتها لأكثر من نصف قرن (شرق النخيل وقالت ضحى ونقطة النور)، علاقة المثقف بالسلطة في ضوء انهيار الحلم الناصرى وما تلاه (الحب في المنفى)، العلاقة بين الشرق والغرب في توتراتها وصراعاتها وتناقضاتها الأشمل والأكبر (واحة الغروب وأنا الملك جئت)...قراءة عميقة لمدونة روايات بهاء طاهر تؤكد أنها رواية عابرة للثقافات والأجناس والأديان واللغات؛ لأنها تلغى ببساطة كل هذه الفواصل بين شخوصها القلقة، لا يهتم مؤلفها سوى بالنفاذ إلى أعماقهم بحثا عن الواحة والصحراء المرفأ والمستقر، داخل النفوس والقلوب، مثلما بحث عنها في المكان والجغرافيا، وفوق الخرائط المنسية، كل ذلك من خلال عين قرأت وشاهدت وتعذبت، وروح تعبر أيضا عن عقل اختزن تجارب الإنسان وتاريخه وأساطيره وانكساراته وانتصاراته، هناك استمتاع بالحكى مثل الحكائين القدامى، ولكن هناك أيضا محاولة أعمق لاكتشاف الإنسان، يتحول القص لدى بهاء طاهر إلى موقف وشهادة ووجهة نظر، كما كتب عنه محمود عبدالشكور في

491 عبيد الله، محمد، عالم بهاء طاهر، "ديوان العرب" ١ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٥،  
 حسب الزيارة في 4 يوليو 2017 <http://www.diwanalarab.com/spip.php?article2543>

دراسته البديعة عن (واحة الغروب)... استحق بهاء طاهر ما قاله عنه كبار النقاد حينما وصفوا كتاباته بأنها «من هذه الكتابات الهامسة التي تنساب إليك في هدوء أسر بليغ، وترت على مشاعرك في نعومة ورقة مهما بلغت حدتها الدرامية وعمقها الدلالي. إنه قصاص شاعر متصوف تفيض شاعريته وصوفيته برؤية إنسانية حارة»، كما قال عنه الراحل محمود أمين العالم<sup>492</sup>.

ويقول خالد عميرة في مقاله عنه في الأهرام مصر " إذا كانت الرواية فرط حكمة، والقصة القصيرة فرط عاطفة وانفعال، مما يحول بين أغلب الأدباء والجمع بين الجنسين الأدبيين (القصة القصيرة والرواية) بنفس الكفاءة، فإن بهاء طاهر جمع بينهما بكفاءة وحرفية عالية ربما لم يصلها أديب عربي قبله، فحملت قصصه حكمة ووعي الراوي، وحملت رواياته صخب القاص وانفعاله، ولعل هذا ما دفع يوسف إدريس إلى وصفه بأنه «كاتب لا يستعير أصابع غيره ولا يقلد أحد»، وذلك عند تقديم أولى قصص بهاء طاهر التي نشرها في مجلة الكاتب عام 1964 ولعل هذا بالفعل هو أفضل وصف لكاتبنا الكبير، فبهاء طاهر الذي ينتمي ظاهريا لجيل الستينيات، يشكل بأفكاره ولغته، وشخصياته، وأجواء قصصه ورواياته عالما وحده... ما إن تدخله حتى يصعب عليك الخروج.<sup>493</sup> إسهام هذه الروائي على تعبیر خالد عميرة هو الجمع بين الحكمة والحرفة العالية، وفيهما هو يمتاز عن الآخرين، حيث أن رواياته تحمل حكم بهائية وجودة يتفرد بها هذا الكاتب.

<sup>492</sup> الملاح، إيهاب، إلى بهاء طاهر في عيد ميلاده، الشروق، مصر، الجمعة 13 يناير 2017 ،

<http://www.shorouknews.com/columns/view.aspx?cdate=13012017&id=5da94bb5-f86f-4313-bf71-9a58a376394e> حسب الزيارة في 4 يوليو 2017

<sup>493</sup> عميرة، خالد، بهاء طاهر كاتب وحيد.. لقارئ وحيد- مثلث الصعيد والمدينة والغرب صنع تنوع عوالمه وشخصه، نشر في الأهرام اليومي يوم 12 - 08 - 2016 من خلال شبكة ، <http://www.ahram.org.eg/NewsQ/542316.aspx> حسب الزيارة في 4 يوليو 2017

ويقول شعبان يوسف في إشاراتته "لم يكتب بهاء طاهر بالكتابة الإبداعية فقط، بل كان يشارك طوال الوقت في متابعة أعمال الروائيين والقاصين الشباب، ويذهب لمناقشتهم في المنتديات الثقافية، مؤمناً في ذلك بأن اهتمامه الشخصي بالكتابة الجيدة من وجهة نظره، يدفع الحركة الأدبية للأمام، من هنا جاء كتابه "في مديح الرواية" والذي كتب فيه عن روايات هليوبلس لمي التلمساني، وعمارة يعقوبيان لعلاء الأسواني -رغم تضارب الآراء في الرواية، ولكن بهاء طاهر يكتب بحسّه الخاص الذي أشار إليه يوسف إدريس في البداية، إنه يكتب كتابة بهائية طاهرية، ولا يريد الانجذاب إلى أي تشويشات خارجية، حتى في العمل السياسي فهو دائماً كان مشاركاً بقوة، وكنت أشاهده في الأحداث الأولى لثورة يناير وهو يتوكأ علي عصاه معنا في ميدان التحرير، مستنشقا 25 روائح الغاز الكريهة التي كانت تهاجمنا من كل صوب، وهو ينظر إلى مصر وهي تتفتح وتنفض بقوة، وكان معنا كذلك في اعتصام وزارة الثقافة، بل كان في الدفعة الأولى التي اقتحمت مبنى الوزارة في 4 يونيو 3102م ضد حكم الإخوان، والتي بدأت بالاحتجاج علي قرارات وزير الثقافة الذي راح يطيح بجنون بكل ما تطول يدها.

بهاء طاهر لا تكفيه تلك الكلمات السريعة، ولا تفي به بعضاً مما قدمه لنا وللحياة الثقافية والأدبية المصرية.<sup>494</sup> هو يصل إلى نتيجة أن أعماله فريدة الصبغ واللون ما يمكن أن نعبره أنها كتابة بهائية طاهرية ما أشاده بها يوسف إدريس، ويضيف بتقديم الأشادات التي قام به معاصروه وخاصة عن روايته "الحب في المنفى" فيقول شعبان يوسف "عندما صدرت رواية "الحب في المنفى" للكاتب والمبدع الكبير بهاء طاهر في يوليو عام 1995م عن سلسلة روايات الهلال، أحدثت دوياً وجدلاً كبيرين، وكتب عنها الدكتور علي الراعي مقالا في جريدة الأهرام عنوانه "رواية كاملة الأوصاف"، وكتب الدكتور شكري عياد مقالا في مجلة الهلال عنوانه: "نموذج جديد للرواية

<sup>494</sup> يوسف، شعبان، بهاء طاهر.. الكاتب والفنان والضمير، أخبار اليوم، 6/8/6102،

الواقعية"، وكتب الدكتور جابر عصفور في جريدة الحياة مقالا عنوانه "رواية كتبها مؤلفها باقتدار كبير"، أما الناقد فاروق عبد القادر فكتب في روز اليوسف مقالا يقول فيه: "كأني بهذا المبدع الكبير يريد أن يحفر في وجدان قارئه ما حدث.. حتي لا ينساه أحد"، وكتب علاء الديب في مجلة صباح الخير يقول: "بهاء طاهر كاتب واضح مسيطر علي مادته وأدواته، جديد في رؤيته، ومتفرد في نوع أدائه، الصدق هو النبرة الأولى التي تصادفك في سطره، والتوازن الموضوعي هو العلامة الواضحة التي يقيم عليها بناء نصوصه"، هذا غيض من فيض ظل يمتد الحياة الثقافية والأدبية طوال العام كله، وكان بهاء طاهر المبدع الكبير، قد أنهى رحلته عمله الاضطرارية في المنفي بالتقاعد، وذلك في شهر مايو الذي سبق صدور الرواية بشهرين. على تقييمهم هذا الروائي كاتب الواقعية الذي يكتب باقتدار كبير ويركب وجدان القارئ بما لديه من قدرة على المادة والأداة وما يستخدمه هو بالجددة والتفرد وتزيد من قيمة أعماله نبرة الصدق والجودة فيها علاوة على التوازن الموضوعي.

صدرت الرواية، وجاء علي غلافها كلمة لمكرم محمد أحمد -رئيس مجلس إدارة دار الهلال آنذاك- يقول في مطلعها: "بهاء طاهر، روائي مصري لا تعنيه الشهرة كثيرا ولا يعنيه الوجود المستمر علي الساحة الأدبية بأعمال متتابعة هدفها إثبات الوجود أو ملاحقة (الموضات) الأدبية الرائجة، لا يكتب بهاء طاهر إلا إذا شعر أن لديه شيئا جديدا يريد أن يقوله، وفي رائعته -الحب في المنفي- يقول لنا بهاء طاهر أشياء كثيرة وجديدة، تتدفق صدقا وألما وعدوبة وهي ترسم أزمة جيل تغيرت من حوله الظروف والقيم والأفكار وطحنته التجارب في عالم غريب يعيش فيه الصدق مخنوقا مطاردا، لكنه ينبض -رغم عمق المأساة- بالحياة، يفعل المستحيل كي لا نستسلم للضياع...".<sup>495</sup>

<sup>495</sup> يوسف، شعبان، بهاء طاهر.. الكاتب والفنان والضمير، أخبار اليوم، 6/8/6102،

ويقول محمد عبيد الله في سياق ما يميزه هذا الروائي: "في سياق الإبداع السردي يسلك اسم بهاء طاهر في جيل الستينات، الجيل الذي رسخ الكتابة ونقلها إلى أحوال جديدة رؤية وتشكياً. ولهباء طاهر صوته الخاص وتجربته المميزة بعيداً عن الفكرة الجماعية في مبدأ التججيل. يمكنك أن تحس بمبلغ عنايته بكل ما يكتبه، بحيث تجمع كتابته بين الأناقة التعبيرية والغنى الرؤيوي، ورغم وضوح حسمه لوظيفة الكتابة، فإنه أبداً لم يقع في فخاخ الأيدلوجيا أو لغة الشعارات، الكتابة عنده تجربة مغايرة لكل ذلك، لها اشتراطاتها الصعبة جمالياً ورؤيويًا، وربما لهذا السبب لم يكن يستعجل النشر، بل إن مجموعته الأولى تأخرت في الصدور حتى عام (1972م)، كما أن ما نشره ليس إلا نسبة محدودة مما كتب، إنه من أولئك المبدعين الذين يقدسون الكلمة، ويتعاملون مع الكتابة بحرص واحترام وإجلال.. ولعل القيمة العالية لإنتاجه المنشور خير شاهد على جرأة الحذف والاصطفاء والاختيار، بحيث لا يمرر كلمة ولا جملة ولا قصة تمريراً عبثياً أو يوردها أو ينشرها دون قناعة كاملة بأنها في مكانها الملائم وأنها تنهض بالوظيفة الإبداعية المأمولة.... إنتاجه أقل عدداً وكماً من مجاليه ومن الأجيال اللاحقة، لكن الإبداع يعترف بالنوع لا بالكم، وكاتب صعب مع نفسه على طريقة بهاء طاهر، ينحاز حتماً للنوع وللتميز، وليس لعدد الأعمال أو كثرة الظهور في الصحافة ووسائل الإعلام. كل من كتبوا عنه شهدوا بنزاهته، وبتوايه عن الشهرة التي تلاحقه، لا يميل إلى الظهور في الصحافة ووسائل الإعلام. لكن أعماله تفرض نفسها بتميزها وخصوصيتها وسحرها الخاص. ينشغل بهاء طاهر بجوهر الكتابة وليس بما يحيط بها من سلوكيات ومظاهر، ولذلك يمكن القول أن اسم بهاء طاهر من أسماء عصامية قليلة مردّ شهرتها إلى الإبداع ولا شيء غيره، ورغم غيابه عن مصر والعالم العربي منذ منتصف السبعينات وحتى منتصف التسعينات فقد عرفه القراء العرب وقدّروا تجربته، فاجتاز الامتحان الصعب مما يدلّ بعمق على تميز هذه التجربة وفرادتها الخاصة، وصمودها الذاتي دون دوافع أو عوامل مساندة

مما يشيع في حياتنا الثقافية العربية.<sup>496</sup> فهو يتحلى بفكرته الخاصة بعيدا عن الفكرة الجماعية بدون الوقوع في فخاخ الأيديولوجيات ولغة الشعارات، وكذلك يمتاز بطرق معاملته مع الكتابة، فهو ممن يقدسون الكلمة بإجلال وإكرام، فيكتب قليلا ويحذف كثيرا من حرصه على أن يكون الكلام أحسنه وأجوده، وأن تكون الكلمات جزيلة حصيفة يصطفئها من بين كثير الكلمات، حتى تصل أعماله من الجودة إلى أن تفرض نفسها على الساحة الأدبية من دون أن يستهوي لذلك، فشهد المثقفون بنزاهته وتواريه عن الشهرة.

---

496 عبيد الله، محمد، عالم بهاء طاهر، "ديوان العرب" ١ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٥،  
<http://www.diwanalarab.com/spip.php?article2543> حسب الزيارة في 4 يوليو 2017

## الفصل الثالث: أسلوبه الأدبي والفني

أما طريق الكتابة القصصية عند بهاء طاهر فلا يمشي قصصاً على آثار الحكمة المسبوقه في الذهن بل "إن العمل الأدبي كائن حتى لا سيطرة للكاتب عليه. ويقول أيضاً: أبدأ بكتابة رواية وأنتهى بقصة أو العكس. بدأت في كتابة "خالتي صفية والدير" على أنها قصة. وكان كل تفكيرى أن أكتب قصة قصيرة عن القس بشاي. ولكني وجدت الأحداث تفرض نفسها عليّ أثناء الكتابة. أنا أترك الشخصية تتصرف كما يمكن أن تتصرف في الحياة. فإذا كانت هذه الشخصية متمردة مثل صفية فسوف تأخذ الرواية إلى مصلحتها، وهو ما حدث<sup>497</sup>. ويقول إيهاب الملاح عن أسلوبه ومادته النصية " وهو أيضاً 'كاتب واضح مسيطر على مادته وأدواته. جديد في رؤيته ومتفرد في نوع أدائه. الصدق هو النبرة الأولى التي تصافحك في سطره، والتوازن الموضوعى هو العلامة الواضحة التي يقيم عليها بناء نصوصه»، كما كتب عنه ذات مرة علاء الديب. وقبلهما كتب على الراعى عنه «لا يقنع بهاء طاهر. لا يريد أن يقنع. تذهب معه إلى مجموعته «ذهبت إلى شلال» طلباً للقصة، فإذا القصة باقية من الشعر الجميل".<sup>498</sup>

ويقول فيصل دراج عن أسلوبه أن '(الحب في المنفى) عمل جميل ومتميز وبالغ المرارة. جميل في تكامله الفني ومسؤوليته الاخلاقية. ومتميز لأنه يفترق بناء ومنظوراً عن روايات عربية كثيرة. ففي الوقت الذي يشكو فيه كثير من الروايات من ترهل يكاد يقوض الجيد منها، فإن بهاء طاهر يعطي درساً نموذجياً في اقتصاد الكلمة وإيجاء

<sup>497</sup> Shihāb, Ashraf, Sa,,īd, Şifā. "Bahā" Ṭāhir: lā sayṭara li-l-kātib ,,alā l-,,aml al-"adabī". *Diwān al-,,arab* (1th April 2007) <http://diwanalarab.com/spip.php?article8479> (first accessed 07.10.2010).

<sup>498</sup> الملاح، إيهاب، إلى بهاء طاهر في عيد ميلاده، الشروق، مصر، الجمعة 13 يناير 2017 ، <http://www.shorouknews.com/columns/view.aspx?cdate=13012017&id=5da94bb5-f86f-4313-bf71-9a58a376394e> حسب الزيارة في 4 يوليو 2017



الأسلوب. فأسلوبه الإيحائي - الإشاري يصمت أكثر مما يقول، بحيث يبدو ما بين السطور أشد بلاغة من قوله الواضح البليغ، تاركاً القارئ ينظر إلى المكتوب وإلى المسكوت عنه في آن، إن لم يتركه يكمل القول الذي أوحى به الكاتب ولم يقله. وبسبب الواضح والمحدوف تتقدم الرواية كعمل حوارى، إذ يحاور القارئ النص، في بوحه وصمته، مثلما يحاور الوثيقة الفعلية التي تكمل القول الروائي من ناحية، وتسحب القارئ من متعة القراءة إلى غلاظة الوقائع اليومية من ناحية أخرى. والعمل متميز، لأنه لم يدفن موضوع الشرق والغرب في المنظور التقليدي، الذي يعطف أحد الطرفين على الفحولة والخير ويعطف الطرف الآخر على الأنوثة والشر، انما الإنسان والعالم في وحدتهما رغم الفروق والتمايزات والعنصرية المتجددة<sup>499</sup>. من يمضي خلال الحوارات التي تجري على لسان الشخصيات مع أنفسهم يجد هذه اللغة متسمة بالإيحاء والإشارة كما نجد في رواياته.

تقنية تعدد الأصوات: ظهرت هذه التقنية أولاً في روايته "نقطة النور" ثم بلغت إلى الذروة في رواياته "واحة الغروب". كما يقول إيهاب الملاح عن رواية "واحة الغروب" تستحوذ على اهتمام القراء والنقاد وجمهور الرواية بشكل عام، بما طرحته من رؤية جديدة وتوظيف فريد لتقنية تعدد الأصوات، ففي حين نرى أن تعدد الأصوات لا يظهر بوضوح وجلاء في رواياته الثلاث الأولى، نرى أنها شهدت تنامياً ملحوظاً وحضوراً لافتاً في رواياته الثلاث الأخيرة، وخصوصاً في «واحة الغروب» التي يظهر فيها وبوضوح ظاهرة تعدد الأصوات، بما يجعلنا مطمئنين إلى أن نطلق عليها (رواية بوليفونية)، حسب المنظر والناقد الروسى الشهير ميخائيل باختين.

<sup>499</sup> دراج، فيصل، "الموت في المنفى" بين الكابوس والأمثولة. بهاء طاهر : حين يموت الراوي ويظل الكاتب شاهداً، صحيفة الحياة، دمشق، تاريخ النشر، 1995/12/04

فنحن لا نرى فيها صوتاً واحداً مهيمناً على مجريات السرد، بل نحن إزاء أصوات متعددة لا يطغى فيها صوت على صوت، فكل صوت يعبر عن نفسه وذاته بوضوح واستقلال كاملين. ويظهر هذا التعدد من خلال توزيع فصول الرواية الذى يوزع السرد على صوتين أساسيين (محمود- كاثرين)، وتستكمل السرد أصوات لاحقة (الشيخ يحيى)، وعلى هذا فحوارية الرواية ظاهرة جلية، واعتراف بهاء طاهر بشخصياته وبحقها فى التحدث عن نفسها بمعزل عن تصورات الآخرين لها.

هذا الشكل الحوارى (البوليفونى) الذى يسمح لأصواته أن تتحدث كيفما تشاء جعل الحقيقة نسبية ولم يجعلها مطلقة، ولم يسمح لأى من هذه الأصوات أن تحتكرها، أو أن تهيمن على ما عداها من أصوات، وبالتالي منح القارئ أيضاً أفقاً غير محدد لتصوراته وتوقعاته ويذكر ما قاله بهاء طاهر بهذا الخصوص "جميل جدا أن يكون هناك من يدرك هذه الجماليات الكامنة فى أعمال الروائية.. أنت لا تتخيل كم أبذل من جهد فى محاولة تقمص كل شخصية من شخصيات الرواية، وأحاول أن أجعلها تفكر تفكيرها الخاص بها وتتحدث لغتها الخاصة بها"، ثم يضيف "أنا أعتقد أن فكرة التباين والاختلاف بين الأنماط اللغوية للأصوات الروائية هى فكرة خطيرة وجوهرية، وكثيرون يعتقدون أن تعدد الأصوات هو فقط تعدد الرواة أو الساردين فى الرواية دون الانتباه أو الالتفات إلى أن الصوت الواحد قد يحتوى بداخله الكثير من الأصوات المتعددة والمتباينة بما يوازى بينها وبين الصوت الواحد".<sup>500</sup> ويقول إيهاب الملاح عن "نقطة النور" يعاود بهاء البحث عن "نقطة النور" داخل أنفسنا، والكشف عن الحقيقة الإنسانية وجوهر وجودها فى روايته الهادئة المظهر، وهى رواية فى ظنى لم تنل ما تستحقه من تأمل وتحليل، رواية خادعة، يعرى مظهرها السردى البسيط بتناولها على أنها عمل واقعى اجتماعى، تعد بصورة أو

<sup>500</sup> الملاح، إيهاب، بهاء طاهر : عمر من السرد الجميل، جريدة "اليوم الجديد" الصادرة أسبوعياً، April 03 2015 ، <http://www.elyomnew.com/news/culture/2015/04/03/14100> حسب الزيارة فى 4 يوليو 2017

أخرى استكمالاً لما طرح بعضه في «الحب في المنفى»، لكنى في الحقيقة أراها أعمق وأبعد من هذا كله، فمن خلال تقنية تعدد الأصوات، سنواجه ثلاثة أصوات؛ "سالم" الحفيد، و"لبنى"، و"الباشكاتب" الجد، متباينة تماماً في لغتها وأحاسيسها وأفكارها وتصوراتها عن العالم وعن الأزمة التي يعانيتها كل منهم.. حاول بهاء طاهر في هذه الرواية أن يقيم تماثلاً بينها وبين فكرة الفرق بين "الروح" و"النفس" و"الجسد" عند قدماء المصريين، حيث كان المصريون القدماء يفرقون بين (الكا) و(البا).. رمزوا للروح التي تصعد إلى العالم العلوى ب(الكا)، والنفس التي تظل معلقة بين العالمين ب(البا)، هذه الفكرة للأسف لم يلتفت لها كثير من النقاد وقارئو الرواية".<sup>501</sup>

يقول محمد أنقار في مقدمته عن رواية 'نقطة النور'، "ما أحوجنا في زمن العولمة إلى واحات فيئ نلوذ بظلمها الوارف ونشرد بأذهاننا في أكوان النفس البشرية، ونمارس في أناة سنة التعامل العميق إبداعاً ونقداً. وإذا كان نيتشه قد لاحظ خلال القرن التاسع عشر أن التأمل قد فقد كرامة الشكل، وأننا لم نعد نتحمل كثيراً ((حكيماً)) من النمط القديم، كأننا نحمل في الرأس آلة دائمة الدوران، فإننا نعرب اليوم عن حاجتنا القوية إلى الروايات التي تتيح لقارئها محطات إبداعية شبيهة بتلك الواحات التي يمكن للقراء أن يترثوا فيها ليتدبروا همومهم اليومية ويطالعوا في هدوء آفاق مصائرهم من خلال صور تضم أكثر مما تظهر، وبواسطة إيقاعات أسلوبية لطيفة تقدر، على الرغم من لطفها العليل، على تصوير جوانب من مكابدات الإنسان المعاصر. والحق أن مثل هذا النمط من الروايات غدا نادر وعزيزاً بدعوى أن الفن المعاصر يلزم أن يكون تجريدياً مركباً إلى حد التعقيد ليضاهي بذلك تعقيد الحياة المعاصرة ذاتها وبيتعد عن كل واقعية بسيطة لا بد أن تكون- في نظر عديدين- فجة. وحينما يتحقق المطلوب النادر ونعثر على رواية من هذ القبيل غير الحدائثي ونشعر كأن مؤلفها يسبح ضد تيار الفن المعاصر

<sup>501</sup> الملاح، إيهاب، بهاء طاهر : عمر من السرد الجميل، جريدة "اليوم الجديد" الصادرة أسبوعياً، April 03 2015 ، <http://www.elyomnew.com/news/culture/2015/04/03/14100> حسب الزيارة في 4 يوليو 2017

بإيقاعاته المتصارعة وتركيباته اللامنسجمة أو تشييعية الجافة التي لا تلامس شغاف القلب بل تترك العقل يتوه حائرا. وتلك واحدة من غايات ما بعد الحداثة.

ولم يكن شأن صور ((نقطة النور)) كذلك على الرغم من أنها كتبت في زمن ما بعد الحداثة. هكذا تميزت تلك الصور بقدرتها الجمالية على معالجة الموم اليومية المعقدة بانسياب أسلوب يلف من حدة الموم من دون أن يغترب خطورته أو يغييها. ذلك أن الرواية حينما تصور الموم بأناة لا يجب أن تخلو ضرورة من درامية تتيح للقارئ فرصا حقيقية لكي يخبر تحولاتها ويتقرب تفاصيل قسوتها فيزيد بذلك في تعميق وعيه الشخصي. بيد أن هذا النهج الأسلوب في الكتابة لا يعني على الإطلاق أن الرواية المركبة أو ذات الإيقاع السريع قد لا تفلح في تلك الغاية قدر ما يعني ضرورة الإقرار بوجود إمكانية تعبيرية ليست بديلة، ولكن من شأنها أن تستهوي فئات أخرى من الكتاب والقراء. إننا نقول بديموقراطية مختلف الأنواع والأشكال الروائية وعدم المفاضلة بينهما. كما نقول في الوقت ذاته إن الرواية الواقعية المحسوبة على التيار الواقعي الذي يضم أكثر مما يظهر يجب أن يظل لها موضع تحت مظلة تلك الديموقراطية. ويلزم أن نذكر في هذا المضمار أن بعض القراءات النقدية قد تعاملت مع ((نقطة النور)) من منظور أساليب الكتابة عند جيمس جويس أو دوستوفسكي أو نجيب محفوظ أو من منظور الواقعية النقدية....

نعلم جيدا أن خصائص إبداع بهاء طاهر تستعصي على التقنين الدقيق والحصر الأكاديمي، شأنها في ذلك شأن كل إبداع أصيل بل وشأن خصائص النفس الإنسانية ذاتها. لذلك اتسمت التحاليل النصية في هذا الكتاب بأساليب المراوحة والرجحان واستلهاهم الذوق خوفا من السقوط من جديد في فخ ((بلاغة الأبواب)) الذي نحاشينا منه طوال فصول هذا العمل. (إشارة إلى كتابه "ظماً الروح"). لكن موقف أنقار ناتج من اعتباره للرواية

من منظور ما بعد الحداثة. فماذا لو اعتبرنا أن بهاء طاهر في هذه الرواية في وسط الطريق بين الحداثة وما بعد الحداثة، لأنها تشتمل على مزيج من الرجاء والقنوط، والمهبط والإفاقة، ونجد العقل الحائر في "واحة الغروب" الروية، وبدون شك هي تتسم بسمات ما بعد الحداثة.

يضيف أنقار بصدد "نقطة النور" "بدا لنا في المحصلة أن الروح عندما تظماً تطلب أسلوب التأمل من أجل البوح والإعراب عما في الأعماق من هواجس ومكابدات. ثم حينما يتسلل الظمأ بعد ذلك إلى الفن وبالذات إلى عوالم الرواية الواقعية يغدو أسلوب التأمل شرطاً جالياً ملحا من أجل تحقيق التوازن التصويري المطلوب. هكذا سيجد القارئ نفسه إزاء إبداع نسبناه في هذا الكتاب إلى ((الواقعية التأملية)) ونعتناه بها. إنها الواقعية التي تلتزم في آن واحد بالخوض في موضوعات الحياة وبتصوير انعكاساتها على العقل والنفس تصويراً متأنياً. إنه إبداع طوماس مان وكنوط هامسون وبهاء طاهر وجون كويتزي وإنغمار بيرغمان.<sup>502</sup>

يقول إدوار الخراط في مقاله عن رواية "قالت ضحى" التوتر – أو الصراع من أبرز خصائص فن القص عند هذا الكاتب، لأن السجية المسرحية هي من أهم سجايا هذا الفن – بهاء طاهر هو مؤلف المواقف المركبة وغير المحلولة تماماً، ومؤلف الحوار الذكي الحصيف الذي مهما بدا من سلاسته وتدفعه وعفويته يحمل أكثر من دلالة ويتشكل أكثر من نعمة. في هذه القصة على الأقل ليس هناك موقف واحد – ولا واحد – ينبسط أمامنا ببساطة أو يعطينا نفسه على وجهه السافر، أو يخلو من طبقة خفية تناقضه وبذلك تثريه، حتى مواقف تحقق الحب وإزدهاره تأتينا مشدودة ومثقلة ومتجاذبة الأطراف ليس فيه دعة ولا استنامة.<sup>503</sup>

<sup>502</sup> أنقار، محمد، ظمأ الروح أو بلاغة السمات في رواية ((نقطة النور)) لبهاء طاهر، ص 9-11، الانتشار العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2008

<sup>503</sup> الخراط، إدوار، مقدمة "قالت ضحى"، ص 7-13، دار الهلال، القاهرة، 1985

عند بهاء طاهر مقدرة على الدعابة، أو التهكم الخفي المرهف اليدين، أو السخرية الخفية لا نكاد نجد لها مثيلاً عند معظم كتابنا.

وهذه المقدرة هي التي تجعله إنسانياً وموجعاً في الوقت نفسه. أنظر كيف يخفف - ويهف - من جدية الأشواق وسداجة المثالية عندما يذكر مظاهرات الطلبة أمام ثكنات قصر النيل. وانظر كيف يجعل ممارسة الجنس في بيوت المقابر شيئاً مؤسياً لأن شريان التهكم والسخرية يسري فيه، من غير أدنى قسوة ولا أدنى إدانة. بل أنظر إلى روايته كيف يسخر بنفسه وبالأسطورة كلها، من غير إرادة.

هل في سخريته الهادئة بنفسه مقدمة لخلاصه، إذ أعرف كيف يقبل نفسه، ولعله عندئذ عرف كيف يغفر لنفسه ما لم يستطع من قبل أن يغفره أبداً عندما خان صديقه ووشى به، لا أمام الرصاص بل الأحذية السوداء، وهل كانت مقدمة الحركة الأخيرة في القصة، إذ يشتمل الرواية نفسه من حماة التردد والشك المستمرة وإدانة النفس "لست كبيراً بما فيه الكفاية، لكي يضرب، ويرد الضربات، لكي يدفع بالفساد - على الأقل - خارج بيته، ولكي ينضوي تماماً في النهاية مع سيد، دون تردد، لأن سيد هو رمز للمستقبل؟

لعل هذه الحركة الجدلية، على المستوى الإنساني والاجتماعي معاً، (وليست غناية الأسطورة ولا شاعريتها) هي

القيمة الكبيرة من بين قيم أخرى في هذه القصة الكبيرة.<sup>504</sup>

<sup>504</sup> الخراط، إدوار، مقدمة "قالت ضحى"، ص 7-13، دار الهلال، القاهرة، 1985

## المادة والواقع في رواياته

بما أن الروائي كاتب الواقعية في أعماله، فمعظم أعماله نجدها مأخوذة من الحدث الواقعي أو ترسم للواقع تصويراً ونقداً. وهذا لا يخفي على كل من جال خلال رواياته ونفذ إلى الواقع المصري. يقول إدوار الخراط عن روايته "قالت ضحى": "الهم الاجتماعي والسياسي لم يفارق القصة لحظة واحدة، لأنه هو - لا غيره - مناط العمل كله. "السياسة مأكله ومشربه". ولم ينسها قط وبأكبر قدر من التبسيط فإن شفرة القصة الحقيقية هي التوازي - بل الاندماج - بين بنيتين أساسيتين: علاقة الحب، على المستوى الشخصي (أو الأسطوري) وطلب العدل، على المستوى السياسي الاجتماعي، (والأسطوري أيضاً)..... يأتي استرجاع أسطورة إيزيس وأوزيريس (إيسيت وأوسير) لكي يجمع بين هذين المسارين، لكي يحل المأزق حلاً خارجياً، باستدعاء الأسطورة. هو حل يأتي فقط باستدعاء موضوع، ولا ينبع من مسار العمل نفسه.. ولذلك فهو حل حزين.....

وأيضاً يقول: بهاء طاهر هو مؤرخ اجتماعي كما هو مؤرخ لمنازح الفكر ومحبات القلب معاً، وأن في هذا التضافر سر من أسرار جمال هذا العمل؟ وليست حرب اليمن - في هذه السيرة - من قبيل الصدفة أيضاً، فلعلني أرى فيها بنية مبثوثة في العمل كله، تتساق وتتنجذب أصدائها من البنيتين الأساسيتين في القصة: طلب الحب أو مرض الحب من ناحية وطلب العدل من ناحية أخرى." 505

بهاء طاهر يقول عن روايته "خالتي صفية والدير"، "الوحدة الوطنية متأصلة وطابع غرائزي في الشعب المصري، لا يضاهي أى شعب آخر في كافة أنحاء العالم، فنفس المصريين متشعبة بحب الوطن وحب بعضهم البعض لا

505 الخراط، إدوار، مقدمة "قالت ضحى"، ص 7-13، دار الهلال، القاهرة، 1985

فرق بين مسلم ومسيحي، ومنذ قديم الأزل ونحن نعيش في ذلك الترابط الأبدي، وما وصفته في رواية «خالتي صفية والدير» التي تحولت في وقت لاحق لمسلسل تليفزيوني، كان واقعياً، وهذا ما شاهدته بعيني في صعيد مصر وتربيت عليه أنا وأجدادي.... فمنذ قديم الأزل نجد المسلم يسكن بجوار المسيحي ويقتسمان الطعام معاً، دون أي غضاضة أو كره كما يسعى البعض لزرعه بينهما، فنجد المسلم يذهب للمسجد يوم الجمعة، ونجد المسيحي يذهب للكنيسة لأداء القداس يوم الأحد، والوازع الديني يجمع بينهم.<sup>506</sup>

ويقول إيهاب الملاح عن روايته "شرق النخيل" و"قالت ضحى" في النصوص السابقة، التي صدرت كلها عن تأثر واضح بمجموعة من التحولات الجذرية التي ضربت مصر والعالم العربي خلال عقدي الخمسينيات والستينيات، وكان لها مردودها الكبير على كتابة بهاء طاهر واختياراته التقنية والأسلوبية، وظهرت خصائصه الكتابية بوضوح لا تحطئه العين المدربة، من حيث الميل إلى الاقتصاد اللغوي والتكثيف وصرامة البناء، لكن لغته ظلت تميل إلى التوازن بين الشفافية والمجاز وأصبحت ذات مستويات متعددة، وأصبح السرد أكثر يسراً وتدفعاً ذلك لأن الرؤية أصبحت أكثر اتساعاً ورحابة، وانصرفت كتابة بهاء طاهر إلى التعبير عن مأزق الوجود الإنساني في العصر الحديث، ولذلك نلاحظ أن حضور الواقع الصلب يراحمه حضور الفانتازيا والأحلام والأساطير وأشواق المتصوفة."

507

<sup>506</sup> نصر، محمد، بهاء طاهر في حوار له "البوابة": مصر غير مؤهلة لتطبيق الديمقراطية، البوابة نيوز، لبوابة نيوز - المركز العربي للدراسات السياسية، 57ش.مصدق، الدقي، الجيزة، الجيزة، مصر 12626 ، 27من شهر سبتمبر 2015 ، <http://www.albawabhnews.com/1519024> حسب الزيارة في 4 يوليو 2017

<sup>507</sup> الملاح، إيهاب، بهاء طاهر : عمر من السرد الجميل، جريدة "اليوم الجديد" الصادرة أسبوعياً، April 03 2015 ، <http://www.elyomnew.com/news/culture/2015/04/03/14100> حسب الزيارة في 4 يوليو 2017



"بشكل مجمل تتسم كتابات بهاء طاهر بمظهر واقعي غني ولافت، في شخصياتها وفي تعاملها مع التفاصيل الدقيقة، في اقتربها من أنفاس البشر، وفي بناء الحدث والاقتراب الحميم من منابع الحياة في اضطرابها وجريانها، كما تتضح الواقعية في أسلوب الحوار وفي وصف الأمكنة وخصوصاً في الأعمال القصصية الأولى وفي معظم الروايات، لكن هذا المظهر الواقعي الدقيق ليس إلا طبقة ظاهرية تشير إلى المظهر الاجتماعي كمصدر لمادة الكتابة، لكن ما يجعل لها امتداداً وغنى، يتمثل في العمق الإنساني، الذي يتمظهر إيجائياً ورمزياً في صور موازية وفي الأحلام والكوابيس وفي التداخيات الوجودية عند الشخصيات، في الحيرة التي تتجاوز الموقف الواقعي إلى أزمة الوجود وأسئلته الخالدة.

كتابات بهاء طاهر تصور الانتصار للحرية، ومواجهة القوى المتسلطة، سواء أكانت سلطة سياسية أو اجتماعية أو ثقافية، ولكن موقفه المبدئي هذا بعيد عن التمني، ولذلك يمكن أن تجد عنده أباً متسلطاً (غالباً) وأماً متسلطة (أحياناً) فالأب في قصة (الخطوبة) مثلاً يأخذ هيئة المحقق مع الشاب الذي يخطب ابنته، ثم يدخل معه بآليات التحقيق إلى صور من التهديد بالفضائح (المتفلة) ليتخلص منه بطريقة السلطة السياسية ومحققها البوليسيين. كذلك شخصية الأم وسلوكها مع ابنتها في قصة (الصوت والصمت) الأم الأربعينية التي تقمع ابنتها وتحاول إجبارها على الزواج لتتخلص منها كي تنفرغ لعلاقتها المشبوهة.<sup>508</sup>

ويقول شعبان يوسف أن بهاء طاهر كان لا يزال منشغلاً مع قضية العدالة الاجتماعية علي المستوي الفكري، وربما كانت تلك القضية هي التي تشغله دوماً في نصوصه، مع عدم الإخلال بالارتقاء الفني، ذلك الارتقاء الذي يشكّل عمود أي نص قصصي أو روائي أبدعه بهاء طاهر، ولكن تظل الفكرة الاجتماعية قائمة طوال

<sup>508</sup> عبيد الله، محمد، عالم بهاء طاهر، "ديوان العرب" ١ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٥،

<http://www.diwanalarab.com/spip.php?article2543>

الوقت في كل نصوصه، وكأنه يؤدي رسالة مهمة، وهو لا ينفى ذلك علي وجه الإطلاق، بل يؤكد في كل ما يكتبه من مقالات نقدية، ويشير شعبان إلى مقاله الذي أصدرته مجلة "إبداع" عام 1984، قال فيه بهاء طاهر: "أعتذر لأنني لم أتخلص بعد من بعض العادات السيئة والقديمة، فمازلت أرى أن للكتابة رسالة ودورا، ولم أستطع أن أتخضّر لدرجة تذوّق الأدب بعيدا عن هذه الرسالة -علي اعتبار أنه يعني ما يعنيه، ولا شيء خارجه إلخ-.."، ويتساءل في المقال: "وما ذنبي في حقيقة الأمر إذا كنت أرى هذه الرسالة ساطعة كالشمس حتى في أكثر الأعمال تبتلا لرّبة الجمال ولآلهة التجرد عن كل ما هو دنيوي؟"، ويستطرد قائلا: "سيغفر لي الجماليون هذا الضعف"، وجاءت هذه الكلمات التي تشبه الاعترافات في سياق نقده لإحدي قصص الكاتب الكبير محمد المنسي قنديل، ولأن بهاء يتمتع بروح عروبي عميق، وبحسّ تكونت أركانه في الفترة الناصرية، فهو يري أن العروبة كانت ومازالت فكرة قابلة لإصلاح الحاضر والمستقبل معا، ولأن المنسي قنديل كان يشكك في ذلك الأمر في قصته "الفتاة ذات الوجه الصبوح"، وضرب متون تلك الفكرة عرض الحائط، وذلك لما يتعرض له المصريون في بلاد الخليج، لذلك كانت رؤية بهاء طاهر تختلف مع ذلك المنحي الذي ظهر في قصة المنسي قنديل، ومع كافة السرديات التي تنحو هذا النحو. يضيف شعبان قائلا إنه كان متأثرا جدا بالمسرح، وعنصر الحوار عند بهاء طاهر، هو العمود الفقري في كل إبداعاته، ولذلك وجدنا أن فكرة مسرحية "كان"، من الممكن أن تنتقل إلى "قصة" بيسر وتمكن، ولكن هذا لا يدعنا نقول مثلما ذهب الكاتب الراحل الكبير إدوار الخراط ليصف قصص بهاء بأنها قصص مسرحية، فهو يقول -بعد استطراد- في مقدمة الطبعة الثانية لمجموعة "الخطوبة" القصصية التي

صدرت عن دار شهدي عام<sup>509</sup>1984

<sup>509</sup> يوسف، شعبان، بهاء طاهر.. الكاتب والفنان والضمير، أخبار اليوم، 6/8/102،

ويقول رئيس رابطة الكتاب القاص سعود قبيلات عند إعلان فوز طاهر بجائزة "مؤنس الرزاز"... إن الرابطة رأّت أن إنتاج طاهر الأدبي تميز " بالتنوع والتطور والاستمرار، منذ ستينات القرن العشرين وحتى اليوم. كما تميز بالالتزام بالثقافة وقرنها بالحرية وقضايا الإنسان العربي " مشيراً إلى دفاع طاهر عن "مكانة المثقف العربي" ودوره في التنوير وتمسكه بمواقفه واستقلاله المتماهي مع ما دافع عنه الأديب الراحل مؤنس الرزاز في إبداعه.... وأن طاهر، "مبدع ومثقف تنويري معني بالثقافة التنويرية وروائي وقاص مجدد بكل معنى كلمة التجديد" منوهاً إلى كونه "مسرحياً، و مترجماً، وإذاعياً إعلامياً عريقاً، وكاتباً متميز الأسلوب في مقالاته ودراساته، وناقداً مسرحياً وخبيراً في شؤون السيناريو والدراما".... وأن أعمال طاهر تنوعت في تناولها لـ"خصوصية الشخصيات المتحركة ضمن أمكنتها"، فمن البيئة المحلية في الصعيد، كما في رواية "خالتي صفية والدير"، إلى البيئة المدنية "في القاهرة وغيرها"، وصولاً إلى البيئات الأجنبية، وفق رؤية إنسانية عميقة ومرهفة ومنفتحة".<sup>510</sup>

<sup>510</sup> علي، عزيزة، الأديب بهاء طاهر يفوز بجائزة مؤنس الرزاز، جريدة الغد، نشر في الخميس 13 كانون الثاني / يناير 2011،

## الفصل الرابع: من ميزات رواياته

الحب

يقول إدوار الخراط: الحب في هذه القصة (قالت ضحى) - وفي مجمل عمل هذا الكاتب ليس بريئا أبدا، ولا هو صاف مزدهر بشمس نقية أبدا، بل ملتبس، مركب، متوتر حتى في اكتمال تحققه، هو حب فاوستي، فادح الثمن، ومن رهائن الشيطان الطبقي.<sup>511</sup>

ويقول خالد عميرة" الحب هو أحد محاور أدب بهاء طاهر البارزة .. لعله المحور الأهم، وهو حب إنساني شامل، يمتد للبشر .. للمكان .. للطبيعة (لا أعرف أسماء الزهور ولكني أحبها - قالت ضحى)، هي محبة خالصة للعالم .. فاتحة ذراعيها للجميع

### اللغة الفريدة:

هذه الصبغة الإنسانية في أدب بهاء طاهر احتاجت لغة خاصة لتعبر عنها، فخلق لغته المميزة، لغة تحمل عذوبة شخصياته وعذاباتهما، لغة حانية، بسيطة وآسرة، هامسة كأنها كتبت خصيصا لكل قارئ بذاته، فهو كاتب وحيد لقارئ وحيد.

<sup>511</sup> الخراط، إدوار، مقدمة "قالت ضحى"، ص 7-13، دار الهلال، القاهرة، 1985

ولعل هذه البساطة وتلك الحميمية الخادعة هي ما تجعل كل أحد يظن في نفسه القدرة على صياغة مثل تلك اللغة، لكنها الكتابة السهلة المستحيلة الممتعة، تلك التي تحمل روح الشعر وصدقته وخصوصيته وحميميته، لكنها في الوقت ذاته تحمل لغة الحكي بصرامته ودقته وعدم الكلفة فيه، إنها لغة بهاء طاهر .. وكفى..<sup>512</sup>

هذا الروائي البارع يكتب كما يعتقد عن الكتابة وميزاته ومشهود عليه من قبل القراء والنقاد على ذلك، يقول "الناس تتصور أن اللغة السهلة اليسيرة والكتابة بها مسألة سهلة بالنسبة للكاتب .. إن لغة الكتابة البسيطة هي مسألة سهلة بالنسبة للكاتب .. سوف أسمح لنفسي أن أقتبس كلمات لأستاذنا يحيى حقي " حينما قال لي مرة من المرات أن "الجملة الأولى أو الفقرة الأولى من قنديل أم هاشم أعدت كتابتها أكثر من عشرين مرة لكي تغدو بمثل هذا اليسر والبساطة " ... حقيقية الأمر أن اللغة هي الكاتب ... والأسلوب هو الرجل ... المعاناة الحقيقية والأساسية للكاتب هي صراعه الدائم مع اللغة ... بعض الكتاب يعتقدون أنه كلما تفنن الكاتب في ابتداعه لغة غنية بالألفاظ الفخمة والجزلة.. كان هذا إنجازا ... بعض هذه المحاولات بالفعل يعد إنجازا ... أقول البعض ... ولكني شخصيا أؤمن أن الكاتب ملزم ومدين لجمهوره بالتواصل ... ومن الممكن أن يكون للغير في ذلك رأى مختلف ... أنا شخصيا أتمنى أن يصل أسلوبى إلى أكبر قطاع من القراء ... أعتقد أن اللغة اليسيرة السهلة الوصول إليها صعب جدا ... هذه اللغة من الممكن أن تكون وسيلة تواصل مناسبة مع القراء وأنا حريص على

أن لا يهجرني قارئى .. ولا أهجر أنا الإبداع .. ولذلك يسعدني جدا أن بعض النقاد وبعض القراء يرون أن لغتي لها جمالها الخاص ولها بلاغتها الخاصة .. وهذا شيء بالطبع يسعدني جدا .<sup>513</sup>

القهر

ويقول خالد عميرة أن " للقهر عند بهاء طاهر مفهومه الخاص، فليس لزاما أن يكون ذلك على المستوى السياسي، لكنه قهر يمتد إلى جميع مناحي الحياة، قهر الأخ المتدين فجأة لأخته الأصغر، صاحب العمل للعامل، المدير لموظفيه، الأب لابنته، الزوج لزوجته، أنواع عديدة من القهر يمارسها المجتمع بكل أريحية، متغلغلة في نسيجه، تتسلل تدريجيا من القاع حتى القمة .. الحاكم والمحكوم. وعندما تتعرض شخصيات بهاء طاهر للقهر أو للمعاناة أو للأحلام المجهضة، فهو بالتأكيد لا يستمتع بعذابها، أو تعذيب القارئ معها، لكنه يستلهم – كما أشار لذلك بنفسه – مقولة تشيكوف «عندما أكتب عن أشياء محزنة فأنا لا أدعوكم للبكاء .. وإنما أدعوكم للتفكير»، فعذابات الشخصوس تظل طوال الوقت مفعمة بعذوبة الحكى التي تدفع للتأمل الواعى .. وليس الانهيار المميت"<sup>514</sup>

<sup>513</sup> Tāyil, Aḥmad. "Bahā" Ṭāhir al-ḥilm al-miṣrī wa-abnā" rifā,,a ḥiwār: Aḥmad Tāyil". *Alwatanvoice*, 12.11.2006, <http://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2006/12/11/66397.html>

<sup>514</sup> عميرة، خالد، بهاء طاهر كاتب وحيد .. لقارئ وحيد- مثلث الصعيد والمدينة والغرب صنع تنوع عوالمه وشخصه، نشر في الأهرام اليومي يوم 12 - 08 - 2016 من خلال شبكة ، <http://www.ahram.org.eg/NewsQ/542316.aspx> حسب الزيارة في 4 يوليو 2017

## الصوفية والشاعرية

يقول خالد عميرة مشيراً إلى ما قاله محمود أمين العالم عن تناول بهاء طاهر للقضايا الإنسانية والفواجع الشخصية أو القومية، حيث يقول: 'إنها كتابات تربت على مشاعرك في عفوية ورقة، مهما بلغت حدتها الدرامية وعمقها الدلالي'.. 'إنه قصاص شاعر متصوف، تفيض شاعريته وصوفيته برؤيا إنسانية حادة تغريك برومانسيتها الظاهرة عما وراءها من حكمة وعقلانية'. ثم عاود هذا البعد الصوفي التجلي بوضوح في روايته الرائعة الرقاقة "نقطة النور"، متمازجا في الوقت ذاته مع عوالم بهاء طاهر الفنية الأخرى، الممتدة لسنين، مفعمة بالمتعة والعمق، والانتصار للقيم الإنسانية الكبرى: الحب، الحرية، العدل،... والصدق. هذا الذي يمنع عنا كاتبنا الكبير أعواما وأعواما قبل أن يقدم لنا عملا جديدا، فالعمل الذي لا يصدقه هو.. ولا يشعر به هو.. لا يغادر أوراقه إلى المطبعة، فالأهم من وجهة نظره هو قناعته الشخصية بالعمل، وإحساسه به، رغم كل ضغوط النشر وغواية الناشرين.. كل ما يحدث خارج نفسك لا وزن له.. المهم ما تبطن.. الحق في داخلك أنت - نقطة النور" 515

## استخدام الأسطورة

قد استخدم بهاء طاهر الأساطير في روايته "قالت ضحى" و"واحة الغروب". في رواية قالت ضحى التي نشرت سنة 1985م. يستخدم الروائي أسطورة إيسيت أو إيزيس. وفي رواية "واحة الغروب" استخدم الأساطير المتعلقة بحياة الإسكندر. في السطور التالية نلقي الضوء على الأسطورة- عن نشأتها في الأدب العربي، وأنه لماذا يأتي الفنان بالأساطير في روايته.

يقول نضال الصالح: 'ترتد بدايات النزوع الأسطوري في الرواية العربية إلى نهاية عقد الأربعينيات من القرن العشرين، أي إلى المرحلة التي بدأت تتأسس معها ملامح الجنس الروائي العربي بمعناه الفني، والتي يمكن عدّها بداية لمنعطف روائي عربيّ جديد، كان يستمدّ أهميته ومكانته من شرطه التاريخي الذي بدأ مؤّراً بالحديث عن الذات القومية المضيّعة من جهة، وعن الانتماء إلى العصر من جهة ثانية.

ففي تلك المرحلة، "التحوّل والاستكشاف" بتعبير سيّد حامد النّسّاج، أو "ما بعد الانتساب أو التجنّس" بتعبير محمّد بزّادة، أو "التطوّر" بتعبير محمّد الباردي، أصبح الاتجاه نحو استلهام التراث، بأشكاله وتجليّاته كافة، يشكّل معلماً واضحاً، رغبة "في نقد الأوضاع السياسية والقيم الأخلاقية إمّا بالحلم والفتازيا، وإما باستيحاء الأساطير".<sup>516</sup>

معنى النزوع الأسطوري:

<sup>516</sup> د. الصالح، نضال، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، ص 29، من منشورات "اتحاد الكتاب العرب" 2001



ويعنى بالنزوع الأسطوري ' استلهام الأسطورة أو استيحائها، عن طريق كلي أو جزئي، ظاهر أو مضمّر، أو استدعاء الرموز الأسطورية، أو بناء عوالم تخييل روائية تتصل بأكثر من نسب مع ما هو أسطوري' وتشكل الأسطورة 'مكوّنًا أساسياً من مكوّنات متن النصّ الروائي ومبناه، أي النصّ الذي تتماهى الأسطورة ونسيجه الحكائي والجمالي.<sup>517</sup>

تقول الدكتورة مديحة عتيق عن استخدام الأسطورة في الرواية العربي: تسعى الرواية العربية المعاصرة لأنّ تجدد أدواتها التعبيرية بين الحين والآخر لتحافظ على أدائها الأدبي وشبابها الفني مستندة في ذلك إلى تقنيات مستوردة حيناً وإلى مقوماتها الذاتية ثانية محاولة أن تواكب منجزات الآخر الجمالية والمضمونية دون أن تفقد هويتها لذلك تقلد الرواية العربية في الاعتراف في الفلكلور الشعبي والخرافات، وتسعى لأن تطعم نفسها بسرود تاريخية وعقائدية وأدبية لتأسيس عالمها التخيلي بهذه العناصر الحكائية "المحلية"... لا يجد الروائي العربي بأساً من أن يستعين بالأسطورة في تقديم مكونات عالمه الروائي سواء اكتفى بأحداثها العجيبة أو شخصياتها المثيرة أو أجوائها الفانتاستيكية، ورغم ما يشوب مصطلح الأسطورة من سمعة سيئة. في مناخنا العربي على الأقل. وغمزات مشبوهة بسبب تقاطعها مع الخرافة والأكاذيب والأباطيل والخرارق، ورغم كل ذلك فإن الروائي العربي حاول مراراً أن يخطب ودّ الأسطورة منذ الأربعينات... ولعل أسباب مرادة الروائيين العرب للأسطورة لا تختلف كثيراً عن أسباب الشعراء والمسرحيين العرب، فالكل يسعى لتحقيق هدفين أساسيين: أولهما هدف سياسي وهو "اتخاذ الأسطورة قناعاً وقائياً يحميه من عين الرقابة، ويدع مسافة مجازية بينه، وثانيهما سبب فني وهو تحرير النص الأدبي من أسوار البلاغة القديمة التي تقوم على السجع والزخرف اللفظي والمبالغة واختبار الذاكرة في حفظ الغريب، أضف إلى

<sup>517</sup>د. الصالح، نضال، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، ص 8، من منشورات "اتحاد الكتاب العرب" 2001

ذلك كسر النمط الخطي للسرد الحديث الذي ينتسب شرعياً أو بالتبني للسرد التتابعي في السير الشعبية والحكايات التراثية.<sup>518</sup>

استخدام أسطورة إيزيس وأوزوريس في رواية قالت ضحى .

استخدم الروائي الأسطورة في روايته "قالت ضحى" على نحو جزئي مع استيحاء مضمرة إلى الأوضاع السياسية والاجتماعية التي تمر بها مصر تلو الثورة. جاءت الثورة مع تغييرات هائلة في المجالات الاقتصادية والسياسة التي وضعت الناس في صدم ومأزق. فقد كان الناس يقومون بتأييد ما أتت الثورة من الإصلاحات في المجال الاقتصادي وما يتعلق بملكية الإقطاع والأراضي، ثم كانوا يحسون بالضيق والغضب للحكم الباطش والقبض الخانق من قبل حكم جمال عبد الناصر. فكان هنا صراع بين الناس والحكم كما يقول بهاء طاهر، 'وليس ذلك فحسب، بل أن الصراع قد نشأ بين أنفسنا ووجداننا بين تأييدنا بما تفعله الثورة ضد الإنجليز ومن أجل استقلال الوطن وبين كراهيتنا لحكمها الباطش وقبضتها الخانقة'.<sup>519</sup>

وكذلك كانت هناك صراع داخلي لا يمكن تفسيره بين ما يؤمنون به من المبادئ من الاقتصاد الاشتراكي وما يحبون من الحياة الأرستقراطية، كما كانت وضع ضحى. فإنها هي ضحى التي تلجأ إلى أسطورة أيزيس وأوزيس في الرواية. إنها مطحونة بين مبادئها وبين ما ضاعت منها في حياتها. ضاعت منه ومن زوجها الأراضي وكذلك المنصب السياسي من زوجها إلا أنها تقول إنها مع الثورة. ثم نجدتها صريعة الأوضاع من أجل تدهور الأمور في

<sup>518</sup> د.عتيق، مديحة، توظيف الأسطورة في رواية "نزيف الحجر" لإبراهيم الكوني، أرشيف : أدباء وشعراء مطبوعات، منتديات ستار تايمز، -01/01/2011، <http://www.startimes.com/?t=26666885>

<sup>519</sup> طاهر، بهاء، خالتي صفية والدير، ص 19

بيتها. مع ضياع الأراضي والمجد السياسي ضاع منها ذلك الزوج الثري ذات المجد والسمعة حتى بدأ في المقامرة وتهلكة نفسه. تتدهور نفسية ضحى أيضا مع هذه التدهورات. لا تجد لنفسها ولأوضاعها تفسيراً بيننا فتحي حياة لاهية ضاعة بإقامة علاقات الغرامات في الوظيفة وفي النيابة. قد ترجع إلى نفسها البريئة فلا تجد تفسيراً ما عما يجري في داخلها وخارجها فتلجأ إلى الأسطورة وتستلهم منها لنفسيتها المتناقضة.

يقول نضال الصالح: تُعدّ أسطورة إيزيس وأوزوريس الفرعونية، من أكثر أساطير الموت والانبعاث تردداً في المنجز الروائي العربيّ الأساطيري، ليس بوصفها الأسطورة المركزية في بلاد الرافدين ومصر في هذا المجال فحسب، بل بوصفها الأكثر امتلاء بالرموز التي مكّنت الروائي العربي من تعرية الواقع حوله دون مواجهة مباشرة مع القوى المتنفذة فيه من جهة، كما مكّنته من تحذير نصّه في تراث المنطقة العربية التي ينتمي إليها من جهة ثانية. وكذلك قد يتم توظيف الأسطورة توظيفاً كلياً، أي أنّه يصوغ الأسطورة كلّها في قالب روائي، على النحو الذي يتجلى في رواية "إيزيس وأوزوريس"، وآخر يوظفها توظيفاً جزئياً، بمعنى أنّ الأسطورة لا تشكّل سوى حافز من حوافز السرد الروائي، وهذا هو الحال لرواية "قالت ضحى" <sup>520</sup>.

ويقول إدوار الخراط عن استخدام الأسطورة في قالت ضحى: أما التسادق بين الأنساق الثلاثة (وغيرها من الأنساق الثانوية من نحو علاقة الأب والأم، وعلاقة الراوية بأخته سميرة) من ناحية، وبين نسق الأسطورة الأوزيرية المستدعاة، من ناحية أخرى، فهو عنصر من عناصر التوتر غير المحلول، في تصوري، عنصر القلق، على ما فيه من بلاغة شاعرية، على ما فيه من مس لطبقة غائرة من تراث الوجدان.

<sup>520</sup>د. الصالح، نضال، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، ص 120، من منشورات "اتحاد الكتاب العرب" 2001

وإذا كانت صياغة "مرض العدل" من صنع الرواية- أو الكاتب الذي يتخذ من الرواية قناعا فنيا موضوعا على هواجسه هو نفسه- فإن "مرض الحب" يشتمل من صيغة العمل كله. وقد رأينا أن مرض الحب ينصهر بمرض العدل ويعكسه في الوقت نفسه، على أكثر من مستوى، وفيها مستوى الأسطورة المستعارة كأنها مرآة غائرة مجلوبة من زمن آخر تخيلنا في آن بأنها تدور في غير زمن وكان إيسيت ما تفتأ تظهر وترحل وتعود من غير نهاية. إن القلق الأساسي في استعارة الأسطورة هنا هو أن الأسطورة بطبيعتها غير تاريخية، بينما جوهر هذا العمل هو التاريخ. ومهما كانت مصدر الأسطورة تاريخيا فإن بعدها الميتافيزيقي هو البعد الأساسي، وخاصة إذا انقضت الظروف التاريخية المحددة التي ولدت فيها الأسطورة، وخاصة إذا استدعت الأسطورة في العمل الفني. إذا كانت أسطورة إيسيت تدور حول الخصب بعد المحل، تاريخيا، فإن قيمتها الباقية هي الخصب البعث، والقحط الموت، هي قيم ميتافيزيقية لا يمسه عمل هذا الكاتب ولا يقاربا، إنه يستدعي هذه الأسطورة أساسا لكي يضع حلا للمأزق الاجتماعي السياسي الذي يرصده بدقة بالغة. والمفارقة هنا بالضبط أن المأزق الاجتماعي السياسي لا يمكن أن يحل إلا حلا اجتماعيا سياسيا، ويكاد اليأس من هذا الحل يؤكد نفسه خلال القضية كلها، من أولها إلى ما قبل آخرها بفقرة واحدة مفاجئة.<sup>521</sup>

ويقول ماركس إن الدور الاجتماعي للأسطورة هو استخدامها في البحث عن المأزق والتناقضات الاجتماعية، فتمثل الأسطورة هذه التناقضات عن طريق الإيجاء.<sup>522</sup> ونجد بهاء طاهر أنه قد استخدم الأسطورة المتعلقة بحياة إسكندر في محاولة بحث الناقضات في الإنسان والمجتمع الإنساني. ولكنه لم يوظف الأسطورة كليا بل جزئيا كبناء

<sup>521</sup> الخراط، إدوار، مقدمة "قالت ضحى"، ص 7-13، دار الهلال، القاهرة، 1985

<sup>522</sup> Ryan, Michael, and Castle, Gregory, *Literary Theory from 1900 to 1966*, The Encyclopedia of Literary and Cultural Theory, Vol. 1, p 439 Wiley-Blackwell, UK, First Published 2011

جزئي للرواية مستهدفا منها إلى الإستلهاام في مواقف التناقضات. وقد ذكرت ذلك بالتفصيل في الباب الثاني تحت عنوان "الإمبرالية".

## خلاصة البحث

نحمد الله ونشكره على ما وفقنا من إتمام هذه الرسالة المتواضعة.

تكلّمنا في البداية عن الإطار الاجتماعي والسياسي لمصر الحديثة الذي عاش الروائي فيه. ثم دخلت في ذات الموضوع في البابين الثاني والثالث. في الباب الثاني قمت بتحليل القضايا السياسية كما صورها الروائي في أعماله الروائية، ووجدت أنه في رواياته تبنى النبرة الصادقة في تصوير الواقع السياسي على أرض مصر. فكأن أعماله وثائق تاريخية ترسم بدقة ومع الأداء الفني تلك المواقف والتقلبات التي عاشتها مصر وشعبها، وقد بدا لي أن أعماله -وأعني بالتحديد أعماله الروائية- أدق تعبيراً وتصويراً إذا ما قورنت بالأعمال التاريخية العلمية حيث أنّها صورت لنا تلك الوقائع التي قلما يتناولها الكتب التاريخية، فنجد فيها كيف أن قراراً سياسياً يأتي بتغييرات ملحوظة وتقلبات هائلة في حياة أفراد المجتمع، وكيف أنه يؤثر على الحياة العائلية علاوة على مدى تأثيره على المؤسسات الحكومية ونفسية الشعب. ولا يعني ذلك أنّها تقوم بتقديم كل التفاصيل التاريخية فليس ذلك مجال الأدب، بل المقصود هنا أن أعماله تقوم بتصوير المواقف عن طريق تبدو الأحداث فيها مرئية أمام القارئ كأنه شاهد لتلك الأحداث ومشارك فيها. فالعمل الأدبي يقول كثيراً على قلته بما فيه من إطار شامل ويستنبط القارئ كثيراً من الأحداث وإن لم يفصلها الأديب كل التفصيل.

إنه يثير بجدية بالغة قضية الحرية واضطهاد المثقف وكذلك الاضطهاد السياسي، ويقوم بتقديم نقد لاذع للحكم والسلطة، كما أنه يقدم قضية التطرف الفكري الذي يصون منه قليل من الناس. إنه صور التطرف الفكري لا بين أهل الديانة فحسب بل بين المثقفين الجدد والمثقفين أيضاً، ويرى أن الاعتدال والتوسط في جميع المواقف

خير مآلا وأحسن تأويلا. وكذلك هو يقوم بالدعوة إلى أهمية الحركة المدنية وخاصة من قبل الطلبة، كما أنه يقوم بتذكير الشعب عن أهمية المثقف وتذكير المثقف مسؤوليته والتزامه تجاه الشعب والمجتمع.

وجدت أن الروائي ليبرالي النزعة في المواقف السياسية، واشتراكي أو ليبرالي يساري في المواقف الاقتصادية، ومسلم ليبرالي في المواقف الاجتماعية مما تتعلق بالحياة الفردية والشخصية. ولا يخفى على من له إلمام بالنظريات الحديثة ما في هذه المواقف من تضارب وتناقض. فنجد فيه رجلا ليبراليا واشتراكيا ومسلما، والليبرالية تناقض الديانة، والاشتراكية تقوم وجهها لوجه أمام الليبرالية الاقتصادية من أن الأولى تقوم لتوجيه المحاولات لصالح المجتمع بأجمعها والثانية لمصالح الفرد وتطوره بدليل أن تطور الفرد تطور المجتمع. ولا مبرر لهذه التناقضات إلا أن سلمنا أن التناقضات من المحاسن، وهذا هو المقبول لدى عامة المفكرين والشعب في مواقف الحداثة، ولو أطلنا الكلام لظلمنا المحل.

وكذلك تظهر التناقضات في مواقفه في الحياة الجنسية لأشخاصها في الرواية، فإنه يقوم بتصوير هذه المشاهد بدون أدنى إدانة على الرغم من أنه لا ينكر بإسلامه ولا إسلام أشخاصه، وعلى نفس المستوى لا يرى في مسار الأمور على هذا الوجه من ذم. فالتصاوير فيها متناقضة تناقض الواقع، أو أنه قدم التصاوير على كل تناقضاتها في الواقع. هذا إذا ما رأينا إليه من وجهة خاصة، أما إذا رأينا إلي هذه المواقف من الواجهة الليبرالية فلا تناقض فيها، فإن الليبرالية تقبل التناقضات، وتفسح المجال لجميع أنواع السلوك في الحياة الشخصية ما لم تتعدى آثارها مباشرة إلى الآخرين. الإطار في أعماله إطار بهائي تتحمل كل هذه التناقضات الفكرية، ولكن لا تناقض هنا بين التصوير والواقع.

في أماكن أخرى وخاصة في تحليل قضايا الهوية التي برزت في أعماله من خلال فلسطين، والعروبة وحياة النفي، وجدته يرسم للإطار الواقع بتلك النبرة الصادقة. وذلك أن الواقع المصري قد كان تغير للعروبة وكذلك تغير موقف الشعب تجاه قضية فلسطين في الحقبة التي يقوم برسمها الروائي. على جانب هو يقوم بتصوير الواقع، وعلى جانب آخر هو ينهض كمتقف ملتزم ليلعب دوره. فنجدته ينقل مباشرة من الأحداث التاريخية، ويحاول إقناع القارئ في مواقف يعتقد فيها. فهو يرسم لأحداث فلسطين من مقاومة الشعب الفلسطيني من ما قبل 1948م إلى الحرب الإسرائيلية في سنة 1982م، كي يذكر عامة الشعب المصري خطورة الأمر وأهميتها حتى تتغير رؤيتهم وسلوكهم تجاه القضية الفلسطينية. وكذلك يحاول أن يقدم المبررات في تأييد العروبة، على الرغم من العروبة كانت على الإخيار عندما بدأ الكتابة الروائية. وذلك لإيمان هذه الروائي بالعروبة والاعتقاد في صلاحيتها أن تكون وسيلة الوحدة الشعب العربي في وجوه الأعداء.

في المواقف الاقتصادية هو يقوم بتأييد الاقتصاد الاشتراكي وخاصة المشروع الاقتصادي الذي تبناه الرئيس جمال عبد الناصر من تقسيم الأراضي، وتأميم وسائل الانتاج الاقتصادي. في تصوير قضية الاقتصاد هو يقوم ضد اقتصاد الرأسمالي كما يقوم ضد الشيوعية. نبراته تزداد حدة عندما يصور الاقتصاد الليبرالي وخاصة بوليسية الانفتاح الذي انتهجه الرئيس أنور السادات. ولا نجد في النبرة ذلك التوتر عندما يصور الشيوعية، فيوجه محاولاته في تصوير الشيوعية كأيدولوجية ذات الطابع اليوتوبي.

هو يتناول قضية العنصرية ومسايلها في الشعوب. هو يرسم للسلبات العنصرية التي تنتهي في الحرب والخيانة وتدمير الحياة والأنفس. ويصور أن الشعوب من العالم الأول أو الثالث لا يختلفون في هذا الأمر. ويركز على تصاعد العنصرية في أوروبا خاصة.



وكذلك هو يقوم بتصوير الأوضاع المتعلقة بالنفى والحياة في المنفى. ففي حين هو يصور أن الحياة في المنفى تسلب من الشخص نفسه وأمنيته ومطامحه وتلقيه في خطر ضياع النفس، هو لا ينسى أن يصور أن معاملة الأناس الراقين في الدول المتطورة مع اللاجئين لا تزال على أسوأها، وههنا هو لا ينسى أن يذكر الأسباب التي ترجع إلى الاضطهاد السياسي في الوطن. فإذا رأينا إلى المواقف مركبا وجدنا أن في هذه التصاوير إجماع مغموض تجاه الوطنية والحب للوطن. ما يتجلى لدى القارئ عند ما ينتهي من القراءة في بعض رواياته أنه من لا وطن له لا حياة له، لا ممت له، لا عيشة له، لا مطامح له ولا مستقبل له أي لا كرامة له في الحياة.

هو أيضا يقوم بتصوير الإمبرالية وخاصة في روايته "واحة الغروب" بداية من تصوير الاستعمار البريطاني وما جاء بها ذلك الاستعمار من تقلبات في حياة الناس، هو يلج أعمق إلى النفسية الإمبرالية بحثا عن قلبها وناصيتها ليجد نفسه أنه قد ولج إلى ظلمات النفسية الإنسانية، فتصبح مواقفه مشبوهة هناك.

وفي مواقف المعاملات بين الناس وخاصة بين الطوائف الدينية هو يحاول أن يثبت أن التسامح والمواخاة بين الناس خاصة بين المواطنين ثابت تاريخا وعقلا ونقلا. هو يلجأ إلى التاريخ المصري ليصور للقراء أن التودد بين الديانات من ميزات الحضارة المصرية، وكذلك يقدم مبررات إنسانية وعقلية تجاه هذا الغرض كما أنه يقدم الاستشهاد من القرآن الكريم بهذا الصدد.

في مواقف الحياة الذاتية لا تخلو رواياته من تصاوير الحب بين الجنسين، ويبدو في رواية "واحة الغروب" قد جاوز الشوط، فقام بتصوير ضئيل عن النفسيات الجنسية المثلية. لعل تصوير مواقف الحب في رواياته من مقتضيات العمل الروائي أكثر من أن تكون مواقف الواقع الاجتماعي، إلا أنه لا يمكن أن نقول أنه يفتر الكذب على الواقع الاجتماعي. فإن الأوضاع التي هو يضع شخصياته فيها لا يبعد منهم أن يتعاملوا كذلك. ويصور مواقف

الحب بطريق يبدو أن الحب أصل وجوهر للحياة، وأنه لا يمكن الحياة بدونه. والحب لديه عقلي ومادي وجنسي، وقد يصور الحب الروحي أيضا.

وما هو جديد في روايته "نقطة النور" هو قضية الفوران الجنسي في الشيخوخة، ومحاولة كبحة من الشيخ. ولعله حاول تصوير بعض الأمور التي قلما يحدث عنها الناس في المجتمع ولكنها أمر يلزم أن يتعرف الناس عليها، فالشيخوخة للرجل أو المرأة لا تعني دوما التنازل عن الحب والحياة الجنسية، بل ربما لا يمكن ذلك لكثير من الناس فإن ذلك ليس من خيارهم. فلعله يدعو المجتمع إلى التسامح في هذا الأمر وإلى تفسيح المجال للشيخ فيما يتعلق بالحياة الذاتية.

ومن أهم القضايا البارزة في رواياته هي قضية الطفولة، وقد تناولها من عدة نواحيها. فهو يتناول قضية الطفولة مرة من وجهة اهتمام الوالدين وسلوكهم، ومرة أخرى من جهة قضية التربية والبيئة الطفولية، ومرة ثالثة من وجهة الخلفية الاجتماعية للطفل. ما تعم في كل هذه التصاوير هي البيئة التي يتربى فيها الطفل. فإذا كانت البيئة محدودة للطفل لا يشب الطفل على خلق معروفة، وإذا كان تربى بدون الأب أو الأم فدوما يضيع من الطفل شئ في الحياة. فحينما لا يكون الأب مثلا للطفل من أجل غيابه أو من أجل عدم اهتمامه به يتخذ الطفل المنهج المغاير ويبحث في الخارج الأسوة التي يقتدي بها وربما يسيئ الاختيار. وما يتأثر به الطفل أكثر في مثل هذه البيئة هو أنه لا يثق في العلاقات الاجتماعية أو لا يكون فيها رشيدا كما حدث لسليم في رواية "نقطة النور" ولبريجيت في رواية "الحب في المنفى". وذلك علاوة على التعقيدات التي تخلقها مثل هذه البيئة في نفسية الطفل عن كثير من مواقف الحياة. والرسالة الواضحة من الروائي في هذه القضية هي أن الطفولة هي أهم مراحل الحياة لشخص،

ففي الطفولة يكون بناء الفرد، ولا يمكن للفرد أن يتسلل خارجا من ذلك الشخص - الطفل الذي تشكل في ذلك السن المبكر.

وفي النهاية يلزم أن أقول أن هناك تصاوير كثيرة لمواقف كثيرة لا يمكن استيعابها. فبذلت ما في وسعي أن أقدم بتحليل الأمور المهمة في رواياته كما صاب لي رأيي ، والمجال أوسع للآخرين أن يتناولوا أعماله من وجهات أخرى، فإن العلم لا ينتهي، ففوق كل ذي علم عليم. وما توفيقني إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

ونشكر الله شكرا كثيرا، ربنا فاجعلنا من الشاكرين، والحمد لله رب العالمين.

- 1- طاهر، بهاء، شرق النخيل، دار الشروق، القاهرة، 2010م (الطبعة الثالثة) (الطبعة الأولى 1985م)
- 2- طاهر، بهاء، قالت ضحى، دار الشروق، القاهرة، 2009م (الطبعة الأولى 1985م)
- 3- طاهر، بهاء، خالتي صفية والدير، دار الشروق، القاهرة، 2007م (الطبعة الأولى، 1991م)
- 4- طاهر، بهاء، الحب في المنفى، دار الشروق، القاهرة، 2010م (الطبعة الثالثة) (الطبعة الأولى، 1995م)
- 5- طاهر، بهاء، نقطة النور، دار الشروق، القاهرة، 2009م (الطبعة الأولى، 2000م)
- 6- طاهر، بهاء، واحة الغروب، (الطبعة الأولى، 2006م) دار الشروق، القاهرة، 2011م (الطبعة العاشرة)
- 7- طاهر، بهاء، الخطوبة (مجموعة القصص القصيرة 1972م) دار الشروق القاهرة، 2010م.
- 8- طاهر، بهاء، بالأمس حلمت بك، (1984) دار الشروق، القاهرة، 2010م.
- 9- طاهر، بهاء، أنا الملك جئت، دار الشروق، القاهرة، 2010م.
- 10- طاهر، بهاء، لم أكن أعرف أن الطواويس تطير، دار الشروق، القاهرة، 2010، الطبعة الأولى، 2009.
- 11- الحيدري، إبراهيم، النقد بين الحداثة وما بعد الحداثة، دار الساقى، بيروت، 2012
- 12- طاهر، بهاء، أيام الأمل والحيرة، دار دون للنشر والتوزيع، القاهرة 2013
- 13- صبري، محمد، تاريخ مصر الحديث من محمد علة إلى اليوم، طبعة أولى، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1926
- 14- أنقار، محمد، ظمأ الروح أو بلاغة السمات في رواية "نقطة النور" لبهاء طاهر، ص 9، الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2008
- 15- كيالي، عبد الوهاب، تاريخ فلسطين الحديث، طبعة عاشر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1990
- 16- د. رمضان، عبد العظيم، الصراع الاجتماعي والسياسي في مصر، طبعة ثانية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988
- 17- د. رمضان، عبد العظيم، تطور الحركة الوطنية في مصر 1936-1981، الجزء الثاني، طبعة ثالثة، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998
- 18- د. رمضان، عبد العظيم، مصر قبل عبد الناصر، طبعة أولى، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر، 1995

- 19- كولومب، مارسيل، (ترجمة) الشائب، زهير، تطور مصر 1924-1950، طبعة أولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998
- 20- د. حسين، طه، مستقبل الثقافة في مصر، طبعة ثانية، دار المعارف، مصر، 1996
- 21- جمعة، مصطفى عطية، ما بعد الحداثة في الرواية العربية- الذات، الوطن، الهوية، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011
- 22- الخراط، إدوار، مقدمة "قالت ضحى"، ص 7-13، دار الهلال، القاهرة، 1985
- 23- د. الصالح، نضال، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، ص 29، من منشورات "اتحاد الكتاب العرب" 2001
- 24- بدوي، جمال، نظرات في تاريخ مصر، طبعة أولى، دارالشروق، مصر، 1994
- 25- محمد عطية، أحمد، الرواية السياسية دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية، طبعة أولى، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1982
- 26- الشاذلي، عبد السلام، الأسس النظرية الحديثة في مناهج تاريخ الأدب العربي بمصر: (1870-1948)، طبعة ثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2009
- 27- الكومي، محمد شبل، القضايا الأدبية من منظور فلسفي، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2005
- 28- قطب، سيد، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ط10، دار الشروق، القاهرة، 2010
- 29- ضيف، شوقي، في النقد الأدبي، طبعة تاسعة، دار المعارف، مصر، 2004
- 30- ضيف، شوقي، البحث الأدبي طبيعته-مناهجه-أصوله-مصادره، طبعة تاسعة، دار المعارف، مصر، 2004
- 31- ضيف، شوقي، الأدب العربي المعاصر في مصر، طبعة عاشر، دار المعارف، مصر، 1992
- 32- د. فريد، ماهر شفيق، في الأدب والنقد، طبعة أولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2007
- 33- د. فريد، ماهر شفيق، دراسات نقدية، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006
- 34- أبو عوف، عبد الرحمن، فصول في النقد الأدبي، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2009
- 35- أبو عوف، عبد الرحمن، أوراق نقدية في الأدب، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006
- 36- الحافظة، علي، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، طبعة أولى، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987
- 37- د. نواز، عبد العزيز، النهضة العربية الحديثة، طبعة أولى، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، الهرم، 2002

- 38- موسى، فاطمة، في الرواية العربية المعاصرة، طبعة ثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1997
- 39- أحمد، محمد فتوح، جدليات النص الأدبي، ط1، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2006
- 40- سلطان، محمود، الإخوان المسلمون والجماعات الوطنية في مصر 2003-2007، طبعة أولى، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر 2008
- 41- تمام، حسام، عبد المنعم أبو الفتوح شاهد على تاريخ الحركة الإسلامية في مصر، طبعة أولى، دار الشروق، القاهرة، 2010
- 42- ولد أباه، السيد، الثورات العربية الجديدة: المسار والمصير، طبعة أولى، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، 2011
- 43- د. حنفي، حسن، الدين والثورة في مصر، 1952-1981، طبعة أولى، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1989
- 44- فينكليستون، جوزيف، (ترجمة) عبد الصبور، عادل، السادات وهم التحدي، طبعة أولى، الدار العالمية للكتب والنشر، مصر
- 45- د. السرجاني، راغب، الفتنة الطائفية في مصر، طبعة أولى، أقلام للنشر والتوزيع والترجمة، مصر، 2011
- 46- د. الأنصاري، ناصر، المجلد في تاريخ مصر، طبعة أولى، دار الشروق، القاهرة، 1997
- 47- الجوادى، محمد، النخبة المصرية الحاكمة، طبعة أولى، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2002
- 48- د. عبد الحميد سيد أحمد، نبيل، اليهود في مصر بين قيام إسرائيل والعدوان الثلاثي، طبعة أولى، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1991
- 49- د. الجمل، شوقي، و د. عبد الرازق إبراهيم، عبد الله، طبعة أولى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997
- 50- الأسكندري، عمر، و حسن، سليم، تاريخ مصر من الفتح العثماني، طبعة ثانية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996 و
- 51- فوزي، محمود، حكام مصر أنور السادات، طبعة أولى، مركز الياية للنشر والإعلام، مصر، 1997
- 52- البشري، طارق، دراسات في الديمقراطية المصرية، طبعة أولى، دار الشروق، القاهرة، 1987
- 53- عبد العزيز عمر، عمر، تاريخ مصر الحديث والمعاصر، طبعة أولى، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1989
- 54- القمني، سيد، رب الثورة أوزيس، وعقيدة الخلود في مصر القديمة، طبعة ثانية، المركز المصري لبحوث الحضارة، الهرم، مصر، 1999
- 55- إبراهيم المرشدي، محمد، عروبة مصر وأقباطها، طبعة أولى، دار الشروق الأوسط للنشر، القاهرة، 1993
- 56- د. شكري، غالي، عروبة مصر وامتحان التاريخ، طبعة أولى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1974

- 57- مقار، شفيق، قتل مصر من عبد الناصر إلى السادات، طبعة أولى، رياض الرئيس للكتب والنشر، لندن، 1989
- 58- حمدان، جمال، شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان، الجزء الثاني، طبعة أولى، دار الهلال، مصر، 1994
- 59- هيكل، محمد حسنين، مبارك وزمانه ماذا جرى في مصر ولها، طبعة أولى، دار الشروق، القاهرة، 2012
- 60- محسن، خالد، مصر بين الدولة الإسلامية والدولة العلمانية، طبعة أولى، مركز الإعلام العربي، القاهرة، 1992
- 61- فلاور، ريمون، (ترجمة، الناصري، سيد أحمد علي) مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر، طبعة أولى، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2000
- 62- رضوان، محمد، محنة الذات بين السلطة والقبيلة، ط1، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 2002
- 63- قاسم، سامح، بهاء طاهر.. الطفل الذي يطاردنا"بوابة نيوز، 2016/01/13 لمزيد المتابعة :  
http://www.albawabhnews.com/1715816 حسب الاتصال في 4 يوليو 2017م، البوابة نيوز  
- المركز العربي للدراسات السياسية، 57ش.مصدق، الدقي، الجيزة، الجيزة، مصر .
- 64- سكاى نيوز عربية، اختار مهرجان الأقصر للسينما المصرية والأوروبية الروائي المصري بهاء طاهر رئيساً شرفياً لدورته الأولى التي تقام في مدينة الأقصر الجنوبية، 5 يونيو 2012، العنوان الإلكتروني حسب آخر الاتصال من  
يونيو 29، 2017، <http://www.skynewsarabia.com/web/article/25459>
- 65- طائل، أحمد، بهاء طاهر الحلم المصرى وابناء رفاة حوار:أحمد طائل ، صحيفة "دنيا الوطن" رام الله، فلسطين، تاريخ النشر 11/12/2006، حسب الزيارة في 4 يوليو 2017  
<http://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2006/12/11/66397.html>
- 66- نصر، محمد، بهاء طاهر في حوار له "البوابة": مصر غير مؤهلة لتطبيق الديمقراطية، البوابة نيوز، لبوابة نيوز - المركز العربي للدراسات السياسية ، 57ش.مصدق، الدقي، الجيزة، الجيزة، مصر 12626 ، 27من شهر سبتمبر 2015 ، حسب الاتصال في 4 يوليو 2017،  
<http://www.albawabhnews.com/1519024>
- 67- عبيد الله، محمد، عالم بهاء طاهر، "ديوان العرب" ١ تشرين الأول  
<http://www.diwanalarab.com/spip.php?article2543>، ٢٠٠٥ (أكتوبر)
- 68- كرم، محمد-، الظنيني، داليا، بهاء طاهر في حوار له "البوابة": عندما أنظر إلى أحوال سوريا أقول الحمد لله أننا في مصر.. والمتفقون بلا تأثير أو مشروع ولا وجود لهم في الشارع..  
والمشهد السياسي يفتقر إلى الديمقراطية، البوابة نيوز، لأربعاء 11-05-2016 ،  
<http://www.albawabhnews.com/1925838>

- 69- عبدالشافي، هيثم، الأديب الكبير بهاء طاهر: «ياريت مصر تصبّح على الغلابة بساندويتش فول» (حوار)، صحيفة "المصري اليوم" 03-04-2016،  
<http://www.almasryalyoum.com/news/details/922109>
- شعير، محمد، بهاء طاهر: كتابة ضدّ اليأس ودعوة إلى التمرد، صحيفة "الأخبار" ثقافة وناس، العدد ٤٧٣ الثلاثاء ١١ آذار ٢٠٠٨، الموقع: <http://al-akhbar.com/node/121989>
- 70- عبيد الله، محمد، عالم بهاء طاهر، "ديوان العرب" ١ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٥،  
<http://www.diwanalarab.com/spip.php?article2543>
- 71- الملاح، إيهاب، إلى بهاء طاهر في عيد ميلاده، الشروق، مصر، الجمعة 13 يناير 2017،  
<http://www.shorouknews.com/columns/view.aspx?cdate=13012017&id=5da94bb5-f86f-4313-bf71-9a58a376394e>
- 72- يوسف، شعبان، بهاء طاهر.. الكاتب والفنان والضمير، أخبار اليوم، 6/8/2017،  
<http://adab.akhbarelyom.com/newdetails.aspx?id=276352>
- 73- قرني، محمود، بهاء طاهر مؤسس تيار الوعي في الرواية المصرية، الروائي المصري بهاء طاهر من الذين استمسكوا بدور الفن ووظيفته كأداة من أدوات تطوير الوعي المجتمعي،  
 صحيفة "العرب" الصادرة من لندن، نُشر في 28/03/2015، العدد: 9870، ص(14)
- 74- عميرة، خالد، بهاء طاهر كاتب وحيد.. لقارئ وحيد- مثلث الصعيد والمدينة والغرب صنع تنوع عوالمه وشخصه، نشر في الأهرام اليومي يوم 12 - 08 - 2016 من خلال شبكة،  
<http://www.ahram.org.eg/NewsQ/542316.aspx> حسب الاتصال في 4 يوليو 2017
- 75- دراج، فيصل، "الموت في المنفى" بين الكابوس والأمثلة. بهاء طاهر: حين يموت الراوي ويظل الكاتب شاهداً، صحيفة الحياة، دمشق، 1995/12/04
- 76- الملاح، إيهاب، بهاء طاهر: عمر من السرد الجميل، جريدة "اليوم الجديد" الصادرة أسبوعياً،  
 April 03 2015،  
<http://www.elyomnew.com/news/culture/2015/04/03/14100>
- 77- عبد السلام، محمد سمير، الهوية الجمالية للمكان.. قراءة في واحة الغروب ل بهاء طاهر،  
 الحوار المثمن-العدد: 3208 - 2010 / 12 / 7،  
<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=237504>
- 78- نصر، محمد، بهاء طاهر في حوار له "البوابة": مصر غير مؤهلة لتطبيق الديمقراطية، البوابة نيوز، لبوابة نيوز - المركز العربي للدراسات السياسية، 57ش.مصدق، الدقي، الجيزة،



الجيزة، مصر 12626 ، 27 من شهر سبتمبر 2015 ،

<http://www.albawabhnews.com/1519024>

-79 يوسف، شعبان، بهاء طاهر.. الكاتب والفنان والضمير، أخبار اليوم، 6/8/2015،

<http://adab.akhbarelyom.com/newdetails.aspx?id=276352>

-80 علي، عزيزة، الأديب بهاء طاهر يفوز بجائزة مؤنس الرزاز، جريدة الغد، نشر في الخميس

13 كانون الثاني / يناير 2011

-81 عميرة، خالد، بهاء طاهر كاتب وحيد.. لقارئ وحيد- مثلث الصعيد والمدينة والغرب صنع

تنوع عوالمه وشخصه، نشر في الأهرام اليومي يوم 12 - 08 - 2016 من خلال شبكة ،

<http://www.ahram.org.eg/NewsQ/542316.aspx> حسب الاتصال في 4 يوليو

2017

-82 د.عتيق، مديحة، توظيف الأسطورة في رواية "نزيف الحجر" لإبراهيم الكوني، أرشيف :

أدباء وشعراء مطبوعات، منتديات ستار تايمز، -2011/01/01،

<http://www.startimes.com/?t=26666885>

-83 زيزي، شوشة، بهاء طاهر: جيل الستينيات محظوظ بمساعدة الكبار، جريدة "البديل" يناير

29 الأربعاء 2014م ، العنوان الإلكتروني حسب آخر اتصالي في يونيو 29، 2017

<http://elbadil.com/author/zizi-shousha/>

## English Sources

- 1- Ryan, Michael, and Castle, Gregory, Literary Theory from 1900 to 1966, The Encyclopedia of Literary and Cultural Theory, Vol. 1, Wiley-Blackwell, UK, First Published 2011
- 2- Ryan, Michael, and Castle, Gregory, Literary Theory from 1966 to Present, The Encyclopedia of Literary and Cultural Theory, Vol. 2, Wiley-Blackwell, UK, First Published 2011

- 3- Brochert, Donald M., Encyclopedia of Philosophy, Vol. 5, 2<sup>nd</sup> Edition, Thomson Gale, USA, 2006
- 4- Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, A History of Egypt from Arab Conquest to Present, Cambridge Cambridge University Press, 1985
- 5- Bradley, John R, Inside Egypt- The Land of Pharaohs on the Brink of a Revolution, p 95, Palgrave Macmillan, New York, 2008
- 6- Goldsmith Jr, Arthur, Modern Egypt: The formation of a nation state, USA, Westview Press, 2004
- 7- Tibi, Bassam, Marion Farouk-Sluglett, and Peter Sluglett. Arab Nationalism: A Critical Enquiry. New York: St. Martin's Press, 1981
- 8- Poitics: Hooper, Charles, R.MSW. Salem Press Encyclopedia, Jan 2016
- 9- "love" Psychology and mental health ( online edition), Salem Press, 2013
- 10- Mahler, Gregory and R.W Mahler, Alden, The Arab Israeli Conflict- An Introduction and documentary reader, Routledge Taylor & Fransic Group, London and New York, 2010
- 11- Kimmerling, Baruch and S. Midgal Joel, The Palestinian People- A history, Harward University Press, Cambridge, Massachusettes, London, England, 2003
- 12- Pappé, Ilan, A History of Modern Palestine- One Land Two People, Cambridge University Press, UK, 2004
- 13- Quire, Ahmad ( Abu Ala), Peace Negotiations in Palestine- From Second Intifad to the Roadmap, I.B. Turis, London. New York, 2015
- 14- MEHREZ, S. Egypt's culture wars : politics and practice. London ; New York : Routledge, 2011., 2011. (Routledge advances in Middle East and Islamic studies: 13). ISBN: 9780415666879.
- 15- Said Aly, Abdel Monem, and Feldman, Shai, and Shikaki, Khalil, Arab Israel- Conflict and Peacemaking in the Middle East, Palgrave Macmillan, UK, 2013
- 16- Rubin, Barry, and Colp Rubi, Judith, Yasir Arafat- A Political Biography, British Library Cataloging-in-Puvlication Data, 2003

- 17- Pappé, Allen, *The Rise and Fall of A Palestinian Dynasty- The Husaynis 1700-1948*, University of California Press, Berkeley, Los Angeles, 2010
- 18- Ferris, jesse, *Nasser's Gamble*, Princeton University Press, New Jersey, UK, 2013
- 19- Levine, Mark, and Mossberg, Mathias, *One Land Two States*, University of California Press, London, England, 2014

- 20- Reem Bassiouney, "Redefining Identity Through Code Choice in al-Ḥubb fī 'l-Manfā by Bahā' Ṭāhir" *Journal of Arabic and Islamic Studies*, ed. By Alex Metcalfe, Department of History, Lancaster University, vol. 10/5 (2010): 101-118, [http://www.lancs.ac.uk/jais/volume/docs/vol10/v10\\_05\\_Bassiouney\\_101-118.pdf](http://www.lancs.ac.uk/jais/volume/docs/vol10/v10_05_Bassiouney_101-118.pdf) (last accessed 4 July, 2017), 101.
- 21- Foreland, Line Reichelt, Love versus Political Commitment An Arab Intellectual's Dilemma as Portrayed in Bahā' Ṭāhir's al-Ḥubb fī l-Manfā (Love in Exile), Thesis submitted for the Degree of Master of Arts in the field of Arabic language, Department of Culture Studies and Oriental Languages, Supervisor: Stephan Guth, UNIVERSITY OF OSLO, June 2011
- 22- Bradley, John R, Inside Egypt- The Land of Pharaohs on the Brink of a Revolution, Palgrave Macmillan, New York, 2008 Sabre s.r.o., Baha Taher: Of Hope and Rememberance, for more details: [http://www.pwf.cz/archivy/texts/articles/bahaa-taher-of-hope-and-remembrance\\_3109.html](http://www.pwf.cz/archivy/texts/articles/bahaa-taher-of-hope-and-remembrance_3109.html)
- 23- Clee, Nicholas, Arab Literature Goes International, Book Brunch, <http://www.bookbrunch.co.uk/page/free-article/arab-literature-goes-international/>
- 24- Cahoone, Lawrence, From Modernism to Post-modernism- An Anthology, Blackwell Publishing, 2003
- 25- Stoddart, Mark CJ. "Ideology, hegemony, discourse: A critical review of theories of knowledge and power." *Social Thought & Research* (2007): 191-225.
- 26- Bhargava, Rajiv and Acharya, Ashok, Political Theory An Introduction, Dorling Kindersley, India, 2008
- 27- McDermott, Anthony, Egypt from Nasser to Mubarak A Flawed Revolution, Croom Helm, USA, 1988
- 28- Shoukri, Ghali, Egypt: A portrait of A President, Zed Press, London, 1981
- 29- Bari, Zohurul, Modern Egypt Culture, Religion and Politics, Shipra Publications, Delhi, India, 2004

- 30- Broadley, A. M., How We Defended Arabi And His Friend, London, Chapman and Hall Limited, 1984
- 31- Marlowe, John, Cromer in Egypt, London, Elek Books, 1970
- 32- Mak, Lanver, The British in Egypt Community, Crime and Crises 1822-1922, London, I.b. Tauris, 2012
- 33- Lane-Poole, Stanley, A History Of Egypt in Middle Ages, London, Routledge, 2008
- 34- Vatikiotis, P.J., Amodern History of Egypt, London, Weidenfeld and Nicolson, 1969
- 35- Holt, P.M. Political and Social Change in Modern Egypt, London, Oxford University Press, 1986
- 36- Habib, Maha, F., Muslim Identities an Modernity, London, I.B. Tauris, London, 2016
- 37- Qubain, Fahim, I., Inside the Arab Mind A bibliographic survey of Literature on Arab Nationalism and Unity, Virginia, Middle East Research Associates, 1960
- 38- Shehab Eddin, Mohammad. M.H., Pan-Arabism and Islamic Tradition, Ph.D, The American University, Washington D.C., 1966
- 39- Farah, Tawfic, E., Pan-Arabism and Arab Nationalism the Continuing Debate,London, Westview Press. 1987
- 40- Pratt, Jeff, Class Nation and Identity, London, Pluto Press, 2003
- 41- Suleiman, Yasir, The Arabic Language and Nation Identity, Edinburg, Edinburg University Press, 2003
- 42- Jamal, Amal, Arab Minority Nationalism, London, Routledge, 2011
- 43- Hirschi, Caspar, The Origin of Nationalism, Cambridge, Cambridge University Press, 2012
- 44- Cleveland, William L., The Making of Arab Nationalist Ottomanism And Arabism in the thoughts of Sati al Hasri, New Jersey, Princeton University Press, 1971
- 45- Tauber, Eliezer, The Emergence of the Arab Movement, London, Frank Cass. 1993
- 46- Joseph, Felicity, and Reynolds, Jack, and Woodward, Ashley, The Continuum Companion to Existentialism, New York, Continuum International Publishing Group, 2011

- 47- Bacon, Michael, *Pragmatism An Introduction*, Cambridge, Polity Press, 2012
- 48- Klagge, James C., *Wittgenstein Biography and Philosophy*, Cambridge, Cambridge University Press, 2001
- 49- Pyle, A.J., *Locke*, Cambridge, Polity Press, 2013
- 50- Yablo, Stephen, *Thoughts Papers on Mind, Meaning, and Modality*, New York, Oxford University Press, 2008
- 51- Searle, John R., *Mind A brief Introduction*, New York, Oxford University Press, 2004
- 52- Strawson, Galen, *Locke on Personal Identity Consciousness and Concernment*, New Jersey, Princeton University Press, 2011
- 53- Atkins, Kim, *Narrative Identity and Moral Identity*, New York, Routledge, 2008
- 54- Ganeri, Jonardon, *Identity As Reasoned Choice*, New York, Continuum International Publishing Group, 2012
- 55- Chalmers, David, J., *Philosophy of Mind*, Oxford, Oxford University Press, 2002
- 56- Jameson, Fredric, *A Singular Modernity*, London, Verso, 2002
- 57- Nealon, Jeffery T., *Post-Postmodernism*, California, Stanford University Press, 2012
- 58- Veitch, John and Elwes, R. H. M. and Montgomery, George, *The Rationalists*, New York, Anchor Books, 1974
- 59- Hazlett, Allan, *Acritical Introduction to Skepticism*, London, Bloomsbury, 2014
- 60- Ghosh, Manjulika, *Understanding Philosophy*, New Delhi, Sandeep Prakashan, 2005
- 61- Guttenplan, Samuel and Hornsby, Jennifer, and Janaway, Christopher, *Reading Philosophy*, Oxford, Blackwell Publishing, 2003
- 62- Garfield, Jay I. and Edelglass, William, *A Handbook of World Philosophy*, Oxford University Press, 2013
- 63- Raju, P. T., *Introduction to Comparative Philosophy* , Lincoln, University of Nebraska, 1962

## Journals

- 1- Rowe, Paul S, Christian Muslim Relations in Egypt in the wake of the Arab Spring, Digest of Middle East Studies, Volume 22, Wiley Periodicals, 2013
- 2- Zohny.A.Y, The Future of Political Islam & Democracy in Egypt After The Arab Spring, Culture & Religion Review Journal, Volume 2014 Issue 4, Franklin Publishing Company, [www.franklinpublishing.net](http://www.franklinpublishing.net)
- 3- Manduchi, Patrizia, Arab Nationalism(s): Rise and Decline of an Ideology, Oriente Moderno, Vol. 97, Issue 1, 2017
- 4- Healey, Christina, Palestinian Territories, Our World, 2016, Research Starter
- 5- Casini, Lorenzo, Beyond Occidentalism: Europe and the Self in Present-day Arabic, EUI Working Papers, RSCAS 2008/30, Mediterranean Programme Series, <http://hdl.handle.net/1814/9367> as last accessed on 10 July 2017
- 6- Fandy, Mamoun, Egypt's Islamic Group: Regional Revenge, Middle East Journal, Vol. 48, No. 4, (Autumn 1994) pp 607-625, Stable URL: <http://www.istor.org/stable/4328743> , Accessed: 07-05-2016
- 7- Zohny.A.Y, The Future of Political Islam & Democracy in Egypt After The Arab Spring, Culture & Religion Review Journal, page 49-50, Volume 2014 Issue 4, Franklin Publishing Company, [www.franklinpublishing.net](http://www.franklinpublishing.net)
- 8- Jaggi, Maya, Cairo's Greatest Literary Secret, The Guardian, 11-4-2008, <https://www.theguardian.com/books/2008/apr/11/culture.bookerprize2007> last accessed on 10-07-2017
- 9- Aspden, Rachel, Sunset Oasis by Baha Taher, The Guardia, 01-11-2009, <https://www.theguardian.com/books/2009/nov/01/sunset-oasis-bahaa-taher> last accessed on 10-07-2017
- 10- Yohanna, Manor, Inculcating Islamist Ideals in Egypt, Middle East Quarterly, Fall 2015, Vol. 22, Issue 4, p 1-9
- 11- Kassab, Elizabeth Suzanne, Critics and Rebels: Older Arab Intellectuals Reflect on the Uprisings, British Journal of Middle Eastern Studies, Routledge, Published online on 19 March 2014,

<http://www.tandfonline.com/loi/cbjm20>

- 12- Bennett, Sophie, Transcendence and Immanence: Self and Other in Baha Tahir's Short Stories, *Arabic and Middle Eastern Literatures*, Vol. 1 No. 1, 1998, p 75-85
- 13- Mehrez, Samia. "Where Have All the Families Gone: Egyptian Literary Texts of the Nineties." *The Arab Studies Journal*, 9/10, no. 2/1, 2001, pp. 31–49. JSTOR, [www.jstor.org/stable/27933803](http://www.jstor.org/stable/27933803).
- 14- Henderson, Kristen and Ganguly, Rajat, Mubarak's Fall in Egypt: How and Why did it Happen? 2015, *Strategic Analysis*, 39:1, 44-59, DOI: 10.1080/09700161.2014.980547, accessed on 30-03-2016
- 15- WINN, P. Living the Chilean Revolution. *Radical History Review*. 124, 55-66, Jan. 2016. ISSN: 01636545.
- 16- Shihāb, Ashraf, Sa,,īd, Şifā. "Bahā" Ṭāhir: lā sayṭara li-l-kātib „alā l-„aml al-“adabī”. *Diwān al-„arab* (1th April 2007) <http://diwanalarab.com/spip.php?article8479> (first accessed 07.10.2010).



## المحتويات

1	بسم الله الرحمن الرحيم.....
2	مقدمة.....
7	الباب الأول: بماء طاهر حياته وأعماله والإطار السياسي الاجتماعي الثقافي.....
8	الفصل الأول: حياة بماء طاهر.....
14	أعماله:.....
16	الفصل الثاني: الإطار السياسي والاجتماعي والثقافي.....
19	التمهيد:.....
31	أولاً: التجربة الليبرالية : عهد الصراع وفشل التجربة الليبرالية.....
43	ثانياً: أيام العز والحنن، أيام جمال عبد الناصر.....
49	السياسة الخارجية:.....
51	مشروع العروبة.....
56	ثالثاً: إصلاح الإصلاحات وعهد الجمود: سادات ومبارك.....
62	رابعاً: عهد الجمود- الرئيس حسني مبارك.....
68	الباب الثاني: النقد السياسي في روايات بماء طاهر.....
73	الليبرالية.....
79	الفصل الأول: القضايا الليبرالية: الحرية الثقافية والسياسية، الاضطهاد والازدواجية.....
79	حرية الثقافة- الصحافة والإعلام.....
83	الدعوة إلى الحركة المدنية.....
87	حرية التفكير والاضطهاد السياسي.....
100	الفصل الثاني: قضية الالتزام.....
113	السياسة وخيبة الأمل.....
117	الفصل الثالث: قضايا الهوية- فلسطين والعروبة.....
117	قضية فلسطين:.....
117	نبذة عن تاريخ فلسطين الحديث.....
124	تصاعد عدد المهاجرين اليهود بين 1890م و1940م.....
125	قضية الأراضي ومقاومة الشعب الفلسطيني.....

128	المقاومة الفلسطينية كمقاومة عربية من الانتداب إلى حرب 1967م
134	المقاومة الفلسطينية كمقاومة وطنية
145	قضية العروبة:
155	الفصل الرابع: قضايا النفي والعنصرية والإمبرالية
155	قضية النفي والحياة في المنفى
162	قضية العنصرية
167	منظور الهيمنة والقوة وراء النظريات العلمية الحديثة
177	الباب الثالث: النقد الاجتماعي في روايات بهاء طاهر
178	المدخل - تحديد قضية اجتماعية
181	الفصل الأول: قضايا الحب والجنس
181	نظرية الحب:
195	الحب والجنسية في رواية "نقطة النور":
197	قضية الجنسية والزواج في الشيخوخة
200	الفصل الثاني: قضية التربية والبيئة للطفولة
210	الفصل الثالث: قضية الاقتصاد
223	الحوار مع النظريات الاقتصادية: الرأسمالية، الاشتراكية، الماركسية
226	الفصل الرابع: قضية التسامح الديني
234	الباب الرابع: إسهامات بهاء طاهر في المجتمع والأدب العربي
237	الفصل الأول: آراء بهاء طاهر عن المجتمع والثقافة والسياسة والكتابة
242	عن الوطنية والديمقراطية والعلمانية
247	الفصل الثاني: مدي إسهاماته في المسار الأدبي والمجتمع
254	الفصل الثالث: أسلوبه الأدبي والفني
261	المادة والواقع في رواياته
266	الفصل الرابع: من ميزات رواياته
266	الحب
270	استخدام الأسطورة
276	خلاصة البحث

282 ..... بيلوجرافيا

287 ..... English Sources

293 ..... Journals





**Political and Social Criticism in the Novels of Baha  
Taher: An Analytical Study**

*(Al-Naqd al-Siyasi wa al-Ijtimai' fi Riwayat Baha Taher:  
dirasah tahliliyyah)*

*Thesis submitted to Jawaharlal Nehru University in partial fulfillment  
of the requirements for the award of the degree of*

**Doctor of Philosophy**

Submitted by

**Mohammad Jilani**

Under the supervision of

**Prof. Mujeebur Rahman**



Centre of Arabic and African Studies

School of Language, Literature and Culture Studies

Jawaharlal Nehru University, New Delhi-110067

2017